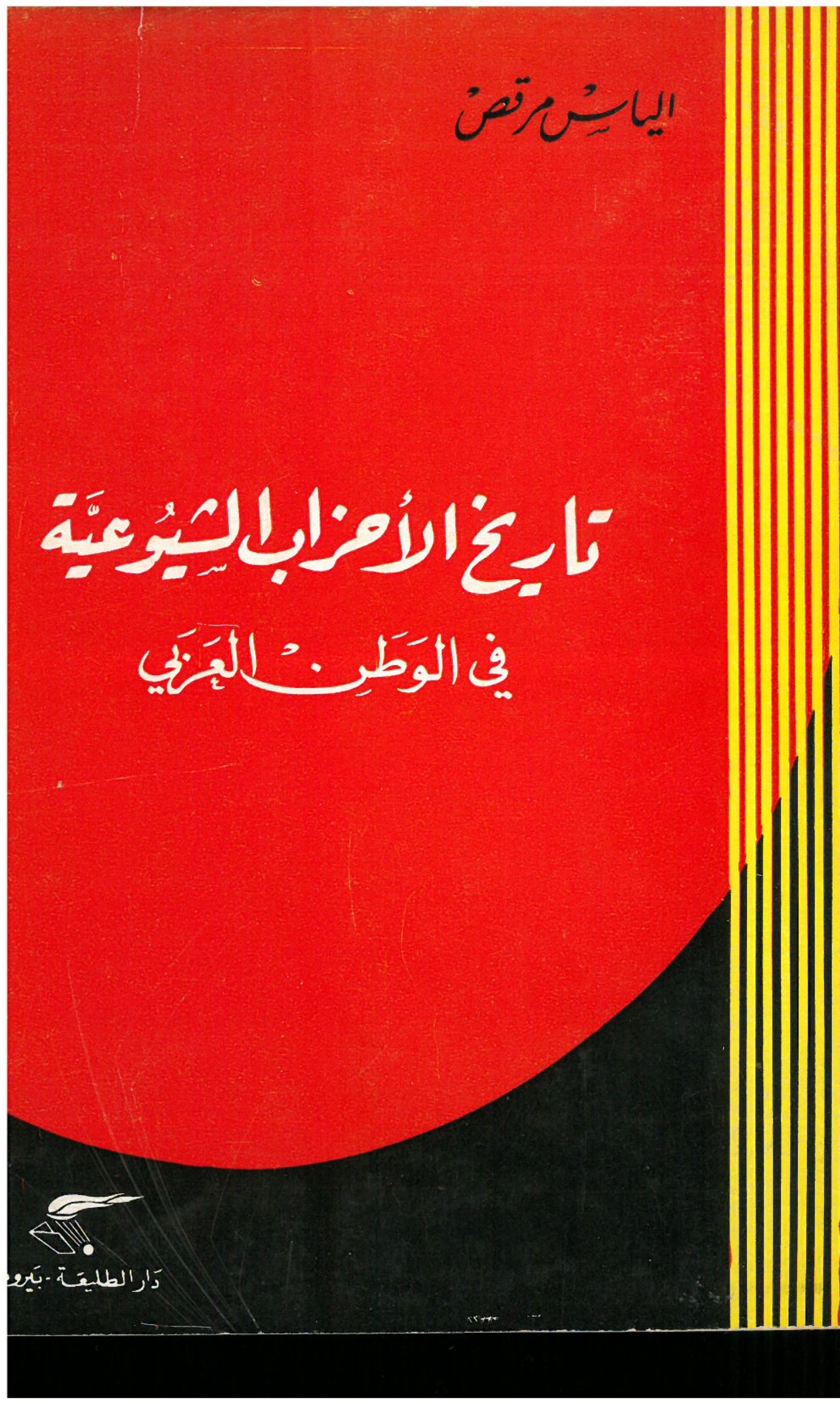


الياس مرقص
تاريخ الأحزاب الشيوعية
دار الطليعة

سيقول التاريخ كلمته !

وسيقرر ، عند إيراده لمصادر التنوير التي هدت جموع الشعب العربي في هـذه الفترة إلى واقعهم ، وواقع العصر الذي يعيشون فيه ، أن « دار الطليعة » كانت أسخى هذه المصادر ، وأجرأها وأكثرهـا اهتداءً بصالح الشعب العربي دون أي شيء آخر !

متابعةً لهذه الخطة ، نقدم هذا الكتاب ... دراسة موضوعية شافية للأحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، وإيراد دقيق مطلع لملابسات نشوئها ، ومتابعة تقييمية لتطور نموهـا وتحولاتها ، وتنوير صحيح لمدلولات مواقفها المصيريـة ، في هَدْي أحكام حيادية عقلانية ، قلما أتيحت لبحث سابق .

إن مسؤوليـة إلزام العربي بموقف مصيري معيَّن تتطلب إتاحة أسطع الأنوار له على ما حوله .

لذلك يطلب من كل عربي قراءة هذا الكتاب !

الثمن ٤٥٠ ق.ل.
٥٥٠ ق.س.

منشورات دار الطّليعة - بيروت

الطبعة الأولى
تشرين الثاني ، ١٩٦٤

المقدمة

ان تجربة الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية جزء من تاريخ العرب المعاصر ، من تاريخ الصراع الوطني والاجتماعي في العالم العربي .

إنها تجربة ضخمة ، في أعمالها وأفكارها ، في مآثرها وأخطائها ، في نجاحاتها وإخفاقاتها . وهي تجربة فريدة من نوعها :

أولاً . لأن الحركة الشيوعية ، قد غطّت بنشاطها ، منذ البدء ، غالبية البلاد العربية (بالرغم من أنها لم تنظر الى هذه البلاد كميدان موحّد لعملها) . وقد نشأت في الوطن العربي ، في أعقاب ثورة أوكتوبر ، من عدة مراكز في آن واحد : الاسكندرية ، بيروت ، فلسطين ، الجزائر . وشملت فيما بعد جميع البلاد العربية باستثناء جزيرة العرب وليبيا .

ثانياً . لأنها أقدم الحركات السياسية القائمة في العالم العربي . فالأحزاب والمنظمات السياسية التي ظهرت في مصر والجزائر وسورية قبل الحرب العالمية الأولى لم تعمّر طويلاً . أما الأحزاب

السياسية البرجوازية الكبرى التي ظهرت بعد الحرب (كحزب الوفد مثلاً) فقد اختفت من المسرح السياسي ولم يعد أحد يتكلم باسمها .

ثالثاً . لأنها الحركة الوحيدة التي قامت على أساس عقيدة تمثل نظرة محدّدة واضحة ومتكاملة الى العالم . انها الحركة السياسية الوحيدة التي تتبنّى رسمياً مبادىء الماركسية – اللينينية والتي تعتمد على تراث فكري سياسي عالمي .

رابعاً . لأنها الحركة الوحيدة التي تعلن نفسها جزءاً من حركة عالمية منظمة . ولقد كانت الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية فروعاً للأممية الشيوعية (الكومنترن) حتى تاريخ حلها في عام ١٩٤٣ .

وقد راعينا هذه الاعتبارات في هذه الدراسة ، التي تقتصر على الخطوط العريضة وعلى الأحزاب الرئيسية . ولئن ركّزنا قسماً كبيراً من اهتمامنا على الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، فذلك لا يعود الى توفّر الوثائق وحسب ، بل يعود أيضاً الى أهمية هذا الحزب الذي تمتّع بدوام واستقرار في القيادة لم تتمتّع بمثلها غالبية الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي وفي العالم .

الفصل الأول

« الفجر الأحمر » فوق العالم العربي

١٩١٩ - ١٩٣٥

آ – الحركة الشيوعية في الدورين الاول والثاني من تاريخ الكومنترن ١٩١٩ – ١٩٢٨ :

أفكار لينين وسياسة الكومنترن – مصر . لبنان . الجزائر . – قضية فلسطين . الوحدة العربية . مسألة البرجوازية الوطنية . –

كان النشاط الشيوعي ، الذي بدأ في العالم العربي في أعقاب ثورة أوكتوبر ، جزءاً من النضال العام الذي قادته الأممية الثالثة لقلب النظام الرأسمالي والامبريالية العالمية .

فقد شنت حكومة السوفيات حملة قوية على القوى الاستعمارية المتمثلة بشكل خاص في بريطانيا وفرنسا ، وفضحت معاهدة سايكس – بيكو منذ خريف ١٩١٧ ، وساندت الثورة التركية الكمالية ، وأبدت عطفها الصريح الكامل على حركة التحرر في المشرق العربي وفي سائر المستعمرات .

وأبدت الاممية الشيوعية منذ تأسيسها في عام ١٩١٩ ، اهتماماً كبيراً ببلاد الشرق ، فاعتبرت الثورة القومية لشعوب المستعمرات جزءاً من النضال العام ضد النظام الامبريالي العالمي ،

وفرضت على الأحزاب العمالية في الغرب مساندة استقلال المستعمرات وانفصالها عن الدولة المستعمِرة كشرط من شروط قبول انضمامها الى الأممية الجديدة .

ولاحظ الحزب الشيوعي الروسي في برنامجه الجديد أن الحرب الأهلية التي يخوضها الكادحون ضد الرأسمالية والاستثمار شرعت تندمج مع الحروب القومية التي تخوضها شعوب المستعمرات ضد الاستعمار العالمي .

إلا ان القادة الشيوعيين أعطوا تقديرات مختلفة عن الثورة القومية وأهميتها واحتمالات تطورها ومستقبلها .

كان لينين أكثر هؤلاء القادة اهتماماً بالثورة القومية وثقة بمستقبلها .

فقد حمل بشدّة على النزعة القومية — الاستعمارية في بعض الأحزاب الشيوعية الاوروبية ، ودعا هذه الأحزاب الى مساندة شعوب المستعمرات بالأفعال لا بالأقوال .

وأكد في تقريره الى المؤتمر الثالث للكومنترن (١٩٢١) أن الثورة القومية « سوف تتحوّل ضد الرأسمالية والامبريالية » .

وأكد في تقريره الى المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) مبدأ عدم حتمية المرحلة الرأسمالية من التطور بالنسبة لشعوب الشرق .

وسخر من الاشتراكيين الأوروبيين الذين لا يفهمون « أن الثورات القادمة في بلدان الشرق سيكون لها سمات خاصة وأصيلة أكثر مما كان للثورة الروسية بكثير » .

ودعا الى « الانطلاق من الحقائق الملموسة لا من المبادىء المجرّدة ، في حل جميع القضايا القومية وقضايا المستعمرات » .

وذهب في آخر مؤلف له الى أن نتيجة الصراع تتوقف في النهاية على « أن روسيا والهند والصين الخ ... تؤلف الكثرة الغالبة من سكان المعمورة » «١» * .

ولا نتجنى على الواقع إذا قلنا اليوم إن التاريخ أثبت صحة هذه الآراء . إلا ان هذا لا يعني أنها قد أعطيت في حينها ما تستحق من انتباه . فأنظار البلاشفة الروس كانت بشكل عام متجهة الى أوروبا باعتبارها مركز الصناعة والحضارة .

كان الشيوعي التتري الشاب سلطان غليف يقول ان أمم الشرق الرازحة تحت نير الاستعمار والفقر والتخلف هي أعظم شأناً من أمم الغرب الرأسمالي والاستعماري بالنسبة لمستقبل الثورة الشيوعية . وبالرغم من الطابع العاطفي والمبسّط لآرائه ، وبالرغم من اتجاهاته الاسلامية والطورانية ، فإن الصورة العامة التي قال بها كانت تستحق من الاهتمام أكثر مما نالت بكثير . إلا ان غالبية البلاشفة قابلتها بالاهمال او العداء . وكان بعضهم يخشى آسيا المتخلّفة . والمعروف أن ستالين بدأ عهد زعامته بصدام مع سلطان غليف أودى فيما بعد بحياته كمنحرف « قومي برجوازي » .

ولقد كانت قيادة الكومنترن في موسكو هي المركز الرسمي

*** — راجع الملاحق في القسم الثاني من هذا الكتاب ، مرقّمة ومرتّبة حسب الفصول .**

والرئاسة المعترف بها للحركة الشيوعية في العالم . الا ان هذه القيادة لم تكن تتسّم بروح « الوحدة التامة » و « الانسجام المطلق » التي طبعتها في العهد الستاليني اللاحق .

فالمسائل الرئيسية كانت تعرض على النقاش الجدّي في لجان الكومنترن وهيئته العامة. هكذا ناقش المؤتمر الثاني للكومنترن الموقف من الحركات التحررية البرجوازية في المستعمرات ، ومسألة حتمية المرحلة الرأسمالية من التطور(٢) .

ولقد كانت الاحزاب الشيوعية فروعاً حية تتفاعل مع المركز في وقت لم تكن فيه مصالح الاتحاد السوفياتي كدولة قد طغت على اعتبارات الثورة البروليتارية العالمية . فقد ظل الكومنترن حتى عام ١٩٢٦ تنظيماً أممياً حقيقياً تتمتع فيه الفروع بقسط كبير من المبادرة والاستقلال : فالكومنترن ، حسب التعبير السائد آنذاك ، نهرٌ تصب فيه سواقٍ عديدة .

وكانت مصر ولبنان وفلسطين بعضاً من هذه السواقي . صحيح أن منطقة الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية لم تكن مركز الاهتمام الرئيسي للكومنترن . ولكنها على كل حال لم تكن غائبة عن أنظاره ولم تكن خالية من الانفجارات الثورية . (وقد وجّه لينين نداءً حاراً الى المسلمين(٣) ، وعقد البلاشفة مؤتمراً لشعوب الشرق في مدينة باكو في عام ١٩٢٠) . حتى أن تاريخ الحركة الشيوعية في المنطقة يبدأ مع تأسيس الأممية الثالثة.

في مصر ، تشكّلت حلقات ماركسية ومنظمات شيوعية

بقيادة حسني العربي ، روزنتال ، أنطون مارون ، سلامه موسى ، وبمشاركة عدد من موفدي الكومنترن وجلّهم من اليهود الروس أمثال أفيجدور ، ناداب ، وآخرين .

وضمت هذه المنظمات ما يقدر بـ ٣ آلاف عضو . وشاركت مشاركة فعّالة في النشاط العمالي والنشاط الوطني الثوري (١٩٢٠ — ١٩٢٤) .

وحضر حسني العربي المؤتمر الثالث للكومنترن (١٩٢١) الذي اعترف رسمياً بالحزب الشيوعي المصري .

الا ان الحزب ظل ضعيفاً يعتمد على أعضاء من الاقليات والأجانب . وسار على نهج يساري متطرّف ، فحارب حزب الوفد وسعد زغلول بالرغم من ان ستالين أعطى في عام ١٩٢٤ تقييماً واقعياً عن هذا الحزب(٤) .

وقد أبدى بعض الخبراء السوفييت في موسكو — أمثال ترويانوفسكي — اهتماماً كبيراً بمصر ، الا انهم سقطوا في المخططات النظرية المجردة البعيدة عن الواقع الملموس وحاجاته الآنية .

وتعرّض الحزب الشيوعي المصري الى مطاردة البوليس السياسي البريطاني . ووجهت له حكومة سعد زغلول ضربة قاسية فانهار في عام ١٩٢٥ .

في بيروت ، ألّف أرتين مادويان وهيكازون بويادجيان ، في عام ١٩٢٠ ، عصبة شيوعية أرمنية أسمياها عصبة

سبارتاكوس(*) .

وبعد أربع سنوات ، تأسس الحزب الشيوعي اللبناني على يوسف يزبك وفؤاد شمالي وعـــدد من المثقفين وعمال التبغ ، وبحضور جوزيف برغر مندوباً عن الاممية الشيوعية(٥) .

ونشأت خلايا الحزب الأولى في بيروت وعـــدد من المـدن اللبنانية الصغيرة (بينما تأسست أول حلقات شيوعية في دمشق على يد شاتيلا) .

واحتفل الحزب بيـــوم أول ايار ١٩٢٥ في سينما كرستال ببيروت . كما أصدر فؤاد شمالي جريـــدة « الانسانية » (نسبة الى « الأومانيته » لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي) .

وفي العام نفسه ، أعاد الحزب تنظيم صفوفه وانتخب لجنة مركزية من خمسة اعضاء هم : ارتين مادويان، هيكازون بويادجيان، يوسف يزبك ، فؤاد شمالي ، وياكوب تيبر Tepper . وكان تيبر يهودياً روسياً قدم من فلسطين الى بيروت ، وانتخب سكرتيراً عاماً للحزب ، واسمه الحزبي الرفيق شامي .

وانعقد المؤتـمر الوطني الأول للحزب في ديسمبر ١٩٢٥ ، فأضاف عضوين جديدين الى اللجنة المركزيـــة وثبّت تيبر في منصب الامين العام .

* — نسبة الى عصبة سبارتاكوس في المانيا : وقد انبثقت عن « جماعة الأممية » وأصبحت نواة الحزب الشيوعي الالمـــاني، بقيادة روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنشت ، اللذين سقطا شهيدي الثورة السوفياتية الالمانية في برلين في مطلع ١٩١٩ .

وقد أعلن الحزب تأييده الكامل للثورة السورية (١٩٢٥)، وأصدر نشرات باللغات الفرنسية والارمنية والعربية ، دعا فيها الشعب إلى الانضمام لصفوف الثوار، والجيش الى العصيان والتمرّد .

واعتقلت اللجنة المركزية في عام ١٩٢٦ ، وحكمت المحكمة العسكرية بابعاد تيبر الى فلسطين ونفي القادة الآخرين الى ارواد والقدموس والرقة ، حيث أمضوا سنتين .

وفي فلسطين ، تأسس الحزب الشيوعي على يد نفر من اليهود الروس . وتزعّم الحزب ، بين عام ١٩٢٤ وعـام ١٩٢٩ ، أبو زيام ، وكان يعتبر من أبرز خبراء الكومنترن بشؤون الشرق العربي .

أما في الجزائر وفي بلدان المغرب العربي، فقد كانت المنظمات الشيوعية فروعاً محليـة للحزب الشيوعي الفرنسي الذي تأسس في عام ١٩٢٠«٦» .

وكانت فروع الحزب الاشتراكي الفرنسي في الجزائر قبـل عام ١٩٢٠ تضم العمال الاوروبيين وحدهم . وكانت هذه الفروع تلقي على ما تسميه « مسألة السكان الأصليين » Indigène نظرة أبوية مترفّعة مشبعة بالعواطف « الانسانية» والنزعة العنصرية، فتقترح اصلاحات تهدف الى « تمـــدين » العرب و « تحريرهم » بواسطة الدمـــج الثقافي والسياسي ، الذي يجب تطبيقـــه على مراحل ، خشية حدوث انفجار .

وعلى أثر الانشقاق الحاصل في مؤتمر تور بين الشيوعيين والاشتراكيين (١٩٢٠) ، جُمع شيوعيو الجزائر في منظمة تابعة للحزب الشيوعي الفرنسي الجديد . وكانت هذه المنظمة بادىء الامر تضم أكثرية ساحقة من العناصر الاوروبية ، التي عجزت بحكم وضعها الطبقي – العنصري ، عن فهم مبدأ التمييز اللينيني بين قومية الامة الظالمة وقومية الامة المظلومة . لذا فقد أجمعت في عام ١٩٢١ على معارضة « كل أشكال النزعة القومية عند السكّان المحليين » (Autochtones) .

وعندما وجّه الكومنترن من موسكو نداء في سبيل تحرير الجزائر وتونس عام ١٩٢٢ ، هاجم فرع سيدي بو العباس « مشروع إثارة الجمهور المسلم » باعتباره « جنوناً خطراً ، لا تريد فروع الحزب الشيوعي في الجزائر ، التي تملك الفهم الماركسي للمواقف ، لا تريد ان تحمل مسؤوليته امام حكم التاريخ الشيوعي » .

ذلك لم يكن موقف العناصر العربية في الحزب . فقد تجاوبت هذه العناصر مع الخط الثوري للأممية الشيوعية ، ولعبت دوراً كبيراً في حركة التحرّر الوطني .

لقد لعب الشيوعيون العرب الجزائريون المقيمون في فرنسا دوراً ملحوظاً في منظمة « نجمة افريقيا الشمالية » التي أسّسها في باريس عام ١٩٢٤ ، الرفيق عبد القادر الحاج علي ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، وأحمد بلفول ، ومناضل تونسي هو علي الجزائري .

وقد أُعلن تأسيس الحركة الجديدة بعد نجاح المؤتمر الذي عقده في باريس الامير خالد (حفيد الامير عبد القادر الجزائري) ، الذي كان له نفوذ ضخم بين الجماهير العربية . وقد أيّد الامير خالد خطة الاممية الشيوعية في إقامة جبة مناهضة للاستعمار على نطاق الامبراطورية الفرنسية . وقد انتدب أحمد بلفول ليكون واسطة اتصال مع سلطان الاطرش زعيم الثورة السورية .

ونظّم الاتحاد العام للشغيلة ، الذي ضم عمالاً مسلمين وعمالاً أوروبيين ، أعمال التضامن مع النضال الوطني في الريف وسورية والسودان وتونس ومدغشقر والهند الصينية .

لقد كان **الخط العريض** لسياسة الكومنترن ، في تلك المرحلة ، خطاً مبدئياً سليماً هو الدعوة الى تحرير جميع المستعمرات فوراً .

إلا أن تركيب الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية لم يكن كفيلاً بتحقيق هذا الخط . حتى أن بعض فروع الحزب في الجزائر قد وقفت ضد هذا الخط الثوري كما رأينا .

ومن جهة ثانية ، كان تقدم الحركة الشيوعية رهناً باتخاذها مواقف صحيحة من الطبقات الاجتماعية والاحزاب السياسية . تلك لم تكن الحال بالنسبة للحزب الشيوعي المصري الذي دخل في معركة مع « حركة التحرر البرجوازية » أودت بالحزب ... بينما أخذ بعض الخبراء السوفيات يعقدون الآمال على ... الإمام يحيى والملك عبد العزيز بن سعود لتحرير العرب وتوحيد البلاد

العربية !

ولقد كان تقدير بعض أقطاب الكومنترن (كالشيوعي الهندي روي والشيوعي الطادجيكي سلطان زاده) ان الحركة القومية (« البرجوازية ») تنحاز سريعاً إلى معسكر الغرب الرأسمالي .

ومن الواضح أن مستقبل الحركة الشيوعية ومدى تغلغلها في الجماهير الشعبية الوطنية يتوقفان ، الى حد ما ، على صحة هذا التقدير . ولم يكن هذا التقدير صحيحاً ، في كل الظروف والحالات .

كان المؤتمر الثاني للكومنترن قد « حسم » النقاش حول موضوع حركات التحرر البرجوازية بقرار نصّ على وجوب التمييز بين « الحركات القومية التي تكون حقاً ثورية » و « الحركات البرجوازية الإصلاحية » في المستعمرات ، ومساندة الاولى ومكافحة الثانية «٢» .

ولم يكن هذا التميز أمراً سهلاً عند التطبيق المحسوس : هل يكفي أن تعْمَدَ الحركة القومية الى عرقلة عمل الشيوعيين حتى تُصبح حركة اصلاحية تجب محاربتها ؟ هل يكفي ان تشرع الحركة في التفاوض مع الدولة المستعمِرة حتى يُحكم عليها بأنها « تفاهمت » مع الاستعمار وخانت قضية الشعب ؟

إن « دليل العمل » ليس نظرية كاملة « جاهزة » . لقد فتحت ثورة اوكتوبر عهداً جديداً في تاريخ الثورة الاشتراكية العالمية . وقد أدّى ذلك على الصعيد الايديولوجي ، الى استبعاد

الماركسية – الكاوتسكية ، ووضع أفكار ومنطلقات سليمة على يد لينين وغيره من الماركسيين الثوريين . غير ان نظرية الثورة البروليتارية العالمية بشكل عام ، والثورة القومية بشكل خاص ، لا يمكن ان تنشأ وتتكامل الا من خلال التجربة والممارسة .

وإن عاملاً آخر أثر على وضع الحركة الشيوعية في المنطقة العربية هو أنها نشأت أول ما نشأت على يد أفراد من الاقليات القومية او العنصرية او الطائفية وفي أوساط هذه الاقليات . واننا ، اذْ نسجّل ذلك ، ليس غرضنا دَمْغ الحركة الشيوعية بـ « الخيانة » او بـ « انحراف أصولها » ، وانما هدفنا تقرير الحقيقة التالية :

إن تركيب الاحزاب الشيوعية المحلية وقياداتها كان من العوامل الرئيسية التي حالت دون تحقيق الاندماج الضروري بين الحركة الوطنية والثورة الاجتماعية ، بين « العقيدة » القومية والعقيدة الاشتراكية العلمية . وإن هذا الاندماج كان السبيل الوحيد ، بالنسبة الى المستعمرات عامة والوطن العربي خاصة ، لتغلغل الحركة الشيوعية في أوساط الشعب ونموها على أرض صلبة متينة .

ولنا في الموقف من قضية فلسطين خير مثل على ذلك :

لقد كان يستحيل على القادة الشيوعيين المحليين غير العرب أن يفهموا فهماً صحيحاً طبيعة المعركة التي يخوضها الشعب العربي ضد الزحف الصهيوني على فلسطين . فكان رأي ابو زيام وجوزيف برغر وغالبية الخبراء الشيوعيين (باستثناء تيبر) ان الانتفاضات

العربية الموجهة ضد الصهيونية ليست الا حركة « لا سامية » (اي حركة عنصرية مناوئة لليهود) أو ضرباً من البوغروم (مذابح اليهود على يد المئة السود في روسيا القيصرية) مما جعلهم يدعون الى التآخي بين العرب واليهود ، كشعار رئيسي . وهذا يعني المرور على هامش القضية .

ب – الحركة الشيوعية في الدور الثالث من تاريخ الكومنترن ١٩٢٨ – ١٩٣٤ :

النهج « اليساري » في تاريخ الكومنترن . – سورية ، فلسطين ، الجزائر – قضية الوحدة ، قضية فلسطين – الخلاصة .

في عام ١٩٢٨ ، بدأ دورٌ جديد في تاريخ الكومنترن يعرف بالدور الثالث (١٩٢٨ – ١٩٣٤) .

كان الصراع في موسكو قد انتهى الى انتصار كامل أحرزه ستالين على رجال المعارضة : تروتسكي ، زينوفييف وكامنيف ، ثم بوخارين .

ولم تكن آراء تروتسكي او زينوفييف في المسألة القومية أفضل من آراء ستالين . غير أن سقوط المعارضة كان بمثابة تطور حاسم نحو « الوحدة التامة » ، التي كانت تعني في واقع الأمر ، القيادة المركزية الفردية والبروقراطية .

إنعقد المؤتمر السادس للكومنترن في عام ١٩٢٨ وأقر نهج التّصلب الذي تبلور تماماً في عام ١٩٣٠ حين أطلق شعار

« طبقة ضد طبقة » .

وجاء هذا النهج ، الذي وضعه ستالين ، نتيجة لانتكاسات الحركة الشيوعية في الغرب والشرق — وخاصة في الصين حيث انقلب تشانغ كاي شك على الثورة — ونتيجة لتفاقم الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي (النضال ضد طبقة نب من Nepmen وطبقة الكولاك) ولانتصار الستالينية على المعارضة اليمينية (بوخارين) .

ولقد أحسّ المؤتمر السادس بان هناك أزمة اقتصادية عالمية وشيكة وان حالة ثورية جديدة قد تنشأ قريباً . ولكنه وضع حلولاً خاطئة في مواجهة الازمة واستثمار الموقف الثوري .

فقد قرّر ، في الغرب ، الحملة على ما اسماه ستالين « الاشتراكية — الفاشية » — أي الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي وصفها ستالين بانها الجناح الأيسر او الجناح المعتدل للفاشية . وقرّر ، في الشرق ، الحملة على الحركة القومية التي وُصفت ، جملة وتفصيلاً ، بانها حركة اصلاحية برجوازية منحازة الى صف الاستعمار والرأسمالية الدولية .

في الثورة الصينية ، طبق زعيم الحزب لي لي سان خطة الهجوم على المدن الكبرى (١٩٣٠) . واشتد نهج المغامرة اليساري في العام التالي على يد زمرة وانغ مين وبوكو التي اعتبرت جميع فئات الكومنتانغ والجماعات الوسطية قوى معادية للثورة على

---

* — الاشخاص الذين استفادوا من « السياسة الاقتصادية الجديدة » (١٩٢١ - ١٩٢٨) .

حد سواء، بالرغم من بدء الغزو الياباني للمناطق الشمالية الشرقية. بينما شنّ الكومنترن في الهند حرباً شعواء على حزب المؤتمر وخاصة جناحه اليساري (نهرو) ، وعلى الاحزاب الوطنية البرجوازية في مصر وسورية .

وكما أن سياسة محاربة « الاشتراكية الفاشية » في المانيا (ومن ورائها محاربة الشيوعيين « المنحرفين » الذين طالبوا باقامة جبهة عمالية وشعبية مع الاشتراكيين ضد الخطر النازي الداهم) تتحمّل جزءاً من مسؤولية انتصار الهتلرية في المانيا ، كذلك فإن نهج التصلب في المشرق العربي قد ثبّت عزلة الاحزاب الشيوعية وفوّت عليها فرصة الافادة من الظرف الدولي الملائم (الازمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في خريف ١٩٢٩ واستمرت اكثر من ثلاث سنوات) ، ومن التصحيح الذي أصاب آنذاك التقدير السياسي لفكرة الوحدة العربية وللمعركة ضد الصهيونية .

لقد كان عدد من الخبراء السوفييت والشيوعيين ، في الفترة السابقة ، ينظرون الى الوحدة العربية نظرة عدائية ، ويقرنونها بفكرة الوحدة الاسلامية والوحدة الطورانية ، فلا يرون ان الوحدة العربية هي وحدة **قومية لأمة** واحدة ، بل يعتبرونها من صنع الاستعمار البريطاني (من نقطة شبه واقعية ، استَنْبَطوا استنتاجاً خاطئاً) . بينما أيّدها البعض الآخر ، ولكنه رأى في الامام يحيى تارة وفي الملك ابن سعود تارة اخرى البسمارك العربي المناهض للاستعمار الذي سيحقق الوحدة العربية المتحررة. وهذا خطأ آخر .

وتغيّرت الحال في عام ١٩٣١ ، حيث عقد في موسكو اجتماع لممثلي الحزبين الشيوعيين السوري – اللبناني والفلسطيني ، دعا الى بدء حملة شاملة من أجل الوحدة العربية تقترن بالنضال ضد الاستعمار وضد مصالح العائلات المالكة ذات النزعة الانعزالية الانفصالية . وقد عرّفت القرارات المتخذة أسس الوحدة العربية بأنها اللغة والتاريخ والتقاليد المشتركة ومكافحة العدو المشترك* .

ودعا أحد الخبراء السوفيات الى « حل المشكلة القومية العربية ليس في كل قطر عربي على حدة ، وإنما على صعيد عربي شامل » .

وأوضح البعض الآخر ان انشاء الاتحاد العربي المتحرّر لن يتم على يد ابن سعود او أي ملك عربي آخر ، بل سيكون نتيجة كفاح ثوري تقوم به الجماهير العربية ضد المستعمرين وصنائعهم المحليين .

بقي أن نعرّف « الصنائع المحليين » تعريفاً صحيحاً وأن لا نعمّم هذه التسمية على كل من ليس شيوعياً .

لكن هذا خلاف ما حدث .

كان فازليف قد صرّح في المؤتمر السادس للكومنترن أن حزب الوفد هو أعدى أعداء العمال والفلاحين ، وأن الشيوعيين مدعوون ليوجهوا إليه حرباً مميتة . وقد آلت هذه السياسة الى

(*) نقلاً عن كتاب والتر لاكور : « الاتحاد السوفياتي والشرق الأوسط » .

انهيار جديد وكامل للحركة الشيوعية في مصر عام ١٩٣٤ .

وأعلن الحزب الشيوعي السوري شعار « فليسقط الدستور ولتسقط الجمعية التأسيسية » كشعار ثوري مناوىء للنزعة الإصلاحية البرجوازية . والتقت هذه السياسة « اليسارية » ، موضوعياً ، مع مسلك الاستعمار الفرنسي الذي عطّل الدستور وحلّ الجمعية التأسيسية .

في هذه الفترة (١٩٣٠ – ١٩٣٤) ، نظّم الحزب صفوفه في دمشق وبعض المدن السورية . وانضم إليه جيل جديد : خالد بكداش ، أحمد ظاظا ، فوزي الزعيم ، وغيرهم . بينما انضم إليه في لبنان رفيق رضا ، فرج الله الحلو ، نقولا شاوي ، فؤاد قازان . وأصدر صحيفة سرية « الفجر الأحمر » .

وقد عدّل الكومنترن الموقف الخاطىء ازاء قضية فلسطين. ففي عام ١٩٢٩ (عام الثورة العربية في فلسطين) جرّم الكومنترن الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتاب السوفيات الذين شككوا في الطبيعة الثورية التحررية للانتفاضات العربية واعتبروها ضرباً من المذابح العنصرية المعادية لليهود . وكلّف تيبر (شامي) بتوضيح الامور للمنحرفين ابو زيام وبرغر والآخرين .

وكان هذا التصحيح يحمل أعظم الآمال لولا نهج التطرف اليساري الذي تجلى في تصريح تيبر بأن الحركة القومية العربية (« البرجوازية ») مستعدة دائماً للقيام بأبعد التنازلات للاستعمار الغربي .

ولا يمكن للاشتراكي العلمي ان يقطع على نحو مطلق بخطأ هذا الرأي (بل من واجبه ان يرى كل الاحتمالات وان يسجّل كل القرائن) . إلا انه لا يجوز له ان يحول الاحتمال الى يقين والحقيقة الجزئية الى حقيقة مطلقة وان ينسى التاريخ الواقعي والجماهير الواقعية . إن المثقفين — وخاصة ابناء الاقليات — يميلون الى القفز من فوق المراحل الحسية ، من فوق « ذاتية الجماهير » الى « الموضوعية » التجريدية التي تتكشف عن سقوط في ذاتيتهم الخاصة . هذا هو الاساس « النفسي » للانتهازية « اليسارية » . إن الاستعمار سيتعلم فيما بعد كيف يستفيد ، موضوعياً ، من هذه « الثورية اليسارية » التي ستتخذ أشكالاً كثيرة .

وشهد الحزب الشيوعي الفرنسي وفرعه الجزائري تنازعاً خفياً بين الاتجاه الثوري والاتجاه الانتهازي .

فقد دعت جريدة الاومانيته ، لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي ، دعت الاوروبيين الى التضامن مع العرب للرد على « الاستفزازات الوقحة التي تتمثل في أعياد الذكرى المئة لفتح الجزائر » ، والقيام بمظاهرات تطالب « بالاستقلال التام والجلاء التام» (١٩٣٠) . وفي العام نفسه ، لعب الشيوعيون دوراً كبيراً في مؤتمر العمال العرب الذي عقد سراً في الجزائر العاصمة .

وفي عام ١٩٣٤، تعاون الشيوعيون مع نجمة افريقيا الشمالية على أساس برنامج مشترك للقوى الثورية يهدف الى اقامة « نظام

عمالي وفلاحي ومصادرة أملاك المعمّرين الاوروبيين والاقطاعيين المحليين » . وكتبت صحيفة « النضال الاجتماعي » الصادرة في الجزائر باللغة الفرنسية ، تفضح « القوميين الاصلاحيين » وتدعو الى انشاء « حزب شيوعي عربي حقيقي » .

الا أن هذه الفترة نفسها شهدت بداية الانشقاق والتباعد بين الحزب والحركة الوطنية الثورية . وقد جاء الانشقاق نتيجة تضافر عاملين : الاتجاه العمالي الانعزالي في الحزب (شعار «طبقة ضد طبقة ») وقد تجلى منذ عام ١٩٢٦ في محاولة تحويل نجمة افريقيا الشمالية من جبهة وطنية ثورية مناهضة للاستعمار الى حزب عمالي على نمط الحزب الشيوعي الفرنسي ، والاتجاه الانتهازي اللاثوري السائد عند غالبية العناصر الاوروبية .

وقد أصبحت نجمة افريقيا الشمالية المنظمة الأم للاحزاب الوطنية الكبرى في بلدان المغرب . وانبثق عنها حزب الشعب الجزائري (١٩٣٧) الذي أصبح في عام ١٩٤٧ « حركة انتصار الحريات الديمقراطية » .

أما الحزب الشيوعي الجزائري فقد كان له مصير آخر. ففي تلك الفترة انسحب من العمل اثنان من أبرز القادة هما الحاج علي عبدالقادر ومحمود بن ليكهال . وفي تلك الفترة بدأت عملية « امتصاص » العناصر الشيوعية العربية الثورية من قبل الحركة الوطنية الثورية ، وهي احدى السمات البارزة وشبه الثابتة في تاريخ حركة التحرر الجزائرية وحركة التحرر العربية بشكل عام . إن هذه الظاهرة عكس ما توقعه الشيوعيون ، وعكس ما

حدث فعلاً في بلدان اخرى كالصين والهند الصينية .

كان نشوء الحركة الشيوعية ثمرة لنشاط موفدي الكومنترن وبعض العناصر المحلية من الانتلجنتسيا المتصلة بالفكر الاوروبي. ويمكن القول ان الحركة الشيوعية قد أتت الى الوطن العربي من الخارج . وليس في ذلك اية غرابة بالنسبة لبلاد متخلفة تفتقر كلياً الى التقاليد العمالية الاشتراكية . والبلاد العربية لا تختلف في ذلك عن الصين مثلاً .

لقد أتت الحركة الشيوعية الى الشعب العربي من الخارج ، جغرافياً وتاريخياً . انها لم تنشأ من التطور الذاتي للمجتمع العربي ومن حاجاته الملحة . بل كانت جزءاً من الحركة الشيوعية العالمية التي هي ثمرة تطور المجتمع الانساني ككل ، اي ثمرة تطور تناقضات النظام الامبريالي العالمي .

والمشكلة كلها تكمن في تحقيق الدمج بين هذا الجزء وبين الارض التي يعمل فيها ، حتى تكون الحركة الجماهيرية المتولدة من هذا الدمج ثمرة التطور الذاتي للمجتمع العربي ، المرتبط بتطور الانسانية جمعاء .

ولقد شهدت المرحلة الجديدة (١٩٢٨ – ١٩٣٥) تقدماً كبيراً في هذا الطريق ، على الصعيد الايديولوجي .

إن الدور الاول في تاريخ الحركة الشيوعية في البلاد العربية (١٩٢٠ – ١٩٣٥) يمثل العصر الذهبي بالنسبة لهذه الحركة : لقد ارتكبت أكثر من خطأ وتعرّضت لأكثر من تحوّل أو

تقلّب (شأنها شأن الحركة الشيوعية في الصين أو في اندونيسيا مثلاً) . إلا أنها لم تهادن الاستعمار واستطاعت ان تبلور عدداً من المبادىء الصحيحة .

إن مستقبل الحركة رهن بقدرتها على التمسّك بهذه المبادىء ونبذ الاخطاء تدريجياً ، وبقدرتها على التوفيق بين القضية الوطنية والسياسة العالمية للأممية الشيوعية في الظروف الجديدة ، وبقدرتها على صياغة نظرية الثورة العربية .

الفصل الثاني

« النضال ضد الفاشية »

١٩٣٦ - ١٩٤٥

آ – الحركة الشيوعية من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٣٩ : سورية ولبنان ، الجزائر .

سياسة الكومنترن الجديدة . الجبهة الشعبية في فرنسا وانعكاساتها العربية . قضية الاسكندرون، قضية فلسطين ، القومية العربية. الخلاصة.

انتهى الدور الثالث من تاريخ الكومنترن على أثر قيام الحكم الهتلري في المانيا ، ونشوء محور برلين – روما – طوكيو ، وتقارب الاتحاد السوفياتي مع الغرب ودخوله الى عصبة الأمم (١٩٣٣ – ١٩٣٥) .

انعقد المؤتمر السابع للكومنترن في موسكو عام ١٩٣٥ ، وأقر النهج الجديد المتمثل في شعار « الجبهة الشعبية » في الغرب و « الجبهة الوطنية » في الشرق .

وترتكز الجبهة الشعبية على وحدة الحركة العمالية (الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي) وتحالفها مع البرجوازية الليبرالية ضد القوى اليمينية الفاشية . وقد تشكلت في فرنسا جبهة شعبية من الشيوعيين والاشتراكيين والراديكاليين ، وأحرزت نصراً

كبيراً في انتخابات أيار ١٩٣٦ ، فتألفت حكومة من الاشتراكيين والراديكاليين ، برئاسة ليون بلوم ، يدعمها الشيوعيون .

أما الجبهة الوطنية في بلدان الشرق فهي ترتكز على التعاون مع الاحزاب الوطنية البرجوازية .

لقد حلّت سياسة التحالف مع « القوى الوسطية » محل سياسة توجيه الضربات الرئيسية ضد هذه القوى . وحلّ شعار « الجبهة » محل شعار « الطبقة » .

انتقدت سياسة العهد السابق ووصفت بأنها أهملت دور البرجوازية الوطنية . ونسبت الأخطار المرتكبة في مصر وفلسطين وسورية الى تخريب « العناصر المنحرفة » التي أقصيت منذ عام ١٩٣٣ . وقد اختفت هذه العناصر ومعظم الخبراء بشؤون الشرق الأوسط في التصفية الكبرى بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤٠ .*

لقد اختفى تيبر وابوزيام وبرغر عن المسرح . وبرز قادة جدد من ابناء المنطقة : بكداش ، رضا ، الحلو ، شاوي .

وأصبح هؤلاء، بالرغم من الجو العام الذي ساد الكومنترن ، يقودون العمل في بلدهم بقسط لا بأس به من الحرية .

---

* - رد الاعتبار الى معظمهم في عام ١٩٥٦ . وخرج من بقي منهم على قيد الحياة من معسكرات روسيا الشمالية .

ذلك لأن منطقة الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية غدت منطقة ثانوية جداً بالنسبة للسوفييت ، وبالنسبة للكومنترن الذي أصبح للحكومة السوفياتية . فقد ركّز الاتحاد السوفياتي اهتمامه على اوروبا أولاً، والشرق الاقصى ثانياً ، في معركة الحياة والموت مع الفاشستية العالمية .

ولأن حملة التطهير والتصفية أصابت جميع المؤسسات المعنية بشؤون الشرق (وزارة الخارجية ، دوائر الكومنترن، جامعة كادحي الشرق ..) .

في سورية ولبنان،أصبح التوجيه بيد خالد بكداش والحزب الشيوعي الفرنسي . وأصبحت القيادة متحدة متجانسة بعد انتصار خالد بكداش ومعاونيه وخروج المناوئين له من الجيل اللبناني الأول (يزبك ، شمالي ، وآخرون) .

وخرج الحزب الشيوعي السوري — اللبناني الى النور بعد فترة طويلة من النضال السري ، وأصبح له جريدة علنية تنطق باسمه هي جريدة « صوت الشعب » ، الأمر الذي يمكننا من متابعة سياسة الحزب متابعة دقيقة « يوماً بيوم » .

كان حجر الزاوية في سياسة الحزب التعاون الوثيق بين سوريا وفرنسا . ولم تأل قيادة الحزب جهداً في هذا السبيل في سوريا وفرنسا على السواء .

فقد أكد بكداش في خطاب ألقاه في مكتب الحزب بدمشق بتاريخ ٤ نيسان ١٩٣٨ :

« إن رفيق رضا مندوب حزبنا في فرنسا — الذي نأمل ان

نراه بعد أيام الى جانبنا – قضى أكثر من سنة في باريس يعمل ليل نهار لأجل ردّ حملات اليمين واحباط دسائسه والتعجيل بتصديق المعاهدة . وقد أوفدت لجنتنا المركزية الآن رفيقنا فؤاد قازان الى باريس ليتابع ما قام به رفيق رضا » . (صوت الشعب ، ١٩٣٨/٤/٩).

ولم يكن موقف الحزب الشيوعي في موضوع المعاهدة المزمع عقدها بين سوريا وفرنسا ليختلف عن موقف « البرجوازية الوطنية » ، الا في أنه كان يصر على ابداء ثقته المطلقة بـ «فرنسا الديمقراطية»، ويؤكد ضد المتشككين من حزب الكتلة الوطنية أن المعاهدة ستصدّق حتماً من قبل فرنسا .

فقد أعلنت جريدة صوت الشعب « أن المعاهدة ستصدّق رغم أنف الفاشست وطغاة المال الفرنسيين» لأن «الجبهة الشعبية هي فرنسا نفسها » . واستمرّت هذه التأكيدات بعد قيام حكومة دالاديه اليمينية . وحمل خالد بكداش على « الصحف التي تشكك في أمر تصديق المعاهدة وتعمل على إلقاء اليأس والقنوط في نفس الشعب السوري... » (صوت الشعب، ١٩٣٨/٨/٢١).

وكان من مستلزمات هذه السياسة المعتدلة محاربة جميع العناصر المعارضة لحكومة الكتلة الوطنية ، دونما تفريق ، واتهامها بالجهل والخيانة والتواطؤ مع الفاشية ، ودعوة العمال الى « الهدوء والسكينة والمحافظة على النظام .. » (صوت الشعب ، أعداد تموز واعداد تشرين الأول ١٩٣٧) .

وحدث أن تعرّض بعض أعضاء الحزب الى ملاحقة

السلطات في حلب . فكتبت صوت الشعب « تذكر بالوعد الذي قطعته الكتلة الوطنية على نفسها في باريس بلسان السيد هاشم الأتاسي الذي تعهّد بأن يكفل الحكم الوطني حرية الكلام والصحافة والاجتماع والنقابات وأن نتمتع بنظام ديمقراطي إنساني صحيح » (صوت الشعب ، ١٩٣٧/٥/٢٩) .

وليس أدل على مدى ثقة خالد بكداش وزملائه بحكومة الانتداب ورسالتها الديمقراطية من تهديد حكومة دمشق بحكومة باريس على النحو المذكور .

وكان من حرص قيادة الحزب الشيوعي على تأييد وصيانة معاهدة ١٩٣٦ أنها طلبت في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، في مقالين لخالد بكداش ، **الانضمام** الى الكتلة الوطنية لكي يتحقق « اتحاد الأمة السورية » ولكي « تنصرف البلاد الى العمل المثمر والاصلاح الذي ينتظره الشعب » «١» .

في قضية الاسكندرون ، اعترف الحزب بحق فرنسا في « اكتساب صداقة تركيا من أجل صيانة السلم والدفاع عنه » ، ودعا الى « الاخاء العربي – التركي » ، وحمل على العناصر العربية « المتطرّفة » .

ووافق الحزب في أيلول ١٩٣٧ على تعديل المعاهدة السورية – الفرنسية ، بما يتفق مع « حلول الاسكندرونة بعد ان صدقتها عصبة الأمم » (صوت الشعب ، ١٩٣٧/٩/١٧) .

وأشادت صحيفة الحزب بالاواصر الوثيقة بين فرنسا وتركيا

وباتفاقية لواء الاسكندرونة « القاضية بالدفاع عن سورية وفاق معاهدة ثلاثية تعقد بين هذه الدول الثلاث » (أي فرنسا وتركيا وسوريا) ، ودعت سوريا الى الانضمام الى الميثاق الشرقي (صوت الشعب ، ١٩٣٧/٩/١٨) .

هكذا ضحّت قيادة الحزب الشيوعي السوري بـلواء الاسكندرون باسم المقتضيات الحقيقية أو الوهمية للكفاح ضد الفاشية .

وبنفس الروح ، عالجت قضية فلسطين . فحوّلت النضال الفعلي ضد الصهيونية والاستعمار الى صراخ ضد اليمين الفاشستي اليهودي المتطرّف (جابوتنسكي) ، وأسقطت شعار الاستقلال ومطلب الجلاء ، وأيدت مشروع سوريا الكبرى تحت النفوذ البريطاني — الفرنسي «٢» .

وكذلك تساهلت مع بوادر تغلغل الاستعمار الامريكي في جزيرة العرب. فنشرت «صوت الشعب» في صفحتها الأولى مقالاً أشادت فيه بتقدّم المملكة السعودية « الخلقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعلمي » ، وخصت بالذكر «استخراج الزيت من قبل شركة امريكية » ، و « تفهّم جلالته لحاجيات البلاد » ... (صوت الشعب ، ١٩٣٨/١/١٢) .

أما الدعوة الى الوحدة العربية على أساس وحدة مقومات الأمة العربية والكفاح المشترك ضد الاستعمار وضد العائلات المالكة ، تلك الدعوة التي أقرّها اجتماع الحزبين الشيوعيين

السوري والفلسطيني المنعقد في موسكو عام ١٩٣١ فقد ذهبت أدراج الرياح . ولا ندري ما اذا اعتبرت تلك الدعوة هي أيضاً انحرافاً أوجده المخربون اليهود الذين سقطوا في نهاية الدور الثالث للكومنترن . وظهرت نظريات جديدة في « المسألة القومية » ، جاءت الى دمشق من الجزائر .

استقل الحزب الشيوعي الجزائري عن الحزب الشيوعي الفرنسي رسمياً في عام ١٩٣٦ . ولكنه ظل في الواقع تحت وصاية الشقيق الأكبر . بل يمكن القول انه في الوقت الذي تأسس فيه الحزب الشيوعي الجزائري كمنظمة شيوعية مستقلة ، كان يفقد صفته الجزائرية ويتحول الى ذيل للحركة العمالية الفرنسية .

وكان الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي ، موريس توريز ، قد أعرب ، امام المؤتمر السابع للكومنترن المنعقد في موسكو عام ١٩٣٥ ، عن اعتقاده بان استقلال الحزب الشيوعي الجزائري « أمر سابق لأوانه » ، وأبدى تخوفه من الميول اليسارية عند شيوعيي الهند الصينية وعن الميول « القومية »(؟) عند الشيوعيين السوريين (؟!) .

وبالرغم من أن مبدأ استقلال **الاحزاب** الشيوعية في المستعمرات قد رافقه مبدأ استقلال **نقابات** العمال في المستعمرات ، فقد استثنيت الجزائر وظلت منظمتها النقابية تحت وصاية باريس الرسمية ورقابتها المباشرة .

وبالرغم من ان مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي قد أقر مبدأ تحويل المنظمة الجزائرية الى حزب شيوعي مستقل ، فان هذا الاستقلال لم يتم بالمظهر الذي يليق بأهميته التاريخية . فقد انعقد المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الجزائري في أحد الاقبية في باب الواد ، بحضور السكرتير الثالث للحزب الشيوعي الفرنسي (تموز ١٩٣٦) .

وكان الاستقلال شكلياً . اذ أرسل الحزب الشيوعي الفرنسي ممثلا دائماً لدى اللجنة المركزية للحزب الجزائري ، هو جان شانترون المعروف باسم بارتل .

جاء بارتل الى الجزائر منذ عام ١٩٣٥ للاشراف على اعادة تنظيم الحزب وعلى « تعريبه » . وقد استطاع الحزب ان يوسع قواعده العربية بادىء الأمر ، وان ينشىء روابط متينة مع الهيئات الوطنية ولاسيا جمعية العلماء .

وأعلنت نجمة افريقيا الشمالية تأييدها للجبهة الشعبية في فرنسا . وفي ٧ حزيران ١٩٣٦ ، انعقد المؤتمر الاسلامي الذي ضم ممثلين عن جميع الاحزاب والهيئات الوطنية : نجمة افريقيا الشمالية ، الحزب الشيوعي ، رابطة العلماء ، جماعة فرحات عباس وابن جلول .

وفي آب ١٩٣٦ ، أطلق زعيم النجمة مصالي الحاج شعار « استقلال افريقيا الشمالية » أمام عشرة آلاف عربي احتشدوا في الجزائر العاصمة .

ولكن الحزب الشيوعي الجزائري تحوّل عن شعار الاستقلال

الى شعار « إقامة جزائر متحدة مع فرنسا حرة » .

ذلك كان تغيراً في « التكتيك » فرضته ضرورة اخضاع كل شيء للكفاح ضد العدو الاكبر : الفاشية . ولم يلبث التكتيك الجديد ان تكشف عن تعطيل للنضال الوطني وإلغاء للمبدأ والعقيدة .

فكان أن أيد الحزب الشيوعي مشروع بلوم – فيوليت القائل بمنح الجنسية الفرنسية لعدد من المسلمين الجزائريين . واتهم الحزب نجمة افريقيا الشمالية بالتواطؤ مع اليمين الفاشستي ، بينما اتهمت النجمة الاشتراكيين والشيوعيين بالانتقال من صف الاممية الى صف الاستعمار . وأصبحت القطيعة كاملة بين الحزب الشيوعي الجزائري وبين نجمة افريقيا الشمالية . وساهم الشيوعيون في اقصاء مناضلي النجمة عن المؤتمر الاسلامي (أوائل ١٩٣٧) .

وفي هذه الظروف ، لم يكن ممكناً أن تؤتي حملة « تعريب » الحزب الشيوعي الجزائري ثمارها المرجوة ، في وقت زادت فيه شعبية حزب الشعب الجزائري الذي خلف نجمة افريقيا الشمالية بعد حلها من قبل حكومة باريس في عام ١٩٣٧ . فالتعريب ليس رهناً بالنوايا الطيبة او بالمهارة التنظيمية ، انه يتوقف أولاً على سلامة الخط السياسي .

وتتوّجت هذه المرحلة بمجيء موريس توريز الى مدينة الجزائر ، حيث ألقى في ١١ شباط ١٩٣٩ خطاباً أعلن فيه نظرية « الامة الجزائرية الآخذة في النشوء والتكون » « بمساعدة الجمهورية الفرنسية » ، وهي النظرية التي تتعامى عن الاستعمار

الاسكاني وتحول تعليم الماركسية عن لاعرقية الامة الى مبدأ الامة – المزيج ، وترجيء النضال الاستقلالي الى ما بعد استكمال تكون أمة مستحيلة «٣» .

وفي ربيع عام ١٩٣٩ ، وضع خالد بكداش دراسة بعنوان « العرب وابحاث ستالين في المسألة الوطنية » ، يمكن اعتبارها « تعميماً » لنظرية موريس توريز عن الامة الجزائرية «٤» .

وفحوى نظرية خالد بكداش نفي عدد من مقومات الأمة العربية (الأرض ، التاريخ المشترك ، التكوين النفسي المشترك) – بلغة السخرية والتهكّم – ، والقول بأن المعاهدة السورية – الفرنسية هي خطوة الى الأمام في طريق تكوّن الأمة السورية .

هكذا جرى « تأويل » المبدأ لتبرير التكتيك، وهكذا تحوّلت العقيدة من دليل للعمل الى ذرائعية انتهازية .

انطلقت « سياسة الجبهة الشعبية » التي سارت عليها الأحزاب الشيوعية في فرنسا وأوروبا من مبدأ صحيح اكتشفته وطبقته الجماهير العمالية في باريس وغيرها قبل ان « تكتشفه » القيادات الشيوعية والاشتراكية ، وهذا المبدأ هو وجوب توحيد القوى بوجه الخطر الفاشستي (ولم تقر هذه السياسة في الحركة الشيوعية إلا بعد أن تكبّدت حركة العمال خسارة فادحة بنتيجة السياسة السابقة ، وهذه الخسارة اسمها : ألمانيا) . إلا أن هذا المبدأ قد تحوّل الى قالب جامد ، الأمر الذي فوّت على حركة

العمال إمكانية استثمار الاحتمالات الثورية ضد النظام الرأسمالي في عام ١٩٣٧ ، في فرنسا ثم اسبانيا .

كان المدّ العمالي في فرنسا قد تخطّى حدود مقاومة الفاشية، إلا ان الحزب الشيوعي (والقيادات العمالية بشكل عام) قد حصر المدّ في إطار الديمقراطية البرلمانية البرجوازية ، مراعاة منه لاعتبارات الستراتيجية الدولية والتحالف السوفياتي – الغربي ضد المانيا ودول المحور . حتى أنه لم يتعرض للرأسمال المصرفي الكبير دعامة الفاشية ، ولم يتعرض لمجلس الشيوخ المحافظ ، تلك القوى الرجعية التي انقضت بعد قليل على سياسة الجبهة الشعبية . بينما انحسر المد العمالي الثوري .

هذا ما حدث في فرنسا (١٩٣٦ – ١٩٣٧) . أما في المستعمرات ، فقد آلت « سياسة الجبهة الشعبية » الى خداع الشعوب المغلوبة وخذلان آمالها في التحرر .

إن معاهدة ١٩٣٦ كانت نصراً جزئياً للحركة الوطنية في سورية ، وكان يمكن أن تكون – فيما لو صُدّقت ونفّذت – تقدماً مرموقاً على طريق الاستقلال الناجز . وللوصول الى هذا الهدف ، كان ينبغي على القوى الوطنية في سورية أن تتابع النضال وان تعمل على تعبئة قطاعات شعبية جديدة .

أما الحزب الشيوعي السوري فقد اعلن انتهاء النضال الوطني والانصراف الى « العمل المنتج » و « الاصلاح الداخلي » ، وأكّد ضد المشككين ان « المعاهدة ستصدق » .

وظلت المعاهدة تنتظر في دروج باريس . وفقدت سورية

لواء الاسكندرون . بينما فقدت الديمقراطية اسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ...

كان الحزب الشيوعي السوري – اللبناني يريد ، في سورية ولبنان ، أن يساعد القوى اليسارية في فرنسا ضد « الفاشست الفرنسيين » . والحال إن المساعدة الوحيدة ، الممكنة والمعقولة والحقيقية ، كانت النضال ضد الاستعمار الفرنسي ، النضال الشعبي الجماهيري ضد ركائز الفاشية المتمثلة في الاستعمار والسياسة الاستعمارية . أما دعوة الشعب السوري لانتظار نتائج الصراع الدائر في مدينة باريس والابتعاد عن « أعمال التطرّف » فهي موقف ينسف القضية الوطنية وقضية الديمقراطية في آن واحد «٤» .

ب – الحركة الشيوعية في فترة الحرب العالمية الثانية : سورية ولبنان ، الجزائر .

تقلبات زمن الحرب . حل الكومنترن . المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان . معركة الجلاء . مجزرة سطيف .

دامت سياسة « مكافحة الفاشية » في سورية ولبنان الى ما بعد بداية الحرب . ولم تتأثر مباشرة بالمعاهدة السوفياتية – الألمانية المعقودة في آب ١٩٣٩ .

فقد استمرت جريدة صوت الشعب في الصدور حتى اواخر ايلول (بالرغم من ان جريدة الاومانيته وصحف الحزب الشيوعي الفرنسي قد عطّلت منذ تاريخ ٢٧ آب ، على أثر توقيع اتفاق مولوتوف – ريبنتروب) ونشرت برقية خالد بكداش ورفيق رضا (باسم الحزب الشيوعي السوري) وبرقية فرج الله الحلو ونقولا شاوي (باسم الحزب الشيوعي اللبناني) الى المفوّض السامي الفرنسي بتأييد فرنسا والاستعداد للحرب في الخنادق معها ، وبرقيات مماثلة من بعض فروع الحزب ، كما دعت السوريين

واللبنانيين للتطوع في الجيش الفرنسي دفاعاً عن الديمقراطية (صوت الشعب ، ٣٩/٩/١١) ، بينما فرّ موريس توريز من دعوة الاحتياط .

هل كانت هذه المواقف « من وحي موسكو » ؟ كانت آنذاك ترى في الحرب الناشبة بين المانيا وبين فرنسا وبريطانيا « حرباً قذرة » بين استعماريين ..

وقد تبدّل تعليق الدوائر السوفياتية على الاحداث وعلى الاحزاب والاشخاص حسب المصلحة المباشرة والعواطف الآنية ، في خضم هذا الصراع المميت (١٩٣٩ – ١٩٤١) .

قبل آب ١٩٣٩ ، أيّدت الاوساط السوفياتية والشيوعية حزب الوفد المصري وهاجمت « المتطرّفين » (الحزب الوطني ، مصر الفتاة ، هيئات الطلاب). ثم عدّلت هذا الموقف وشنّت حملة جديدة على حزب الوفد لأنه « خفّف من مقاومة العمال المصريين للاستعدادات الحربية البريطانية » ، ثم عادت بعد العدوان الهتلري على الاتحاد السوفياتي في حزيران ١٩٤١ تنتقد حزب الوفد لمحاولته البقاء بعيداً عن الحرب وعدم تحمّسه لقضية الديمقراطية .

وكذلك عندما قامت ثورة العراق في نيسان ١٩٤١ ، كان الاتحاد السوفياتي من اولى الدول التي اعترفت بحكومة رشيد عالي الكيلاني . ولكنه بعد حزيران ١٩٤١ ، هاجم حكومة الكيلاني ونعتها بالفاشية .

ولئن كان من غير المعقول أن نلوم الاتحاد السوفياتي على تلك

التقلبات التي أملتها اعتبارات وعواطف حرب مصيرية لا رحمة فيها ، الا أنه يحق لنا أن نُطريَ ثبات القيادة الشيوعية في سورية ولبنان في الولاء « المبدئي » لفرنسا الديمقراطية .

وبالطبع ما كان ممكناً ان يستمر هذا الولاء الى ما لا نهاية . ولم تلبث القيادة الشيوعية في سورية ولبنان هي أيضاً ، ان اكتشفت « الاستعمار الفرنسي وسياسته الارهابية ومسؤوليته في الحرب الدائرة وفي تجويع العمال والفلاحين» (عام ١٩٤٠)«٥».

وعلى أثر دخول القوات الانكليزية والفرنسية الحرة الى سورية ولبنان (١٩٤١) ، عاد الحزب الشيوعي الى النشاط العلني مرة أخرى ، وقام نشاطه على سياسة التعاون مع فرنسا في فترة تميّزت بالتحالف بين ديغول والشيوعيين الفرنسيين ، وبين الاتحاد السوفياتي والدول الغربية الحليفة.

وابان ازمة استقلال لبنان في تشرين الثاني ١٩٤٣ ، اتسمت سياسة الحزب الشيوعي بشيء من التردد وعدم الوضوح والمداورة والإحجام عن اعطاء رأي حاسم في القضية الكبرى .

إن هذا الخط اليميني في حقل السياسة الوطنية بلغ أقصى مداه في حقل السياسة الاجتماعية . هذا ما يتبين من الخطاب الذي ألقاه خالد بكداش في ملهى الباريزيانا في بيروت بمناسبة الانتخابات النيابية في لبنان، حيث أعلن رغبة الحزب الشيوعي في مساعدة كبار التجار والملاكين وأصحاب الاراضي ، ودعاهم مقابل ذلك الى « الرفق بالفلاح »«٦» .

وقد أكد المؤتمر الوطني الذي عقده الحزب في بيروت بتاريخ ٣١/١٢/١٩٤٣ و ١ - ٢/١/٤٤ هـذا الاتجاه، وأقر برنامجاً اصلاحياً برجوازياً نصف ـ ديمقراطي، تجاهل مشكلة الاصلاح الزراعي فضلاً عن قضية الاشتراكية«٧».

وألقى خالد بكداش خطاباً باللغة الفرنسية في قاعة فندق نورماندي ببيروت بتاريخ ٢٧/٢/١٩٤٤، برّر فيه عدم تطرق برنامج الحزب لموضوع الاشتراكية، معتمداً على رأي لستالين في شيوعيي جاوا، خالطاً بين اطلاق شعار الاشتراكية واقامة حكم السوفيات كهدف فوري آني، وبين تسجيل الهدف الاشتراكي في ميثاق الحزب، هـذا الميثاق الذي يجري قبول الاعضاء على أساسه، وسكت عن تجاهل البرنامج لموضوع التحويل الديمقراطي في الأرياف سكوتاً مطبقاً«٨».

ولكن هل كانت قيادة الحزب الشيوعي مصممة، على الأقل، على خوض «مرحلة» النضال الوطني ضد الاستعمار؟

يبدو أن لا. فقد أهملت صوت الشعب الشعارات الشعبية الكبرى وخاصة المطالبة بالجيش. ولما وقع العدوان الفرنسي على دمشق والمدن السورية في أواخر أيار ١٩٤٥، نشرت صوت الشعب «تفاصيل الفظائع التي ارتكبها الفاشست الفرنسيون في دمشق»، الا انها لم تشر الى **مطلب الجلاء** حتى تاريخ ٩ حزيران (صوت الشعب، اعداد ٣ الى ٩/٦/١٩٤٥).

في الجزائر، أيد الحزب الشيوعي حكومة فرنسا الحرة

(التي أصبح اسمها حكومة فرنسا المقاتلة) تأييداً لا يشوبه تحفّظ.

وعلى هذا الأساس، ظل الحزب بعيداً عن التجمع الجديد،
وعلى هذا الأساس، ظل الحزب بعيداً عن التجمع الجديد،
تجمع «اصدقاء البيان والحرية» الذي شمل سائر القوى الوطنية (حزب الشعب الجزائري، جماعة فرحات عباس، رابطة العلماء)، بالرغم من ان برنامج التجمع لم ينص على الاستقلال التام والفوري، بل اكتفى بالدعوة الى اقامة «جمهورية جزائرية لها استقلالها الذاتي الداخلي ودستورها الخاص، ومتحدة مع جمهورية فرنسية مُجَدَّدَة مناهضة للاستعمار الكولونيالي والامبريالي» (آذار ١٩٤٤).

وأثنت صحيفة ليبرته (الحرية)، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الجزائري، على مرسوم ٧ آذار ١٩٤٤ الرامي الى منح الجنسية الفرنسية الى حوالي ٥٠ — ٦٠ ألف عربي جزائري من حملة الشهادات الجامعية والاوسمة والالقاب والممثلين السياسيين. وهاجمت الزعماء الوطنيين لرفضهم المشروع، في وقت أصبحت فيه سياسة الدمج خرافة وخدعة خطرة حتى في نظر المثقفين البرجوازيين.

وفي ٨ ايار ١٩٤٥، يوم النصر على المانيا، قامت مظاهرات وطنية ووقعت مجزرة رهيبة في منطقة سطيف ذهب ضحيتها ٤٥ الف من العرب الجزائريين.

فألقت الاومانيته، لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي،

مسؤولية الحوادث على « القوميين المزيفين عملاء هتلر » ، وتساءلت عن سبب تساهل السلطة الفرنسية مع اصدقاء البيان والحرية وسماحها بصدور جريدة هذه المنظمة قبل الحوادث ، وطلبت «انزال العقاب الشديد بالقتلة الهتلريين وبالزعماء القوميين الذين حاولوا عمداً ان يخدعوا الجماهير المسلمة » ، وبرأت الرفيق حاج علي محمد سعيد سكرتير منظمة الحزب الشيوعي في حي القصبة (والذي وقع ضحية الاغتيال ووُجد حاملاً وثائق تعود لجماعة اصدقاء البيان والحرية) ، « برأته » من تهمة الاشتراك في النضال الوطني وأكدت ان هذا الحادث قد دُبّر « لتشويه سمعة الحزب » ، وأيدت بحرارة اعتقال فرحات عباس والدكتور سعدان (الاومانيته ، اعداد ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٣١ أيار).

والجدير بالملاحظة ان الحزب الشيوعي الفرنسي قد غيّر تقييمه لهذه الحوادث والمنظمات بعد فترة من الزمن وأخذ يهاجم الاستعمار بقوة ويسهم بواسطة نوابه وكتابه في فضح هول الجريمة . وهذا اعتراف – وإن لم يكن صريحاً مباشراً – بأن موقفه في أيار ١٩٤٥ قد جانب الحقيقة وعارض الخط الوطني .

في عام ١٩٤٣ ، أعلن ستالين حل الكومنترن (الاممية الشيوعية) ، فاستثمرت القيادات الشيوعية المحلية هذا القرار بشكل صاخب مؤكدة استقلالها . وقد أعلن خالد بكداش في الخطاب الذي ألقاه في قاعة فندق نورماندي ان الشيوعيين السوريين واللبنانيين لا يستوحون مواقفهم «من لندن أو الجزائر

أو واشنطن أو موسكو » (كانت الجزائر مقر حكومة فرنسا المقاتلة) .

الا ان سياسة الحزب لم تتغيّر . وقد فوّت الحزب على نفسه فرصة المشاركة الفعلية في المعركة النهائية ضد الاستعمار الفرنسي . وكأنه يريد بقاء السيطرة الفرنسية الى ان ينتصر الشيوعيون في باريس ليسلموا الحكم في المستعمرات الى الاشقاء الصغار .

أجل إن سياسة « مقاومة الفاشية » التي سادت تلك المرحلة الطويلة من تاريخ الأحزاب الشيوعية ١٩٣٥ – ١٩٤٥ (مع انقطاع صغير ايلول ١٩٣٩ – حزيران ١٩٤١) لم تكن من وضع القيادات المحلية . الا ان التطبيق العملي كان متروكاً لها . وبقدر ما تتجاوب هذه الاحزاب مع الخط الوطني ، بقدر ما تستطيع أن تحقق التحالف مع الحركة الوطنية وان تجذبها الى مواقف مناهضة للفاشية .

والمعروف ان السياسة التي سارت عليها الاحزاب الشيوعية في سورية والجزائر وغيرها من البلدان العربية لم تخدم قضية الديمقراطية في شيء .

إن التخلي عن النضال الوطني والنضال الديمقراطي (الثورة الزراعية) والنضال الاشتراكي لا يمكن أساساً لقيام حزب ثوري ، مهما كانت الظروف والاعتبارات . فالتكتيك لا يلغي المبدأ . ولا يجوز رفعه الى مصاف المبدأ . ولنا في نشاط الشيوعيين الصينيين واليوغوسلاف في عهد الجبهة الديمقراطية العالمية ضد الفاشية خير مثل على ذلك . أما ابتكار النظريات

لتبرير التكتيك فأمر يحمل معه أوخم العواقب .

ويمكن القول ان السياسة التي سارت عليها القيادات الستالينية في البلاد العربية والايديولوجيا المشوّهة التي تبنتها ونشرتها ، قد ألقت الشبهة على الاشتراكية العلمية نفسها ، وأخّرت الاندماج الضروري بين الحركة القومية والحركة الاشتراكية .

وتستمد هذه الظاهرة جذورها من واقع أن الطبقة العاملة في البلاد العربية **كانت** من حيث تركيبها القومي طبقة عاملة مختلطة تضم الى جانب العمال العرب نسبة ضخمة من العمال غير العرب (الفرنسيين والاوروبيين والأرمن واليهود وغيرهم) في وهران والجزائر والاسكندرية وحيفا وبيروت وحلب وكركوك وغيرها من المراكز العمالية في الوطن العربي .

ذلك واقع « موضوعي » . الا أنه لا ينفي العامل « الذاتي » ، أي مسؤولة توريز وبكداش والآخرين . وتجلى تضافر هذين العاملين على نحو خاص في الجزائر ، حيث أخذ الحزب الشيوعي يعتمد أكثر فأكثر على العمال الاوروبيين الذين يشكلون ارستقراطية عمالية تحمل العقلية الانتهازية والشوفينية والعنصرية .

في هذه الظروف ، كان يستحيل ، موضوعياً وذاتياً ، تحقيق مبدأ قيادة الطبقة العاملة للحركة الوطنية ، وكان محتماً استمرار القيادة البرجوازية ـ الارستقراطية لهذه الحركة ، وبالتالي بقاؤها في اطار الثورة السياسية على الاستعمار ، بدلاً من تحولها الى ثورة جذرية سياسية واجتماعية ضد الاستعمار والامبريالية والاقطاعية .

الفصل الثالث

« النضال ضد الأحلاف »

١٩٤٦ - ١٩٥٧

آ – الحركة الشيوعية في المشرق العربي حتى عام ١٩٤٨ :

المدّ الثوري في العالم . قوى الحزب الشيوعي في سورية ولبنان . نشاط الحركة الشيوعية في مصر والعراق . قضية فلسطين واثرها .

انهارت دول المحور تحت ضربات الجيش الأحمر وجيوش الدول الغربية . وقد بهر العالم بانتصارات الجيش السوفياتي التي أثبتت صلابة النظام الاشتراكي السوفياتي وزيف الدعايات النازية والغربية .

وانتصرت الاحزاب الشيوعية بقواها وبمساعدة الاتحاد السوفياتي ، في ثمان من دول اوروبا الشرقية والوسطى وفي كوريا الشمالية . وبلغت ذروة القوة والنشاط في فرنسا وايطاليا واليونان وفي معظم بلدان اوروبا ، حيث كانت قد اضطلعت بالقسط الاكبر من المقاومة الوطنية ضد الاحتلال النازي والنظم الفاشستية . وسيطرت القوات الشعبية المسلحة في الصين على حوالي مئة مليون من سكان الصين الشمالية والشمالية – الغربية . وبلغ نشاط الشيوعيين أوجه في عدد من بلدان آسيا الشرقية

كالهند الصينية والمالايو واندونيسيا وبورما والفيليبين. ولم يوفّر المد الشيوعي بلدان الشرق الأوسط : ايران ، سورية ولبنان، مصر ، العراق ، لا سيما وان الحرب العالمية الثانية كانت حافزاً لحركة التصنيع الرأسمالي في تلك البلدان .

انتهت مرحلة في تاريخ الحركة الشيوعية الدولية ، وبدأت مرحلة جديدة . انتهى الكفاح ضدّ الفاشية ، وبدأ النضال ضد معسكر الاستعمار والحرب ، ولم يلبث ان اتخذ شكل صراع حاد بين كتلتين محددتين جغرافياً ، بل بين الدولتين القائدتين للكتلتين (الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) في عهد ما عرف باسم الحرب الباردة .

لقد حل ستالين الاممية الشيوعية في عام ١٩٤٣. واستثمرت بعض القيادات الشيوعية (لا سيما في سورية ولبنان) هذا القرار بشكل مسرحي وانتهازي لتعلن انها لا تتلقى التوجيه لا من موسكو ولا من باريس ولا من واشنطن. الا أن حل الكومنترن لم يكن يعني زوال الروابط الاممية للحركة الشيوعية. وقد عادت هذه الروابط رسمياً على نطاق القارة الاوروبية بتأسيس مكتب انباء الاحزاب الشيوعية واحزاب العمال (المعروف بالكمنفورم) في عام ١٩٤٧ . إن مبدأ اخضاع النضال في كل بلد لمصالح البروليتاريا العالمية ارتدى ، اكثر من أي وقت مضى ، شكل خضوع وثيق لمصالح وتقديرات الوطن الاشتراكي الاول وقائده الملهم الذي حقق النصر على الفاشية الدولية .

بلغ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ذروة القوة العددية في تاريخه الطويل في عام ١٩٤٧ . وبالرغم من انه لا توجد احصاءات رسمية بهذا الخصوص ، الا انه يمكن تقدير عدد اعضاء الحزب بعشرة آلاف في لبنان وعشرة آلاف في سورية . وبرزت قوة الحزب على الصعيد الشعبي في الانتخابات اللبنانية (جبل لبنان، طرابلس، بيروت) ثم في الانتخابات السورية (دمشق، حمص ، حلب) في عام ١٩٤٧ * .

إن هذا التقدّم يعود الى انتصارات الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية في اوروبا ، والى تأييد الاتحاد السوفياتي لسورية ولبنان في هيئة الامم المتحدة ، والى جو الحرية الذي أحاط بالحزب بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٧ .

لقد استطاع الحزب (ربّما للمرة الأولى) ان يكوّن قواعد شعبية واسعة في اكثر المناطق ، في لبنان وفي سورية . الا ان المستقبل يتوقف على صلابة هذه القواعد والاطارات وعلى سلامة الخط السياسي للحزب .

وكان هذا الخط يتمثل في النضال ضد مشروع سوريا الكبرى والمشاريع البريطانية بشكل عام وضد الحزب القومي السوري وجماعة الاخوان المسلمين . الا ان الحزب لم يفكّر أبداً بطرح

---

* — نال فرج الله الحلو عن جبل لبنان ١٠ آلاف صوت ، ونقولا شاوي عن طرابلس ٧ آلاف ، ومصطفى العريس عن بيروت ٣٢٠٠ . ونال خالد بكداش عن دمشق ٩ آلاف صوت في الدورة الاولى و ١١ ألف في الدورة الثانية .

اي شعار يتّصل بالتحويل الاجتماعي فضلاً عن انه كثيراً ما أهمل السيطرة الاقتصادية الفرنسية على البلاد .

لقد كانت هذه السياسة امتداداً للسياسة اليمينية التي نهجها الحزب في الفترة السابقة ، في الحقلين السياسي والاجتماعي .

في مصر ، أيقظت مدافع ستالنغراد الحركة الشيوعية بعد سبات طويل . فقامت حلقات ماركسية أسسها بعض الشيوعيين الاجانب والعرب . واستفادت الحركة الشيوعية من الظرف التاريخي الملائم المتمثّل في انهيار الفاشستية ، وبقاء الاستعمار البريطاني في مصر ، وهبوط نفوذ حزب الوفد بعد حوادث ١٩٤٢ .

أسّس هنري كورييل (الملقّب باسم يونس) منذ اواخر ١٩٤٢ « الحركة المصريه للتحرر الوطني » ، بينما أسّس هيلل – شفارتس منظمة « الايسكرا » (الشرارة)، ومرسيل اسرائل منظمة « تحرير الشعب » . كما نشأت حلقات أخرى عديدة . وكانت أهم هذه المنظمات « الحركة المصرية للتحرر الوطني » التي حققت نهوضاً ملحوظاً في أوساط مثقفي وطلاب وعمال القاهرة حيث قدّر عدد أعضائها بألف عضو (ومدّت نفوذها الى الطلاب السودانيين في القاهرة ،حيث أسسوا « الحركة السودانية للتحرر الوطني » في عام ١٩٤٤) .

وقامت المنظمات الماركسية المصرية بنشاط فكري واسع تجسّد في عدد من دور النشر والصحف . كما أسهمت في النهوض

الثوري المعادي للاستعمار . ولعب الشيوعيون المصريون دوراً كبيراً في « لجان العمال والطلبة » ، التي ضمّت الى جانب الشيوعيين عدداً من المثقفين الوفديين والوطنيين اليساريين والنقابيين المستقلين ، والتي حرّكت المظاهرات الشعبية العارمة ضد حكومة اسماعيل صدقي (شباط ١٩٤٦) .

إلا أن هذه اللجان لم تلبث ان تفككت بنتيجة القمع الوحشي من جهة ، والانقسامات الداخلية من جهة أخرى .

وفي عام ١٩٤٧ ، انضمت منظمة « الايسكرا » الى « الحركة المصرية للتحرر الوطني » ، التي أصبح اسمها « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني » (ح. د. ت. و.) المعروفة باسم حَدْتو ، وهي أهم المنظمات الشيوعية في تاريخ مصر . وقد أصدرت في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ جريدة اسبوعية ، بصورة متقطعة ، اسمها « الجماهير » .

ومن الواضح أن نهوض الحركة الشيوعية في مصر بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٧ ، بالرغم من عدم شعبية القادة اليهود ، وبالرغم من الانقسام والتبعثر التنظيمي ، يعود الى خطة النضال الثوري ضد الاستعمار البريطاني وعملائه التي سار عليها الشيوعيون المصريون .

هذا ما يفسّر أيضاً النهوض السريع للحزب الشيوعي العراقي في ظروف مماثلة تميزت بالنضال الجذري ضد الاستعمار البريطاني والحكام الموالين له . إن هذا النهوض ثمرة نضال بدأ منذ عام

١٩٣٤ حين تشكلت خلايا الحزب الاولى(*) . وقد تأسس الحزب الشيوعي العراقي رسمياً بعد هذا التاريخ برئاسة يوسف سلمان فهد . وبرز فيه عبدالقادر اسماعيل البستاني وشقيقه يوسف اسماعيل (اللذان كانا نائبين في البرلمان العراقي وقد جردا من الجنسية العراقية ونفيا من العراق في عام ١٩٣٧) ، كما برز محمد الشبيبي وزكي بسيم وداود صايغ ، الذي شكل كتلة خاصة .

كان الحزب الشيوعي العراقي أحدث عهداً من الحزب الشيوعي السوري . إلا انه أقام قواعد عمالية حقيقية في بغداد وكركوك والبصرة وغيرها من مدن العراق في فترة ١٩٤٥ — ١٩٤٧ . ولم تكن العلاقات طيبة بين قيادتي الحزبين السوري والعراقي ، وبالتحديد بين بكداش وفهد. ولا تتوافر لدينا معلومات محددة عن هذا الموضوع . إلا انه من الملاحظ ان صحيفة صوت الشعب كانت تهمل نشاط الأشقاء العراقيين وتبرز نشاط فئة عراقية أخرى، رغم وجود عبدالقادر اسماعيل في عداد القيادة الشيوعية السورية — اللبنانية .

وجاء تأييد الاتحاد السوفياتي لمشروع تقسيم فلسطين ولقيام دولة اسرائيل وموقف الاحزاب الشيوعية المحلية من هذا الموضوع ضربة قاسية لقوى هذه الاحزاب .

فقد تحول الاتحاد السوفياتي عن تأييده لمشروع انشاء دولة

---

* — عام ١٩٣٤ هو التاريخ المعترف به رسميا لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي .

عربية يهودية واحدة ، نظراً « لاستحالة تطبيق هذا المشروع في الظروف الحالية حيث بلغ سوء العلاقات بين العرب واليهود أشده » ، وأعلن موافقته على مشروع الاكثرية الذي ينص على تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية .

جاء موقف الاتحاد السوفياتي مفاجأة لغالبية المراقبين(رغم ان المندوب السوفياتي غروميكو كان قد نبّه سابقاً الى احتمال حدوث هذا التغيّر « اذا استحال تحسّن العلاقات بين العرب واليهود »*): حتى أن والتر لاكور في كتابه « الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط »يتصور ان الاتحاد السوفياتي لم يكن مهتماً بشؤون المنطقة ، وان تأييد مشروع التقسيم ربما قرره اشخاص ثانويون في الخارجية السوفياتية وان ستالين وافق عليه في حالة من الشرود الذهني .

من الصعب القبول بهذا الرأي ، لا سيما وأنه يتعارض مع سير السياسة السوفياتية حيال اسرائيل ، باعتبار أن هذه السياسة لم تصل الى حد الطعن بوجود اسرائيل كدولة .

لعل الاتحاد السوفياتي وافق على مشروع التقسيم أملا منه بأن المهاجرين اليهود الذين قاسوا الاضطهاد النازي سيكونون

---

* — إن في نظرية « تواطؤ المعسكرين ضد العرب » تبسيطاً للأمور وتخطيّاً لبعض « التفاصيل ». إنها خرافة تساوي الخرافة المقابلة التي يروجها بعض «الماركسيين الجدد» من تجار السياسة الديماغوجيين الذين يصورون السوفيات على انهم مستعدون للمجازفة بحرب عالمية « تأييداً للحق العربي » في العقبة الخ ...

قوة ديمقراطية تقدمية في المنطقة وسيسيرون في طريق إنشاء دولة اشتراكية صديقة تعتمد على الحزب الشيوعي وحزب مابام وفصائل البالماخ وغيرها .

ولعله استجاب لرغبات بعض القادة الشيوعيين في اوروبا ، واراد التقرب من الاحزاب الاشتراكية الاوروبية (وهي تعطف عطفا كبيراً على اليهود) واراد التساهل مع عواطف يهود الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية .

ولعله لم ير بشكل كاف احتمالات الموقف الثوري في بلدان المشرق العربي ولم يثق بهذه الاحتمالات ، الامر الذي يشكل خطأ محسوساً ، حيث كان الشيوعيون في ذروة النشاط في سورية ولبنان ومصر والعراق . وكان اندريه جدانوف ، في تقريره الى مؤتمر تأسيس الكومنفورم في ايلول ١٩٤٧ ، قد ذكر « ان المعسكر المناهض للفاشية بزعامة الاتحاد السوفياتي يعتمد على عطف **الهند ومصر وسورية** » .

وفي ١٥ ايار ١٩٤٨ ، جاء اعتراف الاتحاد السوفياتي بدولة اسرائيل اعترافاً قانونياً تاماً وفورياً (يرى بعض اصدقاء الاتحاد السوفياتي انه اراد بذلك تحذير الدول العربية من الدخول في حرب خاسرة . وهذا رأي فيه نظر) . وقد رحبت الاحزاب الشيوعية في اوروبا بدولة اسرائيل وأيدت « حق الشعب اليهودي في اقامة دولته » ، وعارضت (بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة) دخول الجيوش العربية الى فلسطين ، وحمل بعض الكتاب الشيوعيين على بريطانيا التي تقف وراء الملك عبدالله ، كما هاجموا

بعثة برنادوت .

وبدأت لهجة الود من قبل الاتحاد السوفياتي تجاه اسرائيل تنخفض اعتباراً من اواخر ١٩٤٨ . ولعل ذلك يعود من جهة الى تجاوب اليهود السوفيات مع قيام دولة صهيون وانحيازها للغرب على نحو متزايد ، من جهة أخرى .

أما الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي فقد أنهت بسرعة حملتها الطويلة على مشروع التقسيم ، انسجاماً مع موقف الاتحاد السوفياتي ، فأصيبت بنكسة كبرى ، بالرغم من أن بعضها لم يصدر بيانات علنية صريحة بتأييد التقسيم وقيام دولة إسرائيل .

أعلن الحزب الشيوعي السوري – اللبناني ، قبيل موافقة الاتحاد السوفياتي على مشروع التقسيم ، « أن قضية فلسطين هي قضية استقلال وجلاء » (وأنزل قضية التقسيم الى المرتبة الثانية او الثالثة) ، ثم هاجم « الاستعمار » وأحياناً « الصهيونية » و « الرجعية العربية » ، متحايلاً ، بعد موافقة الاتحاد السوفياتي على مشروع التقسيم ، على القضية المبدئية ، قضية الموقف من الكيان الإسرائيلي .

بينما أعلنت إحدى المنظمات الشيوعية في مصر « أن الاستعمار البريطاني أملى هذه الحرب وأعدّ لها منذ سنين طويلة » ، وهي « حرب تخدم البرجوازية العربية بكبت البروليتاريا الصاعدة والقوى التقدمية » ، « حرب موجهة لخلق قاعدة ضد الاتحاد السوفياتي » ، « حرب موجهة ضد الخطر الذي تمثله البروليتاريا الثورية في فلسطين .. » «١» .

ودعا بعض قادة حدتو الى تأييد إسرائيل لأنهـا تمثل مرحلة أرقى من التطور الاجتماعي هي المرحلة الرأسمالية – البرجوازية – الديمقراطية ، في حين ان الدول العربية تمثل مرحلة العلاقات الاقطاعية (*) .

وكانت هذه المواقف كلها تعني العجز عن فهم الأبعاد الحقيقية للمعركة التي يخوضهـا الشعب العربي ضـد الاستعمار وطلائعه العنصرية الزاحفة .

لقد كانت قضية فلسطين أخطر قضية تواجه الأمة العربية . وجاء قيام الدولة الصهيونية خطوة حاسمة في عمليـة الاستعمار الاسكاني الذي تدفـّق على الوطن العربي في عصر الامبرياليـة . وقـد أثبتت الحرب الفلسطينية وملابساتها ونتائجها إفلاس النظام الاقطاعي – الكولونيالي – البرجوازي السائد في المشرق العربي ، وإفلاس الطبقات الحاكمة الممثلة لهـذا النظام بوصفها مسؤولة عن النكبة .

وبدلاً من أن تؤدي ازمة الحكم وأزمـة القيادة الوطنية التي فتحتهـا حرب فلسطين في المشرق العربي الى نمـو الأحزاب الشيوعية وتعاظم قوتها ، فقد أدّت الى تداعي هـذه الأحزاب التي لم تصمد للقمع الشديد الذي أصابهـا في العراق ومصر ، وكذلك في سورية ولبنان .

---

* – راجع كتـاب أنور عبد الملك : مصر مجتمع عسكري . (صدر عـن دار الطليعة – بيروت بعنوان « مصر : مجتمع جديـد يبنيه العسكريون » .) ١٩٦٤ .

ب – الحركة الشيوعيـة في المشرق العربي بين عام ١٩٤٩ وعـام ١٩٥٥ :

عصر الحرب البـاردة . سورية ولبنان ، العراق ، مصر . « الاتجاه بحزم نحو جماهير العمال والفلاحين ». الموقف من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

بدأ عهد جديد من « التصلب » في سياسة الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية الدولية في أعقاب الحرب العالمية الثانيـة ، نتيجة لانقسام العـالم الى معسكرين دوليين كبيرين وتفاقم الصراع بينهما (١٩٤٧ – ١٩٥٣) . الا انه من الصعب اعتبار هذا النهج « المتصلب » طبعة جديدة عن سياسة الدور الثالث للكومنترن (١٩٢٨ – ١٩٣٤) ، اذ أنه رافق استفحال أزمة الستالينية ، فجاء بعيداً عن روح « الثورة البروليتارية العالمية » خاضعاً بصورة كلية لمقتضيات الحرب الباردة .

ولم يكن ستالين يؤمن باحراز انتصار حاسم الا في البـلاد التي تحت اشراف الجيش الأحمر . حتى أن ذلك كان بنداً رئيسياً في الايديولوجيا والدعاية الستالينية ، وجد « تبريره » في نجاح

الاحزاب الشيوعية في رومانيا وبولونيا والمجر (حيث كانت هذه الاحزاب ضعيفة) وفي فشل الاحزاب الشيوعية في فرنسا وايطاليا واليونان (حيث كانت أحزاباً قوية وذات قواعد شعبية ضخمة) . ولم تكن هذه النتيجة بالطبع أمراً حتمته قوانين التاريخ بقدر ما كانت نتيجة سياسة تقاسم مناطق النفوذ في اوروبا ، وهي السياسة التي أقرت عملياً في مؤتمر يالطا وبوتسدام .

ومن المرجح ان انتصار الثورة الصينية في عام ١٩٤٩ كان مفاجأة لستالين .

في اوربا الغربية ، كانت سياسة الاحزاب الشيوعية كما حددها جدانوف وستالين وتوريز وغيرهم الدفاع عن الاستقلال الوطني ضد الاستعمار الامريكي والدفاع عن السلم ضد حلف الاطلسي والقنبلة الذرية .

في دول اوروبا الشرقية ، كانت سياسة الكومنفورم (الذي ضم الاحزاب الشيوعية الرئيسية في اوروبا) محاربة «الانحرافات القومية» وفرض النموذج السوفياتي في هذه الدول. وقد تجسدت هذه السياسة في الحملة على « التيتوية » التي هدرت قسماً كبيراً من طاقة الشيوعيين في فترة ١٩٤٨ — ١٩٥٣ .

أما في آسيا، فقد أعلن أن حركة التحرر القومي البرجوازية قد انحازت كلياً ونهائياً لمعسكر الاستعمار ، وأن غاندي ونهرو وسوكارنو وتاخيننو ليسوا الا عملاء مأجورين ، وأن استقلال الهند واندونيسيا وبورما هو استقلال زائف. في العالم الرأسمالي،

لا توجد دول مستقلة (باستثناء الولايات المتحدة) . وفي أحيان كثيرة ، اجتمعت ايد يولوجية يمينية في جوهرها ، مع مفردات من أقصى اليسار .

وقد وجدت سياسة « الصراع بين المعسكرين » التي تبنتها الحركة الشيوعية العالمية انعكاسها في الوطن العربي ، حيث أعلنت الاحزاب الشيوعية المحلية التزامها الكامل بهذه السياسة، وعداءها لمبدأ الحياد بوصفه « يعني موضوعياً السير في ركاب الاستعمار » ، وجندت كل قواها في حملات أنصار السلم ، لا سيما في فترة الحرب الكورية .

في سورية ولبنان ، عاد الحزب الشيوعي الى النضال السري مرة اخرى ، بعد أن فقد الكثرة الغالبة من اعضائه وعدداً كبيراً من إطاراته . وخرج رشاد عيسى من قيادة الحزب لمعارضته الموقف من قضية فلسطين ، بينما توقفت منظمة العلاقات الثقافية بين سوريا والاتحاد السوفياتي عن النشاط .

وعلى الصعيد التنظيمي أعيد توحيد الحزبين السوري واللبناني في حزب واحد ، وضع تحت رئاسة خالد بكداش ، بينما جمد فرج الله الحلو ، الرئيس السابق للحزب اللبناني، لأسباب غامضة « ذات طابع تقليدي » .

وعاود الحزب نشاطه في لبنان ، واستطاع أن يرمم بعض قواه وأن يحدث « ضجة كبيرة » لمدة من الزمن ، بينما تعرض في سورية للقمع في عهد الدكتاتوريات العسكرية المتعاقبة .

وحققت قيادة الحزب الشيوعي الانعطاف نحو النهج «اليساري» ، معلنة « الاتجاه بحزم نحو جماهير العمال والفلاحين» ، « لأجل النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية » .

تحت هذا العنوان ، ألقى خالد بكداش في اوائل عام ١٩٥١ ، تقريراً أمام المكتب السياسي الموسع ، حدد فيه استراتيجية الحزب باعتبارها استراتيجية المرحلتين : « مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية التي تهدف الى القضاء على الاستعمار وبقايا القرون الوسطى واقامة حكم ديمقراطي شعبي » ، ثم «مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية » .

وتقوم خطة الحزب في مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي على « عزل البرجوازية الوطنية » ، وشن حملة شعواء على «القوى الوسطية » (خاصة البعث العربي والعربي الاشتراكي) .

وقد أشار خالد بكداش الى أن الحزب يجب أن يكون مستعداً للنضال « حتى أعلى درجاته » من أجل تحقيق الاهداف الوطنية الديمقراطية . وربط هذا كله بقضية السلم العالمي ، قافزاً من فوق قضايا الوطن العربي وقضية فلسطين (٢) .

وإن هذه السياسة « اليسارية » لم تمنع الحزب ، على أي حال ، من تجنيد شتى الشخصيات اليمينية في حملات أنصار السلام .

وبعد سقوط أديب الشيشكلي (شباط ١٩٥٤) ، خاض

الحزب الانتخابات النيابية على أساس برنامج وطني ديمقراطي معتدل ، نص على إلغاء القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان ، والسعي الى حل قضية فلسطين « بمعزل عن المستعمرين » (٣) .

وقد أسفرت هذه الانتخابات عن نجاح خالد بكداش في دمشق حيث نال ١٦،٥٠٠ صوتاً ونال كل من زميليه ٩٠٠٠ (وجاءت النتائج في المراكز الاخرى مخيبة . ولكن الانتخابات دلّت بشكل عام على سعة قواعد الحزب في المدن الثلاث الكبرى وضعف هذه القواعد في الارياف ، بالمقارنة مع قواعد حزب البعث العربي الاشتراكي) . وكان خالد بكداش « أول نائب شيوعي في دنيا العرب »(اذا استثنينا نيابة عبد القادر اسماعيل في العراق قبل الحرب ، والنواب الشيوعيين اليهود العرب في فلسطين المحتلة ، والنواب الشيوعيين الفرنسيين في الجزائر) .

في العراق ، تعرض الحزب الشيوعي الى حملات من القمع الوحشي . فقد اغتنمت حكومة نوري السعيد مناسبة الحرب الفلسطينية ومضاعفاتها لإعدام القادة الشيوعيين يوسف سلمان فهد وزكي بسيم ومحمد الشبيبي . كما تعرض الى انقسامات عديدة، كان أهمها الانقسام بين جماعة « القاعدة » وجماعة « راية الشغيلة » . وتعاقبت على قيادة الحزب ست لجان مركزية ، وكان بعض أعضائها من اليهود امثال صديق يهودا وساسون دلال ويعقوب كوجمان وغيرهم .

وقد تمرّس الحزب الشيوعي العراقي بالنضال السري اكثر من اي حزب شيوعي آخر في الوطن العربي . واستطاع ان يكوّن نواة من المناضلين استفاد منها في فترة ما بعد ١٩٥٥ لتنظيم قواعده على أسس جديدة وراسخة .

في مصر ، جاء موقف الاتحاد السوفياتي من مشروع التقسيم ضربة جديدة للقوى الشيوعية . فقد عارض عدد من المناضلين العرب مشروع التقسيم وغادروا الصفوف . أما هنري كورييل ومعظم القادة فقد دافعوا عن موقف الاتحاد السوفياتي وبرروه..

واستمر الانقسام في صفوف الحركة الشيوعية المصرية ، وظهرت حلقات ومنظمات جديدة .

في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، اعتقل عدد كبير من القادة والأعضاء وأرسلوا الى معسكرات الاعتقال ، حيث أخذوا يعقدون صلات مع المناضلين الوفديين والاشتراكيين والاخوان المسلمين .

وفي أواخر عام ١٩٤٩ ، أطلق سراح غالبية المعتقلين ، ثم أبعد كورييل الى ايطاليا .

وعرفت الحركة الشيوعية نهوضاً جديداً تجلى في نشاط حركة أنصار السلم وفي قيام بداية تحالف مع بعض اليساريين في حزب الوفد (أبو بكر) وفي الاخوان المسلمين (سيد قطب) . وقد استفادت الحركة الشيوعية من تزايد النفوذ المعنوي للاتحاد السوفياتي وتأييده الدائم لقضية الجلاء عن مصر ومن انتصار الثورة الصينية . وقد شاركت مشاركة فعّالة في النضال ضد

قوات الاحتلال البريطاني في صيف ١٩٥١ .

الا ان الانقسام ظل متأصلاً في الحركة . فقد كان في مصر عام ١٩٥٢ حوالي عشرة احزاب ومنظمات شيوعية تدّعي جميعها تمثيل الخط اللينيني – الستاليني الصحيح : حدتو ، نواة الحزب الشيوعي المصري ، نحو حزب شيوعي مصري ، الحزب الشيوعي المصري ، طليعة العمال ، دال شين (د . ش = ديمقراطية شعبية) ، الفجر الجديد ، النجم الأحمر ، وحدة الشيوعيين ، وغيرها ..

وكانت اقوى هذه المنظمات : حدتو ، د . ش . ، الحزب الشيوعي المصري .

كانت حدتو تدعو للاخاء العربي – اليهودي ، وللصلح مع اسرائيل . أما الحزب الشيوعي المصري ، فقد كان يهاجم اسرائيل باعتبارها مؤامرة دائمة للاستعمار ، ولكنه يقر « ضرورة الحل السلمي » .

ودارت مناقشات كثيرة في صفوف الحركة الشيوعية في مصر حول شخصية هنري كورييل – المليونير اليهودي الشيوعي الايطالي الأصل . فكانت المنظمات المنافسة لحدتو تصفه بانه « مجرم باع نفسه للبوليس » ، و « جاسوس دولي من طراز ليون تروتسكي » .

وكانت بعض المنظمات تأخذ على حدتو ميلها المفرط الى « سياسة الجبهة الشعبية » ، اي الى التعاون مع القوى اليسارية (في الوفد والاخوان وغيرهما) .

ويعتقد ان الاعتبارات الشخصية لعبت دورها في هذه الخلافات،فضلاً عن المواقف الايديولوجية والسياسية والخططية.

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حدثاً جديداً ومعقداً . أسقطت الملك فاروق ورفعت عدداً من الشعارات الوطنية – الديمقراطية . ولكنها كانت انقلاباً عسكرياً ، فهي لم تقم على يد حزب يساري أو « جبهة وطنية » ، بل قامت على يد تنظيم من الضباط .

إن هذا الجانب من الأمور هو الذي استحوذ انتباه غالبية المنظمات الشيوعية في مصر التي أعلنت معارضتها للانقلاب منذ حدوثه .

أما منظمة حدتو ، التي كانت لها صلات بعدد من الضباط الاحرار ، فقد ايدت الثورة . وردّت على المنظمات المنافسة بقولها إن الحكم الجديد ليس بالضرورة ثمرة مؤامرة دبّرها الاستعماريّون وأن ضباط الثورة ليسوا بالضرورة عملاء لوول ستريت ، مستشهدة بوجود يوسف صديق وخالد محيي الدين ، بل وأيضاً بوجود جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في قيادة الحركة .

وكانت اذاعة بخارست قد أشادت « بتحرر الشعب المصري الذي تمّ بفضل جيشه الديمقراطي » . وكتبت صحيفة الحزب الشيوعي البريطاني « الديلي ووركر » تحيي « الحركة الشعبية » التي قامت تحت قيادة يتوزعها ضباط « من الشيوعيين والاخوان

المسلمين والاحرار والموالين لامريكا » . الا انّها لم تلبث ان حذفت كلمة « شعبية » ، ثم غيّرت موقفها ، فهاجمت « الحركة الفاشية » التي قامت في القاهرة . أما الحزب الشيوعي الفرنسي فقد اتخذ موقفاً معادياً للثورة منذ اللحظة الأولى واعتبرها « حركة استعمارية فاشية » . بينما اتخذ الحزب الشيوعي الايطالي موقفاً اكثر اعتدالاً وأقل تبسيطاً للأمور .

وواصلت المنظمات الشيوعية المصرية حملتها على الثورة ، وأخذت تتناقش لمعرفة ما إذا كانت مصر تواجه « دكتاتورية عسكرية صرفة » أم « حكماً من النمط الفاشي » . بينما واصلت حدتو تأييدها الحماسي للثورة حتى شهر آب حين وقعت حادثة كفر الدوار التي أدّت الى إعدام اثنين من العمال. ودبّ الانقسام الى صفوف حدتو . فقد أخذت مناشير الحركة تحمل بشدة على حكومة الثورة ، بينما حاول بعض المناضلين الاستمرار في سياسة دعم الثورة مؤكدين أنها قد اضطرت الى استخدام القوة لتحمي نفسها من التخريب ، مستشهدين على ذلك بأمثلة استخلصوها من تاريخ الثورة الفرنسية والثورة الروسية .

واكتملت القطيعة بين حدتو وحكومة الثورة في اوائل عام ١٩٥٣ مع خروج يوسف صديق . فامتدت يد القمع الى حدتو ، وأغلقت السلطات مجلة أنصار السلم ، واعتقلت عشرات من المناضلين .

ونهجت الحركة الشيوعية في مصرسياسة إقامةجبهة موحّدة مع الاخوان المسلمين وغيرهم ضد الحكومة ، امتدت حتى اوائل

عام ١٩٥٥ . وفي أزمة ربيع عام ١٩٥٤ ، أيد الشيوعيون ، في صفوف النقابات والجامعة والجيش (بالتعاون مع الاخوان والوفديين) ، محمد نجيب ضد مجلس الثورة .

واعتباراً من شهر نيسان ١٩٥٥ ، أخذت غالبية المنظمات تتحوّل عن موقفها ، فلم يعد عبد الناصر في نظرها « الفاشي الأمريكي » و « الجلاد الخائن » ، بل أصبح « المدافع الشجاع عن السلم والاستقلال » .

في اليوم الذي غادر فيه عبد الناصر مصر الى باندونغ (١٥ نيسان) ، قامت السلطات بحملة اعتقال ضد الشيوعيين . فنظّم المعتقلون في سجونهم مظاهرات تأييد لرحلة « بطل السلم والاستقلال » .

وأطلق سراح غالبية المعتقلين الشيوعيين في أوائل عام ١٩٥٦ . وأيدت غالبية المنظمات الشيوعية حكومة الثورة بحماسة وحرارة ، بينما استمرّ « الحزب الشيوعي المصري » و « حدتو » على موقف التحفّظ والتردّد بضعة أشهر .

ج – الحزب الشيوعي الجزائري بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٥٤ : النضال ضد الامبريالية الامريكية. « الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية » . تقلص قوى الحزب الشيوعي الجزائري .

لم يؤثر الانعطاف اليساري الذي أصاب الحركة الشيوعية العالمية في أعقاب الحرب على مواقف الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري ازاء قضية الجزائر . وظلّ الحزبان متمسّكين بمبدأ « بقاء الجزائر في الاتحاد الفرنسي » ، وبنظرية « الامة الجزائرية الآخذة في النشوء والتكوّن » .

فقد أعلن الحزب الشيوعي الجزائري في بيانه الصادر في تموز ١٩٤٦ :

« إن بلادنا تتخذ مكانها في التطور العام نحو الحرية والتقدم، ذلك التطور الذي يحرك شعور العالم بأسره. ونحن نريد ان تعيش بلادنا حياتها الوطنية الخاصة بها ، المشيدة على استخدام ثرواتها في مصلحة شعبها وحده .

ونحن الجزائريين من جميع الأجناس ، نكوّن على أرضنا

المشتركة جماعة ثابتة . ونحن مرتبطون بمصالح عامة مشتركة وبالنضال ضد الاعداء انفسهم .

وهذه الوحدة تؤلف أساس الامة الجزائرية الآخذة في النشوء ، الغنية بجهود جميع أبنائها ، على اختلاف أصولهم وأجناسهم ، والمزيج الموفق للحضارتين الشرقية والغربية »* .

ووجدت سياسة القيادتين الشيوعيتين الفرنسية والجزائرية أصدق تعبير لها في مقال نشره ليون فيكس ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي والمسؤول في هذه اللجنة عن شؤون افريقيا الشمالية ، في مجلة دفاتر الشيوعية بعنوان « آراء في المسألة الجزائرية » في ايلول ١٩٤٧ . وقد أكد في هذا المقال :

« إن فكرة استقلال الجزائر المباشر التي يدعو اليها حزب الشعب الجزائري تقود الى أوخم العواقب . إن وضع الجزائر الحالي ، هذا البلد المستعمَر الذي أُبقي اقتصاده في حالة تأخر ، سينقلها فوراً تحت سطوة التروستات الاميركية .

فالشيوعيون لا يمكنهم أن يؤيدوا ذلك الجزء من الحركة الوطنية الذي ينادي لهذه البلاد بالاستقلال المباشر ، اذ ان هذه الدعوة لا تخدم لا مصالح الجزائر ولا مصالح فرنسا .

إن استقلال الجزائر سيكون في آن واحد خدعة وتدعيماً لركائز الامبريالية في الجزائر . اما الاتحاد الفرنسي فيعطي حالياً لشعوب ما وراء البحار الامكانية الوحيدة للسير في طريق كسب

* نقلا عن كتاب ليون فيكس الذي سمي باللغة العربية « الجزائر حتف الاستعمار » .

الحرية والديمقراطية . »

ودفعت هذه السياسة الحزب الشيوعي الجزائري في طريق عزلة متزايدة عن الجماهير العربية .

فقد سقط مرشحو الحزب في انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية الثانية (حزيران ١٩٤٦) ، بينما أحرز الاتحاد الوطني للبيان الجزائري (الذي تأسس في نيسان ١٩٤٦ برئاسة فرحات عباس) ١١ مقعداً من أصل ١٣ مقعداً خصصت للهيئة الانتخابية الثانية (أي السكان العرب) – بغياب حزب الشعب الجزائري الذي حلّته السلطة .

وقد فسّر أندريه مارتي ، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي ، هذا الفشل في مقاله عن « المسألة الجزائرية » (آب ١٩٤٦) بقوله : « إن الحزب الشيوعي ، إذ تراجع عن خطته ذاته ، وطمس موقفه الوطني ، قد ظهر أمام السكان بمظهر (حزب غير جزائري) ».

وتكرّر الفشل في انتخابات الجمعية الجزائرية الأولى في عام ١٩٤٧ ، حيث سقط جميع مرشحي الحزب من الهيئة في الانتخابات الثانية . بينما فاز تسعة من مرشحي حركة انتصار الحريات الديمقراطية (التي خلفت رسمياً حزب الشعب الجزائري) وثمانية من مرشحي الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، و ٤٣ من « المستقلين » صنائع الادارة الاستعمارية . – كانت الانتخابات تزوّر على نطاق واسع ضد مرشحي حركة انتصار الحريات الديمقراطية . –
وكذلك سقط مرشحو الحزب في الانتخابات البلدية

(أو كتوبر ١٩٤٧) بينما نجح مرشحو حركة انتصار الحريات الديمقراطية في جميع الدوائر المسلمة تقريباً .

والجدير بالملاحظة أن الحزب الشيوعي الجزائري كان له حظ أكبر من النجاح في الهيئة الانتخابية الأولى (السكان الأوروبيين): فقد كانت أليس سبورتيس مثلاً نائبة شيوعية عن وهران .

وفي اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري المنعقد بتاريخ ٢ — ٣ أوكتوبر ١٩٤٨ ، أبدى السكرتير العام للحزب اسفه « لعدم تقدير الحركة الوطنية حق قدرها ، وهو موقف ناجم عن نقص الارتباط بالجماهير » ، واردف موضحاً فكرته :

« إن إطاراتنا ليست مرتبطة على نحو كافٍ بالجماهير ، بالجماهير المسلمة ، في المعمل والمكتب والمقهى والسوق والقرية . وفي هذه الظروف ، من الصعب أن تتحسس ما يتحسّسه الشعب ، وأن تكون في حالة توافق مع الشعب » .

وبالرغم من هذه الاعترافات ، لم تعدّل قيادة الحزب خطها السياسي ، بل ظلت تتمسّك بالشعارات الوهمية ، فتهمل شعار الاستقلال ، مكتفية بالنضال « من أجل السلم » بوصفه « أقصر طريق للتحرر » ، ومن أجل « مطالب الشعب الاقتصادية » .

وقد عرض هذه السياسة السكرتير العام للحزب ، العربي بوهالي ، في محاضرة ألقاها في ٢٩ نيسان ١٩٥٠ ، بعنوان « الحزب الشيوعي الجزائري في النضال من أجل التحرر والسلام » ، حيث قال :

« إن النضال من أجل السلم هو أقصر الطرق وأقلها كلفة نحو التحرر الوطني ... وبالطبع ، نحن نهتم ايضاً بمطالب الجماهير من أجل تحسين معيشتها » .

في الواقع ، كان الأصح أن يقول : إن النضال من أجل السلم يغني عن النضال من أجل التحرر ! والتحرر على كل حال لم يكن يعني على لسان بوهالي استقلال الجزائر عن فرنسا . فالقيادة الشيوعية تتجنب كلمة « استقلال » . والنضال ضد حلف الأطلسي والامبريالية الامريكية ينوب و « يعوّض » عن النضال ضد الاستعمار الكولونيالي الفرنسي .

في هذه الظروف ، استمرت عزلة الحزب عن الجماهير العربية ، بينما كان له نفوذ مرموق في أوساط الأوروبيين .

يقول ليون فيكس أن أكثر من ٢٠٪ من الناخبين الأوروبيين قد صوتوا للحزب الشيوعي الجزائري في انتخابات ١٩٥١ . (كتاب « الجزائر حتف الاستعمار » ، طبع بيروت ، ص ٣٨).

— إن هذه النتائج الحسنة في الهيئة الانتخابية الأولى تبرز أكثر، النتائج السيئة في الهيئة الثانية،أي عزلة الحزب عن الجماهير العربية.

في كل تلك الفترة التي امتدت الى ما بعد قيام الثورة ، أثبتت قيادة الحزب الشيوعي الجزائري عجزها عن فهم وصياغة مشاكل الوضع الجزائري ، وتعنتها في تقديم حلول وشعارات بعيدة عن مشاغل الشعب ومطالبه .

إن ربط قضية الجزائر بالنضال ضد الاستعمار الاميركي وخطر الحرب غالباً ما كان يتم بشكل مصطنع : فموقف السلطة

الاستعمارية الفرنسية من الشعب الجزائري ُهوَ ما ُهوَ ، لأن المستعمرين الفرنسيين هم بحاجة الى إبقاء الجزائر في وضعها كي يتسنّى لهم تحضير الحرب لمصلحة أسيادهم الأميركيين . وهذا معناه تناسي أن الاستعمار الفرنسي موجود في الجزائر قبل ظهور الأسياد الامريكان ومشاريعهم الحربية ، وان النظام الكولونيالي الفرنسي نظام فريد من نوعه ومتكامل : عسكري ، سياسي ، اقتصادي ، إسكاني ، عنصري ، اجتماعي ، ثقافي.

في آب ١٩٥١ ، حقق الحزب الشيوعي الجزائري أمنية عزيزة . فقد شارك تأسيس « الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها » التي ضمت الهيئات السياسية الأربع : حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، الحزب الشيوعي ، العلماء .

كانت هذه الجبهة ، ظاهراً ، « جبهة وطنية » كاملة تضم « جميع القوى الوطنية » ، جبهة مثالية من النوع الذي يدعو إليه المذهبيون الستالينيون في فترات ما . ولكنها ، في الواقع ، كانت ضعيفة واهية ، كانت تحالفاً عاجزاً بين قيادات منقسمة على نفسها ، قام في إطار المشروعية الكولونيالية لأغراض محدودة ، بعيداً عن جماهير الشعب التي كانت تريد شيئاً آخر ، للخروج من أزمة الحركة الوطنية واستئصال الشر من جذوره .

ما لم يفهمه الزعماء ، فهمه عدد من مسؤولي الصف الثاني ، أعضاء « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » ، وريثة التنظيم السري في حزب الشعب الجزائري .

د – الحركة الشيوعية في المشرق العربي بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ : الوضع الدولي الجديد . سورية ولبنان ، العراق ، مصر . « الآفاق الجديدة » . الامة العربية ، الوحدة العربية ، الجبهة الوطنية ، الطريق البرلماني .

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية .

كان خروج الاشتراكية من اطار بلد واحد قد فتح أزمة الستالينية التي تجلت في الصدام مع الشيوعيين اليوغوسلاف ومع « الشيوعيين القوميين » في بلدان الديمقراطية الشعبية . وانتقلت الازمة الى مستوى جديد مع انتصار الثورة الصينية ، وظهور سبل التطور الجديدة في الشرق ، واتساع دعوة الحياد الايجابي.

أخذت السياسة السوفياتية تتحول تدريجياً منذ أواخر عام ١٩٥٢ ، وخاصة منذ آذار ١٩٥٣ بعد وفاة ستالين . فقد أجرى القادة السوفيات (مالنكوف ، خروشوف ...) سلسلة تنازلات أمام العالم الرأسمالي ، وأقاموا حلف وارصو لدول أوروبا الشرقية ، وأعادوا العلاقات مع يوغوسلافيا .

وزاد اهتمام الاتحاد السوفياتي بالشرق واكتشف الكتاب والخبراء السوفيات « الدور التقدمي للبرجوازية الوطنية » مرة أخرى . وقد علّل هـذا الدور بأن البرجوازية في الغرب الرأسمالي قد استنفدت نفعها ووصلت الى حدود طاقاتها فيما يتعلق بتنظيم الانتاج وتنميته ، في حين ان اقتصاد بلاد الشرق لا يزال اقتصاداً شبه اقطاعي وقوى الانتاج ما زالت في مرحلة بدائية . لذا فان المهمة التاريخية للبرجوازية الوطنية هي مكافحة البنيات الاقطاعية وتنمية قوى الإنتاج (تحقيق التصنيع) .

إن هذا المنطق مستمدّ من مبدأ « التوافق الضروري بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج » ، الذي أبرزه ستالين في عام ١٩٥٢ ، ولكنه لا يتفق مع الواقع الراهن . فالظواهر تشير الى استمرار تقدّم طاقات الاقتصاد الرأسمالي في الغرب (بعكس ما أكده ستالين في كتابه الأخير) ، والى عجز البرجوازية المحلية في الشرق عن تحقيق تصنيع جدي وعن نسف البنيات الاقطاعية. فالتناقض بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة يفعل فعله في اطار الاقتصاد الامبريالي العالمي ويتجلى بالدرجة الأولى في شكل تناقض حاد بين علاقات الانتاج الامبريالية الدولية (آلية السوق الامبريالية العالمية) وقوى الانتاج في البلدان التابعة والمتخلفة .

وبعد رحلة خروشوف وبولغانين الى الهند وبورما وأفغانستان في أواخر ١٩٥٥ ، أعاد الكتاب السوفيات النظر في تاريخ الحركات القومية ، ووضعوا تقييماً جديداً لزعمائها :

غاندي ، نهرو ، سوكارنو ...

كان ستالين يرى في نهرو وسوكارنو وأقرانهما أناساً مرشحين ليلعبوا دور تشانغ كاي شك . أما خروشوف فقد بات يرى فيهم زعماء وطنيين مخلصين ، ويعتبرهم أحياناً مناضلين اشتراكيين . وكان القادة الصينيون يظهرون مزيداً من الودّ والتقدير لهؤلاء الزعماء ، ويذهبون الى أبعد مدى في التقارب مع الدول الآسيوية والافريقية غير الاشتراكية (مبادىء بانشاشيلا ، مؤتمر باندونغ) .

وقد تقرب السوفيات من مصر ابان صدامها القوي مع بريطانيا (١٩٥٣ – ١٩٥٤) ، وتجنبوا التعليق على أزمة مجلس الثورة وإبعاد محمد نجيب (آذار ١٩٥٤) ، ثم أبدوا بعض الاستياء من اتفاقية الجلاء ، دون أن ينسفوا كل الجسور .

وكان الاتحاد السوفياتي قطع علاقاته مع اسرائيل في يناير ١٩٥٣ ، على اثر القاء قنبلة على المفوضية السوفياتية في تل ابيب. وعادت العلاقات بعد وفاة ستالين . وعقد اتفاق تجاري سمح لاسرائيل باستيراد النفط السوفياتي . وفي حزيران ١٩٥٤ ، رفع التمثيل الديبلوماسي الى درجة سفارة . وشجب الاتحاد السوفياتي في الوقت نفسه أعمال العدوان الاسرائيلية بأقصى ما يمكن من الشدة . وتدهورت العلاقات السوفياتية – الاسرائيلية بسرعة ، مع نهوض الحركة العربية الثورية ونمو الصداقة العربية السوفياتية التي تجسّدت في تزويد مصر وسورية بكميات ضخمة من الاسلحة السوفياتية .

وشجب خروشوف» في خطابه امام مجلس السوفيات الاعلى بتاريخ ٢٩/١٢/١٩٥٥ ، « مسلك دولة اسرائيل التي دأبت منذ الأيام الأولى لوجودها تهدد جيرانها وتسير على سياسة غير ودية حيالهم » ، وأكد « ان هذه السياسة لا تتفق والمصالح القومية لدولة اسرائيل » .

وأعلن شبيلوف ان مصر تستلهم الاشتراكيـة وأعرب عن تأييده للوحدة العربية (١٩٥٦) . وحملت احـدى الصحف السوفياتية على « المشاغبين الذين يسمون أنفسهم شيوعيين في مصر ويتجاسرون على معارضة حكومة الرئيس عبد الناصر » . بينما وصف خالد بكداش في جريدة النور جمال عبدالناصر بانه «رجل عجيب الوطنية عجيب الذكاء » ، وأعلن في مجالسه الخاصة ان جمال عبد الناصر قد عمل ضد الاستعمار أكثر من جميـع القوى السياسية الوطنية مجتمعة ، وأن الشيوعيين الذين مـا زالوا في سجون مصر هم « ثرثارون وصهيونيون » .

طرأ تحـول كبير على مواقف الحزب الشيوعي السوري (ومواقف الأحزاب الشيوعيـة في المشرق العربي) . ويتلخص الموقف الجديد ، في الحقـل العربي ، في تأكيد فكرتي الامـة العربية والوحدة العربية ، وفي الحقل السوري ، في سياسة الجبهة الوطنية القائمة على « التعاون الوثيق بين الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي » .

جاء اكتشاف «الامة العربية» على النحو الذي أعلنه بكداش

في خطابه أمام مجلس النواب السوري بتاريـخ ٦/١٠/١٩٥٥ مفاجأة تامة لغالبية أعضاء الحزب . فقد أكد بكداش أن جميع مقومات الامة (بما فيها الوحدة الاقتصادية) متوفرة في العرب « كما هو واضح وساطع كالشمس في رائعة النهار »«٤» .

وعلى أثر انعقاد المؤتمر العشرين للحزب في الاتحاد السوفياتي (شباط ١٩٥٦) ، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنـان اجتماعاً (أواخر نيسان – أوائل أيار ١٩٥٦) أصدر عدداً من القرارات تحت عنوان «نحو آفاق جديدة»«٥».

تناول أحد هذه القرارات موضوع الوحدة العربية ، فأكد مرّة أخرى توفر جميع مقومات الامة العربية بما فيها «الأوضاع الاقتصاديـة التي يتمّم بعضها بعضاً » . – وهكذا فات خالد بكداش ورفاقه أن « التكامل الاقتصادي » غـير متوفر ولا يمكن ان يتوفر في ظل التجزئة السياسية القائمة وفي ظل الاقتصاد العربي الكولونيالي المجزّأ التابع للاقتصاد الاستعماري الغربي. أو لعلهم أرادوا أن يوفقوا بين الواقع المحسوس والنظرية المجرّدة . وإذ لم يتيسّر لهم ذلك فقد عمدوا الى « تعديل » الواقـع نفسه بدلاً من تعديل النظرية المجرّدة . فالتاريخ في نظرهم لا يمكن ان يضيف شيئاً الى العقيدة .

وقد نوّه القرار المذكور بأهمية الوحدة العربيـة التي هي « احدى قضايا السلم والحرية في العالم » ، واعتبرهـا « نتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن الرغبات والارادات » . – هكذا اذن : من جهة التطور الموضوعي ، ومن جهة ثانية الرغبات

والارادات (هذا الانعكاس التافه غير الفاعل) . أمـــا مفهوم الممارسة والممارسة الواعية ، فلم تسمع به اللجنة المركزية شبه – الماركسية .

وطوّر الحزب شعاراته في قضية فلسطين أيضاً، ولكن دون أن يصل الى رأي صريح حول الكيان الاسرائيلي ومستقبله .

فقد دعا قرار اللجنة المركزية في هذا الموضوع الى « حلول تتفق مع مبادىء الديمقراطية والعدالة وتضمن حقوق العرب » . وأعلن « أن كل حل أو تسوية في نطاق الأوضاع والملابسات الحاضرة لن تكون له صفة الاستقرار والدوام **ما دامت** اسرائيل قاعدة للاستعمار وأداة في يده للضغط والعدوان والتوسّع » .

أما الجبهة الوطنية فتقوم ، في سورية على « التعاون والتفاهم بين الحزبين الوطنيين الشعبيين الكبيرين، الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي ، الـذين يستندان الى جماهـير العمال والفلاحين والمثقفين التقدميين » ، وكذلـك مع « الاتجاهات التقدمية الوطنية في حزب الشعب والحزب الوطني وفي الحركات الدينية الاسلامية » .

وتقوم الجبهة الوطنية في لبنان على التعاون مع « الاشتراكيين التقدميين والنجّادة والبعثيين والتحرريين (حزب التحرر الوطني في طرابلس) والعناصر التقدمية بين الندائيين والدستوريين » ، أي ، في الواقع ، مع جميع الأحزاب والهيئات التي كال لها الحزب الشتائم في الفترة السابقة .

وخصصت اللجنة المركزيه أحـد قراراتها للحديث عن

« دور البرجوازية الوطنية في الجبهة الوطنية على ضوء الاوضاع العالمية الجديدة » . وقد عُلل هذا الدور بدخول أوسع جماهير العمال والفلاحين في الحركة الوطنية التحررية وبتعاظم قوى المعسكر الاشتراكي وتقلّص رقعة الاستعمار العالمي، اي بالعوامل ذاتها التي كانت في الفترة السابقة كثيراً ما تعلّل حتمية انضمام البرجوازية الى صف الاستعمار وخيانتها للمصالح الوطنية («**خوفاً من** تعاظم قوى الجماهير وقوى المعسكر الاشتراكي»).

حتى أن صحف الحزب باتت تؤكد ان البرجوازية الوطنية (المعادية للاستعمار) لا تقتصر بالضرورة على البرجوازية المتوسطة ، بل هي تشمل ايضاً البرجوازية **الكبرى** اذا (؟) لم تكن مرتبطة اقتصادياً بالاستعمار . وكانت البرجوازية الوطنية الكبرى وغيرها تتمثل في شخص خالد العظم .

واكتشفت صحف الحزب في عام ١٩٥٥ أن « القطيعة » بين سورية ولبنان (التي طالب خالد بكداش بالغائها في بيانه الانتخابي عام ١٩٥٤) ، لم تكن إجراءً موجهاً ضد صداقة الشعبين السوري واللبناني ، أوحى بها وكلاء الشركات الأجنبية في دمشق (= خالد العظم) ، انما هي اجراء وطني اتخذته الرأسمالية الوطنية في سورية (= خالد العظم أيضاً) لحماية الاقتصاد السوري من الاستعمار الأجنبي ووكلائه اللبنانيين. وكان ذلك بمثابة تحوّل آخر فاجأ جمهور الحزبيين .

أما استراتيجية المرحلتين فلم تتبدّل . ولكن مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي قد أفرغت كلياً من مطلب الاصلاح الزراعي،

هذا من جهة . ومن جهة ثانية، لم يعد ضرورياً الاستعداد للنضال « **حتى أعلى** درجاته » ، فالطريق السلمي كفيل بتحقيق الثورتين، على أساس تحويل البرلمان الى هيئة « تتحقق فيها ارادة الشعب » . وتكرّرت عبارات « الطريق السلمي » و « الطريق **البرلماني** » الى الاشتراكية في قرارات « نحو آفاق جديدة » زهاء عشر مرّات . فالاشتراكية هدف بعيدٌ بعيد ، ولا علاقة له بالنضال ضد الاستعمار . وبكداش يؤكد باستمرار معارضته لكل اتجاه الى التأميم ، في سورية وفي مصر ، ولشعار « الاقتصاد الموجّه » ويؤكد الدور **الثوري** للرأسمال الوطني . إن عدم إمكان تحقيق الاشتراكية لا يعزوه بكداش ورفاقه الى التجزئة والسيطرة الامبريالية ، بل يعزونه الى « تخلّف قوى الانتاج » الذي يعتبرونه عاملاً معزولاً أوّلياً « ٦ » .

وبحثت اللجنة المركزية القضايا التنظيمية ، فاعترفت بوجود القيادة الفردية ، وألقت مسؤوليتها على اعضاء اللجنة المركزية واعضاء القيادة المركزية الذين « يتهرّبون من دورهم التوجيهي ويلقون تبعات العمل القيادي على عاتق الأمين العام » . واستطاعت ان تتحدّث عن موضوع الديمقراطية الداخلية في الحزب دون ان تذكر بكلمة مبدأ انتخاب الهيئات القيادية ، ومبدأ انعقاد المؤتمر بصورة دورية .

هذا كل ما جناه خالد بكداش ورفاقه من المؤتمر العشرين . أما التفكير باعادة النظر في تاريخ الحزب ، وبدراسة قضايا الثورة العربية ككل ، على أساس من الفهم المستقل للماركسية ،

فقد ظلّ بعيداً عنهم كل البعد . وقد جاءت قرارات « نحو آفاق جديدة » خالية من اية اشارة للثورة الجزائرية او لعناصر التحول الاجتماعي والاقتصادي في مصر . فهل مبدأ « وحدة الأمة العربية » مبدأ نظري مجرّد لا علاقة له بالتطور السياسي والاجتماعي للأمة العربية ؟

ولم تتمسك القيادة الشيوعية السورية طويلاً بمبدأ التعاون بين « الحزبين الوطنيين الشعبيين الكبيرين » ، الحزب الشيوعي وحزب البعث . فقد تحولت في ربيع ١٩٥٧ ، من تأييدها الكامل للكتلة الاشتراكية في الجيش إبان ما يسمّى بعصيان قطنا ، الى انشاء ودعم كتلة تقدمية واسعة وفضفاضة تناوىء الكتلة المذكورة . وهدر الحزب طاقة كبيرة في هذه الحرب الخفية ، وفي النضال ضد المعارضة اللينينية التي اشتدت في صفوفه .

فقد طلبت المعارضة تحقيق الديمقراطية الداخلية الشرط الأول للتجاوب مع الجماهير الشعبية والقدرة على تعبئتها، وإعادة النظر في مواقف الحزب التاريخية (قضية فلسطين ، الموقف من ثورة ٢٣ يوليو ، الجبهة الوطنية في الداخل) ، وبناء نضال الحزب على أسس مبدئية **واستراتيجية** ثابتة ، وصياغة نظرية الثورة الاشتراكية في الوطن العربي على أساس الاستقلال الفكري للماركسيين العرب . ولم يتحقق سحق المعارضة الداخلية الا على أشلاء عدد من منظمات الحزب . وكان سقوط المعارضة اللينينية نذيراً بقرب سقوط الحزب الشيوعي — الستاليني نفسه ، كقوة

سياسية مستقلة فعّالة .

ولئن أحرز الحزب مركزاً مرموقاً في بعض دوائر السلطة، الا ان قواه الشعبية ظلّت دون هذا المستوى بكثير . ولذا فإن سياسة الوثوب الى الحكم التي نهجها في صيف ١٩٥٧ لم تكن الا مغامرة مآلها الطبيعي سقوط سوريا في أحضان الرجعية ومبدأ ايزنهاور وتخريب وحدة النضال الثوري في الوطن العربي.

في العراق استطاع الحزب الشيوعي أن يتغلب على الانقسام وأن يعيد تنظيم صفوفه في ظل قيادة جديدة ، بعد إبعاد جميع العناصر اليهودية .

وكانت خطة الحزب ، في الحقل الداخلي ، السعي الى انشاء جبهة وطنية تضم الاحزاب الأربعة (الشيوعي والوطني الديمقراطي والبعث والاستقلال) في النضال ضد حلف بغداد وحكم نوري السعيد .

أما في الحقل العربي ، فقد أكد الحزب الشيوعي العراقي هو أيضاً توّفر مقومات الامة عند العرب. جاء ذلك في تقرير قدمته اللجنة المركزية وصادق عليه المجلس الثاني للحزب في ايلول ١٩٥٦ ، ونشر في كراس بعنوان « خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي » . ولا بأس من الاشارة الى ان صياغة موضوع الوحدة في الكراس العراقي كان أفضل منها في كراس « نحو آفاق جديدة» . وقد أشار الشيوعيون العراقيون بشكل خاص الى ان انعزال العراق وليد خطة استعمارية بحتة ، وهو

معاكس لمنطق التطور القومي«٧» .

وعلى أساس خطة العمل الجديدة ، استطاع الحزب الشيوعي العراقي أن يبني قواعد شعبية أتاحت له ان يقوم بدور طليعي فعّال في ثورة الشعب العراقي تضامناً مع مصر ابان العدوان الثلاثي في نوفمبر ١٩٥٦ ، حتى أن الشيوعيين أعلنوا « حكم السوفيات » في مدينة كوت الحي، على حد ما رواه والتر لاكور في كتابه « الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط » .

في مصر ، كانت سنوات ١٩٥٦ – ١٩٥٨ فترة ذهبية بالنسبة للحركة الشيوعية .

في هذه السنوات ، قام الماركسيون المصريون بنشاط صحفي وفكري ضخم ، وجد تعبيره في عدد من الصحف والمجلات والكراسات الصادرة عن دور نشر مختلفة : جريدة المساء اليومية ، مجلة الغد ...، دار النديم ، دار الفكر ...

وفي هذه السنوات أيضاً ، خطت قضية توحيد الحركة الشيوعية المصرية خطوات حاسمة .

جرت محاولة التوحيد الأولى في مؤتمر انعقد في روما عام ١٩٥٦ وجمع ممثلي بعض المنظمات ، وانضمت اليها فئة جديدة في عام ١٩٥٧ . وكانت سياسة غالبية المنظمات الشيوعية تأييد جمال عبد الناصر وحكومة الثورة تأييداً تاماً ، وتأييد الوحدة العربية المتحررة .

وفي حديث أدلت به لجنة تنسيق المنظمات الشيوعية في

روما الى مراسل جريدة أوفيتا ، لسان حال الحزب الشيوعي الايطالي ، عرضت هذه اللجنة برنامج الحزب الشيوعي المصري المزمع انشاؤه ، في خمسة بنود رئيسية . وقد نص البند الثاني على «**تحقيق وحدة فيدرالية** تجمع الاقطار العربية التي تحررت من النير الاستعماري » (أوفيتا ، ١٤/٥/٥٧) ، الأمر الذي يشكل دونما ريب تخطياً واضحاً لمواقف الحزب الشيوعي السوري . الاّ أنّ النص الفرنسي الذي نشر بعد قليل أورد ما يلي «**تعزيز وحدة** الاقطار العربية المتحررة من النير الاستعماري » وهذا نص يختلف عن السابق ، وليس له مدلول محدّد ، بل يمكن القول انه لا يتخطى فكرة التضامن التقليدية[*] .

وفي يناير ١٩٥٨ ، اجتمعت غالبية المنظمات الشيوعية

---

* – راجع كتاب أنور عبد الملك المذكور سابقاً الصفحة ٢٦٠ من الطبعة الفرنسية .

ونجد في الشرح الوارد في الصفحة ٢٧٤ ، أن النص الفرنسي المذكور اعلاه قد ورد في النشرة الصادرة عن فرع السياسة الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، تموز ١٩٦٠ .

هل كان هناك اتجاهان مختلفان عند الايطاليين والفرنسيين ؟ أم اننا امام خطأ مطبعي ، والمقصود الحزب الشيوعي الايطالي لا الفرنسي ؟ ثم ماذا يعني هذا التبدل في النص ؟ هل غير الشيوعيون المصريون رأيهم ؟ لماذا؟وتحت ضغط من ؟

ان القيادة الشيوعية في سورية أصدرت في الفترة نفسها مشروع نظام داخلي قدمت له بمقدمة عن أهداف الحزب ، جاءت خالية من ذكر الوحدة العربية .

المصرية في حزب موحّد وانتُخب مكتب سياسي جديد . وظلت فئات صغيرة خارج هذا التنظيم ، تتهمه بالميول اليمينية والذيلية ، نظراً لتأييده حكومة الثورة .

وقد أصدر الحزب الشيوعي المصري دراسة بعنوان « مفهوم القومية العربية » بقلم الرفيقين « خالد » و « عباس » .

عدّدت هذه الدراسة مقومات القومية العربية على النحو التالي: التاريخ والنضال المشترك،اللغة الواحدة والتراث القومي، الارض المشتركة ، التكوين النفسي المشترك .

أما الوحدة الاقتصادية فهي غير متوفرة في العرب . ولكن « من الواضح أن هذه الحقيقة مرتبطة تماماً بواقع أن دولاً استعمارية مختلفة لا تزال تسيطر على مقدرات وامكانيات وثروات أجزاء من الوطن العربي وهي بالتالي تربط هذه الاجزاء بالاقتصاد الاستعماري نفسه » .

وأدرك الشيوعيون المصريون أن القومية العربية ليست « تطلع طبقة اجتماعية صاعدة نحو أسواق جديدة » . بل هي « في جوهرها حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار » ... وان « معركة التوحيد معركة في جوهرها معادية للاستعمار » . وهي بالضرورة « حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية » ، لأنها تناضل ضد حلفاء الاستعمار « الاقطاعيين والاحتكاريين »[٨] .

واذا قارنا رأي الشيوعيين المصريين في موضوع الوحدة الاقتصادية مع رأي الرفاق السوريين في الموضوع نفسه وفي قضية الوحدة بشكل عام ، يتبين لنا ان رأي المصريين ليس

أصح من الناحية النظرية وحسب، بل هو ، من الناحية العملية ، لا يلقي قضية تحقيق الوحـــدة على التطور « الموضوعي » والتلقائي لاقتصاد رأسمالي كولونيالي الطابع .

الفصل الرابع

الحركة الشيوعية أمام قضية الوحدة والاشتراكية
١٩٥٨ - ١٩٦٣

أ – الحركة الشيوعية في المشرق العربي حتى عام ١٩٦١ : سورية ولبنان ، مصر ، العراق .

الوضع العالمي . موقف الحزبين الشيوعيين السوري والمصري من الوحدة . ثورة ١٤ تموز في العراق وتحوّل الأحزاب الشيوعية . « المدّ الاحمر » في العراق وانحساره بعد انحسار المد الثوري العربي . الخط الاستعماري ودور بريطانيا .

انفتح دور جديد في التاريخ العالمي .

في اوروبا ، كان المد العمالي الثوري قد توقف منذ بضع سنوات ، وبدأ ينحسر أحياناً نتيجة تفاعل عوامل موضوعية (دخول الاقتصاد الرأسمالي في طور جديد من النمو والازدهار) وعوامل ذاتية (سياسة القيادات الشيوعية والاشتراكية) .

في آسيا الجنوبية – الشرقية ، أحرزت الثورة القومية الناهضة للاستعمار والاقطاعية والرأسمالية، بنتيجة الدفع الثوري القوي الآتي من الثورة الصينية ، تقدماً باهراً ، تبعه دور جديد

من التوقف والجمود .

في الشرق الأوسط وفي افريقيا ، بدأت ثورة ٢٣ يوليو تحركاً ثورياً واسع النطاق ، فكان لمعركة تأكيد الاستقلال والسيادة التي خاضتها الثورة المصرية (١٩٥٥ – ١٩٥٦) أثر كبير على حركة التحرر العالمية ، بينما فرضت الثورة الجزائرية على الاستعمار سياسة التراجع في القارة الافريقية .

وكان هذا التحرك الثوري الجديد ، العربي – الافريقي ، يحصل خارج إطار الاحزاب الشيوعية ، وخارج إطار « المعسكر » الاشتراكي ، وبدعم قوي من هذا المعسكر وخاصة من الاتحاد السوفياتي .

ونقل المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي (ثم سقوط كتلة مولوتوف) أزمة الستالينية الى دور جديد، دور السقوط، فاتحاً بذلك عهداً جديداً في تاريخ الحركة الشيوعية والثورة الاشتراكية العالمية .

كانت الستالينية قد شلت، الى حد كبير، ديالكتيك التطور العالمي بسعيها المبدئي الى حصره في الصراع بين المعسكرين . فجاء سقوطها نتيجة لهذا التطور، نتيجة لتقدم المجتمع السوفياتي ولامتداد الثورة العالمية في اوروبا وآسيا . وإن التطور اللاحق لهذه الثورة سيخرج على نحو متزايد من إطار الصراع بين المعسكرين ومقتضيات هذا الصراع .

وقد تمثل أفول الستالينية بشكل خاص في الاستقلال المتزايد للاحزاب الشيوعية وفي استحالة إقامة مركز عالمي

واحد للحركة الشيوعية .

هذا كله كان يفرض على الاحزاب الشيوعية عملية إعادة النظر في الخطط والمفاهيم ، على ضوء الواقع المتحول .

وقد بدأت القيادات الشيوعية في الشرق العربي هذه العملية. وكان العمل الذي قام به بكداش ورفاقه ينطوي على جانبين : أحدهما ايجابي : فكرة القومية العربية ، فكرة الوحدة العربية، التعاون مع القوى والقيادات العربية الثورية . والآخر سلبي : الطريق السلمي والبرلماني الى الاشتراكية ، مفهوم البرجوازية الوطنية – الكبرى ، التهرّب من بحث القضايا التنظيمية بحثاً جدياً ، ومن إعادة النظر في تاريخ مواقف الحزب ، الامتناع عن صياغة نظرية الثورة العربية على أساس التحليل الماركسي للعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة دولياً وعربياً ومحلياً .

لقد ظل « اكتشاف » القومية العربية والوحدة العربية في إطار التجريد النظري . والقضية المطروحة هي « إنزال » التجريد الى مستوى الحقيقة « الموضوعية » . المطلوب إنشاء الستراتيجية التي تربط بين التكتيك و « الهدف » . وإلا ، فان كل شيء يبقى مهدداً بالغرق في بحر التكتيك مرة أخرى .

كانت قيادة **الحزب الشيوعي السوري** في أيار ١٩٥٦ قد أكدت « ان طموح البلدان العربية الى وحدتها ... هو مظهر لحاجة واقعية ونتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن

الرغبات والارادات » . بقى أن « الرغبات والارادات » قوة فعالة في التطور التاريخي . فما هي « رغبات وارادات » قيادة الحزب الشوعي السوري ازاء موضوع الوحدة ؟

في صيف ١٩٥٧ ، أصدرت هذه القيادة (تحت ضغط المعارضة) مشروع نظام داخلي للحزب ، جاءت مقدمته خالية من ذكر الوحدة العربية بين الأهداف التي يعمل لها الحزب .

وكانت مفاوضات الوحدة في القاهرة مفاجأة تامة لقيادة الحزب التي لم تكن قد وضعت اي مشروع للاتحاد بين سورية ومصر ، بل لم تكن قد طرحت القضية كهدف محسوس . وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٥٨ ، أصدرت اللجنة المركزية « قراراً عن **الاتحاد** بين سوريا ومصر » .

بدأ القرار بترداد رأي اللجنة المركزية في ان الوحدة هي « نتيجة تطور موضوعي الخ ... » . ثم استعرض مراحل نضال الشعب السوري ونضال الشعب المصري . فذكر الجلاء عن مصر ورد العدوان الثلاثي ... وأغفل ثورة ٢٣ يوليو . وأكد القرار ان المحتوى الرئيسي للقومية العربية هو محتوى تقدمي ديمقراطي ، وأن الاتحاد بين سوريا ومصر يعبر عن أماني ثمانين مليون عربي ، من الخليج الى المحيط ، وانه يؤلف قوة كبرى للوقوف بوجه اسرائيل وأحلامها التوسعية . وأشار الى أن سورية بلغت مستوى من المعيشة يفوق مستوى غيرها من بلدان الشرق الأدنى (هكذا ، إن صحّ هذا المنطق ، تكون سورية « **بلغت** » مستوى معاشياً أرقى من مستوى مصر ، بفضل همة الرأسمالية

السورية المستقلة ومكمّلها الحزب الشيوعي السوري. أما علاقات العصر الامبريالي التي حطمت الشعب المصري فلا دخل لها في هذه الامور !) .

ثم عرض القرار مشروع اللجنة المركزية :

« إن الاتحاد بين مصر وسوريا سيكون من شأنه أيضاً أن يرفع مكانة كل من الجمهوريتين العربيتين المتحررتين في العالم ، ويوطد كيانها ، ويزيد وزنها في الحياة الدولية لمصلحة القضايا العربية ، وقضية السلام العالمي » . (النور ١٥/١/١٩٥٨) .

يمكن القول دون أن نظلم أحداً أن هذا المشروع لم يكن مشروع اتحاد فيدرالي بل مشروع انشاء كونفيدراسيون ضعيف بين جمهوريتين مستقلتين تحافظان ، كما ورد في جريدة الحزب وعلى لسان مسؤوليه ، على « الشخصية الدولية » و « التمثيل الخارجي » لكل منهما ، (وعلى « مقعدين اثنين » في هيئة الامم بدلاً من مقعد واحد) .

إلا ان سير الأحداث قد اضطر قيادة الحزب الى التراجع وتأييد الوحدة . هذا هو فحوى تصريح خالد بكداش الى جريدة النور بتاريخ ٣/٢/٥٨ وتصريحه الى وكالة أنباء الشرق الأوسط بتاريخ ٥/٢/٥٨ .

« صحيح انه حين طُرحت **مؤخراً** (أَفلم تكن مطروحة من قبل ؟؟) قضية الوحدة بين سوريا ومصر ، كان لنا رأي في شكل هذه الوحدة ، وهو رأي لا يمس جوهر الوحدة وصميمها ... » «١» .

وكتبت جريدة النور في ١٩٥٨/٢/١٠ تقول :

« واذا كانت هنـــاك سابقاً آراء في شكل الوحدة ، واذا كانت هناك الآن أيضاً ملاحظات فيما يتعلق بقضية الحريات، فان ذلك ليس صادراً إلا عن الرغبة المخلصة الصادقة في توطيد دعائم الجمهورية العربية المتحدة ... كما أن ذلـك لا يمكن ان يمنع بأي حال توحيد القوى الوطنية للدفاع عن استقلال الجمهورية المتحدة وعن سياستها الوطنية التحررية وعن كيانها وبقائها » .

وأصدرت اللجان المنطقية للحزب في المحافظات السوريـــة بيانات دعت فيه الى الاشتراك في الاستفتاء وتأييد قيام الجمهورية العربية المتحدة وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لها .

ونشرت جريدة النور في ٢١ شباط مقالاً افتتاحياً لاهبـــاً بعنوان « عاشت الجمهورية العربية المتحدة » . وفي ٢٦ شباط ، عقدت مقالاً افتتاحياً بعنوان « مرحباً بالرئيس عبدالناصر في دمشق العربية الباسلة » حيّت فيه « رجل القومية العربية الذي سجل انتصارات وطنية كبرى زلزلت مواقع الاستعمار الخ... » وفي ٢٨ شباط ، علقت على خطاب عبد الناصر في مقال حماسي بعنوان « قنبلة » وصفت فيه الرئيس بانه « عمـــلاق من نسج الاساطير » الخ ...

إلا أن خالد بكداش كان قد امتنع عن حضور جلسة مجلس النواب التي أعلنت فيها الوحدة وخرج من البـلاد . وذكرت جريدة النور فيما بعد أن مؤامرة استعمارية كانت قـــد دُبرت لاغتيال « الزعيم الوطني الكبير » وهو في طريقه الى المجلس ،

الأمر الذي دفعـــه الى التغيب عن الجلسة ! ... – والسفر الى الخارج لعدة شهور ؟؟

وأبرزت النور نبأ « ترحيب » شارل مالك وسامي الصلح بقيام الجمهورية العربية المتحدة . وبمناسبة قدوم وزير الداخلية في الجمهورية العربية المتحدة الى الاقليم السوري ، نشرت النور مقالاً عن ... الحجاج بن يوسف الثقفي « الرجل الذي أخمـد ثورة فأقام ثورات ... » . كما نشرت مقالاً عن حملة ابراهيم باشا في سورية ونهايتها المفجعة (على يد الشعب السوري وبدون ذكر للقوى الدولية ، لبريطانيا) .

اتجاهان اثنان في مواقف الحزب وصحيفته : الأول يتمثل في قرار ١٩٥٨/١/١٥ وشروحه وذيوله ، وتهرب خالد بكداش من حضور جلسة مجلس النواب ، ومقـالات النور عن الحجاج وابراهيم باشا . والثاني يتمثل في تصريحات خـــالد بكداش في اوائل شباط والتحمس للجمهورية العربية المتحدة ، وانتخـاب عملاق الاساطير .

هل كان ذلك بناء على خطة مدروسة ؟ أو هـــل اضطرت القيادة الى التراجع موقتاً تحت ضغط احداث وضغط المعارضة الشيوعية ؟

أو هل كان هناك خلاف في اللجنـــة المركزية وصراع بين اتجاهين ؟

ربما . ولكن هذا الاحتمال يبدو لنا ضعيفاً ، بالرغم مما رواه المستشرق الماركسي الفرنسي ، مكسيم رو دنسون ، في مقال له

عن الشيوعية في مصر وسورية نشرته مجلة « الدفاتر الامية » في اوائل عام ١٩٥٨ . فقد ورد في شرح أضافه في نهاية المقال أن الأمور تسير بسرعة نحو انشاء وحدة بين سورية ومصر ، تقوم على اساس حل الاحزاب وتشكيل اتحاد قومي ، وان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري منقسمة على نفسها حول هذا الموضوع ، وأن الاغلبية تميل الى « الحل » ...

أما **الحزب الشيوعي المصري** فقد استقبل الوحدة ابان قيامها بحماسة منقطعة النظير .

في ١٩٥٨/١/٢٧ ، أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري بياناً بعنوان : « بيان الى الشعب عن **الوحدة** المصرية السورية » ، قال فيه ان الوحدة تحمي مصر وسورية من مؤامرات الاستعمار ومشاريعه العدوانية وهي موجهة ضد حلف بغداد وضد اسرائيل وضد مشروع ايزنهاور وضد القوى الرجعية في البلاد العربية .. انها انطلاق جبار نحو مزيد من الانتصارات والمكاسب « ٢ » .

وبعد أيام ، أصدر الحزب تحية الى الشعب في عيد « وحدته المقدسة » . وفي ٢/٢٣ ، أصدر منشوراً هنأ فيه الشعب العربي « في الاقليمين وفي كل أرجاء الوطن العربي العظيم » . ونشرت جريدة الحزب السرية « اتحاد الشعب » مقالاً طويلاً عددت فيه مزايا الوحدة وفوائدها .

كما أصدر الحزب بياناً رد فيه على دعايات الاستعمار الذي

يحاول إشاعة الذعر بين الرأسمالية الوطنية في مصر وبين مثيلتها في سوريا . وتعرض البيان الى موضوع حل الاحزاب ، فقال انه لا يجوز النظر الى مستقبل التطور الديمقراطي من زاوية وجود الاحزاب وحسب ، بل يجب النظر الى المسألة من زاوية التقاء القوى الشعبية في الاقليمين والسياسة التحررية السائدة في الجمهورية ومن زاوية التطور التاريخي للوحدة ، وحذّر من وضع مسألة حل الاحزاب في مركز الاحداث « ٣ » .

وفي توجيه داخلي ، حذرت القيادة اعضاء الحزب من تركيز الجهود على نقد حل الأحزاب ، مؤكدة ان الموقف الصحيح هو « أن نستفيد من المد الثوري الذي أحدثته الوحدة واقترن بها وأعقبها » « ٤ » . وهذا يعني أن الحزب الشيوعي المصري وضع القضية في أبعادها الحقيقية .

وفي ١٥ آذار ، كتبت اتحاد الشعب مقالاً افتتاحياً بعنوان « المنطقة المتحررة » قالت فيه ان الجمهورية العربية المتحدة هي « المنطقة المتحررة في ارض الوطن العربي الكبير » ... « انها الدولة الوحيدة التي لا سيطرة لاستعماري دخيل او لاقطاعي رجعي على مصائرها » ... « انها قلعة الحرية ... المنارة .. والأمل ... اليد القوية ... مأوى الاحرار ... القاعدة ... صوت العرب الاحرار في كل مكان ... دعوة الكفاح ... الخ ...«٥» .

وبالرغم من ان الحزب الشيوعي المصري انتقد استبعاد شخصيات وطنية هامة « مثل خالد العظم » ! ، فقد ظل خطه السياسي العام والواضح تأييد الوحدة ، الى ما بعد ثورة ١٤ تموز

بشهرين تقريباً .

في سورية ، ثابرت جريدة النور على موقفها السلبي ، فقد اكتشفت وجود الجرائم في المجتمع المصري، وبدأت تنشر اخبار حوادث الفشل والقتل وما شابه ذلك من وقت لآخر وفي مكان محدّد . وحملت على قرار التعريفات الجمركية الرامي الى الحد من استيراد المواد الاستهلاكية (وخاصة غير الأساسية) ، مع انها كانت نشرت قبل أيام أرقاماً للدلالة على ضخامة السلع الكمالية المستوردة من الغرب . (في الواقع ، لم تحمل النور على القرار إلا بعد ان صدر قرار من الطراز نفسه في صحيفة الرأي العام*) . وإبان زيارة الرئيس عبد الناصر للاتحاد السوفياتي ، كانت جريدة النور أقل الصحف حماسة في إبراز انباء الرحلة وخطب القادة العرب والسوفيات .

واستخدم خالد بكداش الكولوكيوم المنعقد في براغ في شهر **حزيران ١٩٥٨** ، ليبدأ حملة « الانتقادات » . فقال ان في مصر وسورية اتجاهاً الى الاصلاح الزراعي ، وان الامريكيين يؤيدون هذا الاتجاه الذي هو لصالح المزارعين الاغنياء ، وان نجاحه في ظل « البرجوازية» سيكون فاجعة أليمة لأنه سيؤدي الى إبعاد الفلاحين عن حليفتهم الطبيعية ، الطبقة العاملة ...

---

* – كانت جريدة الرأي العام في سنة ١٩٥٧ الناطقة بلسان ما يسمى التجمع القومي البرلماني . وهي وثيقة الصلة بأكرم الحوراني وخالد العظم .

(نشر نص هذا الخطاب في مجلة « قضايا السلم والاشتراكية » ، العدد الأول ، ايلول ١٩٥٨) .

يمكن ان نتأمل كيف ان « ممثل الطبقة العاملة » ، المؤمن بدور البرجوازية التاريخي ، أخذ ، بين عشية وضحاها ، يخاف على مستقبل الطبقة العاملة من مجرد «اتجاه» الى الاصلاح الزراعي في ظل « البرجوازية » !

جاءت ثورة ١٤ تموز في العراق تتويجاً للمد الثوري « الذي رافق الوحدة وأعقبها » .

ولم يخف ذلك على الحزب الشيوعي المصري، الذي سارع الى اصدار بيان بعنوان « عاشت الجمهورية العراقية **العربية** » ، جاء فيه أن الشعب العراقي البطل ضحى بأرواح ابنائه « فداء لقضية تحرر الوطن **والوحدة العربية** » ، وان ثورة العراق ضربة قاصمة للاستعمار المتداعي في الجزائر ولبنان والاردن وعمان ... «٦».

ولم تمض أيام حتى ظهرت أصوات من نوع آخر . ففي ٢٠ تموز ، « انتقد » **خالد بكداش** الأسس التي قامت عليها الوحدة بين سورية ومصر ، وأذاع راديو صوفيا هذا « الانتقاد » في الوقت الذي كانت فيه الجمهورية العربية المتحدة قد وضعت كل قواها الى جانب ثورة العراق ضد الاستعمار الانكلو – امريكي والرجعية العربية .

لم يكن همّ خالدبكداش وسلامعادل وزكي خيري الاستفادة من المد الثوري الذي بلغ أوجه في اعقاب ١٤ تموز ، للاطاحة

بالاستعمار « المتداعي في الجزائر ولبنان والاردن وعمان ... » ، بل كانت غايتهم انشاء مركز جديد للثورة ، «تقدمي ديمقراطي» ، ولو كانت هذه السياسة تهدد بانقسام جبهة التحرر العربي وانحسار المد الثوري وانتعاش قوى الرجعية والاستعمار .

وسار المخطط على النحو التالي : إبراز دور «الجبهة الوطنية» (المؤلفة من الاحزاب العراقية الاربعة) على حساب دور الجيش تمهيداً لإقصاء الضباط القوميين ، ثم ضرب حزب البعث وحزب الاستقلال . أولاً ، رفع شعار الاتحاد ضد شعار الوحدة ، ثم دفن الاتحاد بكل اشكاله ومنع كل خطوة اتحادية بين الجمهوريتين . وقد تمكنت **القيادة الشيوعية العراقية** من تنفيذ هذا المخطط في ظرف تميز بتشنج قطاع كبير من القوى القومية وزعمائها . (شعار « لا نرضى عن الوحدة بديلاً ») .

وتبين تدريجياً ان الاتحاد الذي ينادي به الحزب الشيوعي العراقي رسمياً ليس في الواقع سوى اتحاد كونفيدرالي صوري لا قيمة له . ففي ٣ أيلول ١٩٥٨ ، أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي بياناً «حول الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة واليمن » ، أكد فيه العمل من أجل « انضمام الجمهورية العراقية الى اتحاد الدول العربية المؤسس بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن » ، كما أكد تخاوف الرأسمال الوطني العراقي ، وتخاوف الضباط العراقيين ، وتخاوف الشعب الكردي ، من الوحدة«٧» .

وأصدر المكتب السياسي **للحزب الشيوعي المصري** في ١٥ أيلول بياناً أشاد بتجربة الاتحاد بين الجمهورية العربية المتحدة

والمملكة المتوكلية اليمنية ، مبرزاً أهمية الخصائص والفروق الاقليمية التي لم تعد في نظره « فروقاً سطحية » .

وانتقل مفكرو الماركسية — الجديدة في بيروت وبغداد الى تأكيد ان الاتحاد ليس ضرورياً ، وان القومية الواحدة لا تعني وجوب اقامة كيان سياسي واحد (رئيف خوري ، مجلة الآداب ، ايلول — تشرين الأول ١٩٥٨ . عزيز الحاج : « ثورتنا في العراق وقضية الوحدة ») . ثم ذهب أحدهم الى القول بوجود أمة عراقية وأمة مصرية وأمة لبنانية الخ .. (جورج حنا : « تصويب مفهوم القومية العربية » ، ١٩٥٩) .

وفي أيلول ١٩٥٨ ، استدعى انور السادات أحد قادة الحزب الشيوعي المصري ، وحاول طيلة سبع ساعات اقناعه بانضمام الشيوعيين الى الاتحاد القومي ، «ملوّحاً بمصير الاخوان المسلمين» . ولكن القائد الشيوعي قابله برفض « مهذب ونهائي » (أنور عبدالملك : « مصر مجتمع عسكري » ، ص ١٢٥) .

وانتقل الخلاف في خريف ١٩٥٨ الى الصعيد الاداري والبوليسي باعتقال عبدالسلام عارف ثم رشيد عالي الكيلاني وعدد من الشخصيات القومية المدنية والعسكرية .

وحمل عبدالناصر على الحزب الشيوعي السوري في خطاب عيد النصر (١٩٥٨/١٢/٢٤) . وأغلقت جريدة النور* .

* كانت الصحيفة الحزبية الوحيدة التي ثابرت على الصدور مدة ١٠ أشهر بعد قيام الوحدة وحل الاحزاب . وقد نشرت عدداً من « الانتقادات » ، رغم ان الصحافة كانت تحت الرقابة . لولا الرقابة ، لكانت « الانتقادات » اكثر عدداً او أدسم مادةً .

وتعرض الشيوعيون في سورية ومصر لحملة اعتقال واسعة ابتداء من مطلع عام ١٩٥٩ ، واشتدت بعد حوادث الموصل (آذار ١٩٥٩) .

وتعرّض خروشوف للموقف الجديد في خطابه أمام المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقد في كانون الثاني ١٩٥٩ ، فقال انه من الطبيعي أن تنقسم الحركة الوطنية على نفسها بعد أن أحرزت الاستقلال نظراً لتناقض المصالح بين الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية ، وأن عواطفه هي مع الطبقة العاملة ومع الشيوعيين . وأكد ، رداً على عبد الناصر وعلى صحف الجمهورية العربية المتحدة ، « أن جميع الشيوعيين ، بما فيهم شيوعيو اسرائيل ، هم أعداء للصهيونية » .

وذهب محيي الدينوف الى أن القول بأن الشيوعيين لا يخدمون مصالح بلادهم هو افتراء وضيع ينم عن استعداد للتفاهم مع الدولار والجنيه الاسترليني .

وحمل الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي ، سلام عادل (= حسين الرضوي) في مقال له في البرافدا (١٩٥٩/٢/٣) على « التيتوية » و « التحريفية » و « الشيوعية العربية » (يقصد العناصر « المنشقة » و « المعارضة » في العراق وسورية ومصر) . — تميزت سنتا ١٩٥٨ و ١٩٥٩ بحملة جديدة على « التحريفيين اليوغوسلاف » ظهرت في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وفي مناسبات عديدة أخرى ، وقد حمّل اليوغوسلاف تبعة أشياء كثيرة — .

وكرر خالد بكداش ، في خطابه أمام مؤتمر حزب العمال البولوني ، ما جاء في خطاب خروشوف أمام المؤتمر الحادي والعشرين ، فقال « إن جميع الشيوعيين اعداء للصهيونية »(دون أن يخص شيوعيي اسرائيل » .

أدت المعركة التي فتحتها الأحزاب الشيوعية ، الستالينية في المشرق العربي الى انكسار النهوض الثوري وانتعاش النظم الملكية الرجعية في المنطقة . ولم تكن الامبريالية العالمية ، عندما حركت أساطيلها الجوية والبحرية في اعقاب ١٤ تموز تطمح الى اكثر من ذلك ، وهي لم تسحب هذه الاساطيل الا حين اطمأنت الى ان المعركة الداخلية باتت محتومة وقريبة .

وعلى أثر توقف النهوض الثوري في المنطقة ، انفتحت أزمة الحكم وأزمة القيادة في الاقليم السوري . وكان المخرج الوحيد من الأزمة انماء الثورة في العمق بعد توقفها في الاتساع ، أي تحويلها بالاتجاه الاشتراكي في الاقليمين . الا ان هذا الحل تأخر طيلة عامين . وشهدت هذه الفترة (١٩٥٩ — ١٩٦١) سياسة التردّد وتلمس الطرق والاستعداد في المضمار الاقتصادي ، ومهادنة الرجعية في المضمار السياسي ، وازدهار ايديولوجية التعاون الطبقي (« لا يسار ولا يمين ») في المضمار الفكري .

غير أن التناقض الاساسي ظل قائماً يقرر تطور المنطقة بأسرها . وهو التناقض بين الجمهورية العربية المتحدة — قاعدة الثورة الوحدوية التقدمية ، وبين النظم الملكية الرجعية والحكم

القاسمي من جهة ثانية . أما الاستعمار فيقف مع الفريق الثاني .
والقوة القائدة العاملة هي بريطانيا ، صاحبة المصلحة الاولى والاجهزة العريقة في المشرق العربي . وهدفها : ضرب الوحدة ، فصل سورية لمنع « امتداد النفوذ المصري » الى العراق والخليج العربي. ووظيفة العراق القاسمي تحقيق فصل سورية عن مصر «٨» .

ولكن القيادات الشيوعية لم تحسب ، على ما يبدو ، هذا الحساب (أو لعلها حسبته ، وتوهمت أنها ستستخدم بريطانيا ، أو ...) . كان هدف هذه القيادات فك الوحدة القائمة بين سورية ومصر باستثمار الصعوبات ونقاط الضعف، وبعض الأحقاد والمصالح والحسابات المحلية . على هذا الاساس ، ركزت « النداء » وهي صحيفة يومية جديدة أصدرتها القيادة الشيوعية في بيروت) ضرباتها الرئيسية على حزب البعث والوزراء الاشتراكيين الى ان خرجوا من حكومة الجمهورية العربية المتحدة.

أصبح الشغل الشاغل لصحف الحزب الشيوعي في بيروت (النداء ، الاخبار) محاربة الجمهورية العربية المتحدة . فكانت التعليقات والأنباء الموجهة ضد الجمهورية تغطي اكبر قسم من هذه الصحف ، اي اكثر بكثير مما خصص فيها لمحاربة النظم الملكية الرجعية في المنطقة .

وأخذت الصحف الشيوعية تنشر النظرية القائلة ان الوحدة كانت مؤامرة أوحت بها واشنطن لضرب القوى اليسارية المتعاظمة في سورية ، ناسية ما كتبته إبان قيام الوحدة ، وما كشفته محكمة الشعب في بغداد عن تآمر الاستعمار الأمريكي ضد

الوحدة في شباط وفي تموز ١٩٥٨ .

لم يعد عبد الناصر « قائداً ملهماً » ، و « عملاقاً من نسج الاساطير » ، بل أصبح مرة اخرى « عميلا امريكياً » . ولم يعد الحكم حكماً ثورياً تحررياً او على الاقل « برجوازياً وطنياً »، بل أصبح أداة للرأسمالية المصرية الكبرى ، التوسعية ، الاستعمارية ، والتي تتمثل في بنك مصر . وجاء تأميم بنك مصر في شباط ١٩٦٠ لينسف هذه التقديرات . غير ان الصحف الشيوعية المحلية لم تبال بتأميم بنك مصر ، او بعقد اتفاقية السد العالي مع الاتحاد السوفياتي ، او بسياسة الجمهورية العربية المتحدة في قضية الكونغو ، وبموقفها من العدوان على كوبا (أوائل عام ١٩٦١) . وركزت القيادة الشيوعية السورية – اللبنانية جهدها على تخريب سمعة الجمهورية العربية المتحدة في الدول الاشتراكية وفي العالم ، معتمدة على قضية اعتقال ومقتل فرج الله الحلو .

وأسفرت الانتخابات اللبنانية عن مدى تدهور قوى الحزب، الذي لم يقدم الا مرشحاً واحداً (جورج حنا) من أصل ٩٩ ، فنال أقل من ربع الاصوات التي نالها مرشح الحزب (انطون ثابت) في انتخابات ١٩٥٧ ، وأقل بعشر مرات من أصوات مرشح حزب البعث في طرابلس .

في العراق ، كان محور الجهد الرئيسي للقيادة الشيوعية والقاسمية محاربة « الناصرية » . وقد أخضعت كل المواقف لهذه المعركة . قاد الحزب الشيوعي العراقي المظاهرات الضخمة تحت

شعارات « جمهورية لا إقليم ، عاش الزعيم عبدالكريم » ، ثم « لا وحدة ولا اتحاد بل تصنيع البلاد » ، « اعدام ! اعدام ! » الخ ...

وبلغ المد الشيوعي أوجه بسرعة ، ثم توقف بعد مجازر الموصل وكركوك، التي اضطرت قيادة الحزب ان تصدر بصددها بداية نقد ذاتي (تموز ١٩٥٩) . ولم يتمكن الحزب من الوثوب الى الحكم ، ولم يتمكن من استخدام بريطانيا .

فقد سار التطور « الموضوعي » بعكس ما أرادته « الذات » شبه — الماركسية . سارت الامور في العراق على مرحلتين أو دورين :

المرحلة الاولى ، ويسميها بيار روسي «٨» المرحلة الكوبية (أو شبه الكوبية !) ، مرحلة « المد الاحمر » : اسقاط عبدالسلام عارف ، خروج الوزراء القوميين ، القضاء على ثورة الموصل، قيام جبهة وطنية تضم الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي والحزب الديمقراطي الكردستاني و « الشخصيات الوطنية الخ .. » في حزيران ١٩٥٩، السيطرة على نقابات العمال، مسيرات انصار السلام ، الاتجاه نحو « اليسار » في تركيب الوزارات ، مجزرة كركوك في تموز ١٩٥٩ ، اعدام رفعت الحاج السري وناظم الطبقجلي .

المرحلة الثانية ، ويسميها بيار روسي المرحلة المكسيكية أي مرحلة الهدوء والاعتدال والتراجع : استقالة كامل الجادرجي ، تسلط الدكتاتورية القاسمية ، انقسام الحزب الشيوعي ، اصدار

جريدة المبدأ برئاسة داود صايغ*، ترخيص الحكومة « للأحزاب » القاسمية ورفض الترخيص للحزب الشيوعي ، إلغاء وزارة الاصلاح الزراعي ووضع مصير الأرياف تحت « رعاية » وزارة الداخلية (شباط ١٩٦٠) ، اغلاق جريدة « اتحاد الشعب » ، الحكم بالاعدام على ثلاثين من المدنيين والعسكريين المشتركين في حوادث الموصل وكركوك ، اغلاق مكاتب منظمة أنصار السلام (أيار ١٩٦١) « نظراً لأن كل الشعب نصير للسلام » ، إغلاق صحف الحزب الديمقراطي الكردستاني وبدء الحرب في الشمال .

بدلاً من تحليل الموقف تحليلاً موضوعياً واعادة النظر في مجموع السياسة السابقة ، خطت القيادة الشيوعية العراقية خطوة جديدة في مضمار ايديولوجيا « المسألة القومية » . لقد ماتت تعاليم عهد « الآفاق الجديدة » (١٩٥٦) عن القومية العربية ، وأخذ القادة الشيوعيون يؤكدون في افتتاحية صحيفة الحزب الرسمية « اتحاد الشعب » على الطابع « المتعدد القوميات » للجمهورية العراقية الخالدة. فالى جانب «القوميتين الكبيرتين» العربية والكردية ، أصبح العراق يضم عدداً من « القوميات الاخرى » : الفرس والتركمان ، والآشوريين والكلدان والأرمن ، فارتفعت بذلك بعض التشكيلات الدينية — السلالية (كالآشوريين والكلدان) الى مصاف تشكيلات قومية ... وكان معنى ذلك

* — ينقل بيار روسي رأي بعض المراقبين في أن حزب داود صايغ قد أوجده قاسم مع موافقة بعض الشركات الدولية الكبرى لاسيا شركة اونيلفر Unilever وهي أكبر شركة عالمية للزيوت النباتية .

دفع العراق الى أبعد ما يمكن عن حظيرة العروبة ، كي يحقق التصنيع والتنمية والديمقراطية والنضال ضد الاستعمار !؟ ..

لم يتمكن « العراق التقدمي » و « الغني بالبترول » من السير في طريق « تصنيع البلاد » ، أو في طريق « التحويلات الاجتماعية الكبرى » . اما « الديمقراطية الشعبية » فقد تحوّلت الى قيادة فردية وانتهازية . وفي آذار ١٩٦١ ، عقد عزيز الحاج ، في المجلة الأممية الجديدة الصادرة في براغ ، مقالاً هاجم فيه ، باسم حزبه ، سياسة « تعطيل وتخريب الاصلاح الزراعي » و «قتل الفلاحين» «وإلغاء الحريات» . والحال ، إن هذه السياسة جزء من كل ، انها المرحلة الثانية من المخطط الاستعماري ضد المد الثوري الوحدوي : لقد عارض الحزب الشيوعي العراقي الوحدة باسم الديمقراطية ، فخسر العراق الوحدة والديمقراطية معاً . بينما تحول « النضال ضد الاستعمار » الى صراخ ثوري في اذاعة بغداد والصحف القاسمية ، والى لعبة خطرة في الكويت وسورية : السياسة ليست نوايا ، انها علاقات موضوعية . «٨»

في مصر ، عاد الانقسام الى صفوف الحركة الشيوعية ، على أثر تحول قيادة الحزب عن الخط الوحدوي في ايلول ١٩٥٨ . فقد ظلت أقلية نشيطة تؤيد هذا الخط وتعتبره ملازماً لاستمرار المد الثوري المناهض للرجعية والاستعمار في المنطقة العربية . وقد انتقدت مجلة الغد (حسن فؤاد) بشدة مسلك الرفاق السوريين والعراقيين قبل إغلاقها . وفي تشرين الأول ١٩٥٩ ،

مثل أمام محكمة أمن الدولة في الاسكندرية ٦٤ من مسؤولي الحزب الشيوعي المصري ، ثم ٤٨ من المنشقين عن القيادة والقائلين بالانضمام الى الاتحاد القومي .

واستمرّ الانقسام والجدال بين الشيوعيين المصريين في معسكرات الاعتقال .

«ب» الحركة الشيوعيـــة في المشرق العربي بين عام ١٩٦١ وعـام ١٩٦٣ :

موقف الحزب الشيوعي السوري من قوانين يوليو ١٩٦١ . أزمـة المـراج . « الانفصال. «الناصرية في جملة الاستعمار الجـديد» . ثورة ٨ آذار . — الحركة الشيوعية في مصر والعراق . — الخلاصة. تدهور قوى الحزب الشيوعي السوري . آراء بعض المحافل الشيوعية في العالم .

أكمل المؤتمر « الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقد في تشرين الأول ١٩٦١ ، عملية نزع الستالينية . ودخل الخلاف الصيني السوفياتي في طور التأزم. وشرعت فرنسا تبتعد عن الولايات المتحدة . وتفاقمت أزمة النظام الاستعماري العالمي بينما بلغت الثورة القومية أبعاداً جديدة . وأصبح الوطن العربي يحتل مركز الصدارة في أحداث العالم .

خطت الثورة الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة خطوة

عظيمة الى الأمام في تموز ١٩٦١ ، أملتها متطلبات المرحـــلة الجديدة من التنمية الاقتصادية وضرورة حسم مشكلة القيـادة الاقتصادية للمجتمع حسماً كاملاً ونهائياً . جاءت هـذه الخطوة انعطافاً جذرياً نحو اقتلاع الرأسماليـة وسداً منيعاً في وجـه تسرّب الاستعمار الجديد: تأميم الرأسمال المصرفي وشركات التأمين، تأميم الرأسمال الصناعي (بنسب مختلفة في مصر وسورية)، فرض نظام الضرائب التصاعدية،توسيع الاصلاح الزراعي في مصر...

لم تتخذ الهيئـات المسؤولة في الحزب الشيوعي السوري — اللبناني (اللجنة المركزية ، المكتب السياسي) أي قرار بشأن القوانين الجديدة ، اثر صدورها . واكتفت باسلوب ملتوٍ في إعطاء حكمها ، بواسطة « مراسلنا السياسي في دمشق » . فقد نشرت صحيفة الاخبار البيروتية بتاريخ ٣٠/٧/ و ٦/٨/١٩٦١ مقالاً للمراسل ، اعترف فيه «بأهمية» التدابير والقوانين الجديدة، ثم عرض « الاسباب القابعة وراءها » ، وهي تلبية متطلبـات خطة التنمية والتوسع في افريقيا ، الوفاء باعباء القروض المختلفة، تقوية الطابع الاحتكاري للاقتصاد ، « الاجهاز نهائيـاً على الاقتصاد السوري وبلعه كلياً»...أما توسيع الاصلاح الزراعي، فقد انتقده المراسل « من اليسار» داعياً الى موقف اكثر جذرية، طالباً تطبيق تدبير تخفيض الحد الاقصى للملكية الزراعيـة على سوريا أيضاً « ٩ » .

واتخذت النداء من القوانين الجديدة موقفاً يتصف بالاهمال والتهرّب والسلبية والتهكم (٥/٨/٦١) وحملت على الاشتراكية

المصرية وربطت بها...دودة القطن التي فتكت آنذاك بمحصول القطن المصري .

وجاء اعتقال الطاشناق في سورية ضربة لدعاية القواد الشيوعيين الستالينيين الذين صوروا الجمهورية العربية المتحدة على انها قاعدة للاستعمار الأمريكي . فكان من جريدة النداء ان اتهمت السلطات ... بالتستر على السفارات والدول التي تمول الطاشناق !

الا ان الصحف الشيوعية (النداء ، الاخبار) قد تراجعت بعض الشيء عن خطها السابق ، بعد صدور قوانين التأميم واعتقال الطاشناق . واختفت الحملة على الجمهورية العربية المتحدة من عناوين الصفحة الأولى مدة شهرين تقريباً .

وفي ٢٢ ايلول ، مع استفحال ازمة الحكم في الاقليم السوري وظهور الخلاف مع عبد الحميد السراج حول قضية سيادة القانون، عادت سورية لتحتل الصفحة الأولى من جريدة النداء . فماذا كان موقف الجريدة من الأزمة ؟

فتحت النداء نيرانها على... « التحكم المصري» وعلى «التأميم التضليلي » (٩/٢٢) ، وكتبت تقول « ان سياسة التمصير هي المشكلة » (٩/٢٤) ، وان « الشعب السوري الناقم والمتحفز يناضل لانهاء حكم السيطرة المصرية ولاعادة النظر في الوحدة من الاساس » ، ودعت الى «اقامة جبهة وطنية ضد الحكم الناصري» وحملت على « الغزو المصري » (٩/٢٧) ، مؤكدة « أن قضية

السراج مظهر معبر عن تمصير سوريا » ، وان « الشعب السوري يقاتل الطغيان المصري والنقطة الرابعة الاميركية وعدة نقاط لالمانيا الغربية » .

لم يكن عداء القيادة الشيوعية منصباً على « حكم المباحث » بل على الوحدة « من أساسها » : طرحت شعار «تحرير سوريا»، وانفلتت ضد قوانين تموز ، متناسية « الجانب الايجابي » الذي اعترفت به قبل شهر ونصف .

نشرت الأخبار في ١٩٦١/١٠/١ بياناً ، قالت ان الحزب وزعه في المدن السورية قبل « الانتفاضة » ، جاء فيه ان « الاشتراكية الناصرية» هي استثمار مزدوج، وان «الدكتاتورية الناصرية جهاز طبقي تستخدمه البرجوازية المصرية ليس ضد الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وحسب وانما كذلك ضد كل الشعب السوري بما فيه اصحاب المؤسسات الصناعية والتجار ورجال الأعمال والمال » . ثم دعا الى « تحرير سوريا من التمصير والسيطرة المصرية » واقامة حكم « جبهة وطنية » تضم « اليمين واليسار » .

وهللت النداء للانفصال ولبيان حكومة الكزبري. وقالت ان « مظاهرات شعبية تعم مناطق سوريا بأسرها تهتف بحياة الشعب والجيش اللذين قضيا على الطغيان والدكتاتورية»،وتجاهلت النضال الدامي الذي خاضته الجماهير الكادحة في حلب ودوما ودير الزور وغيرها ضد الحدث الانفصالي .ونشرت بيان الحزب الشيوعي السوري « ضد الاستعمار والتحكم الفرعوني » .

وألقى خالد بكداش ، أمام المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، خطاباً أشاد فيه «بانتصار الشعب السوري» و « بصحة مواقف الحزب الشيوعي » و «بمغزى اعتراف الاتحاد السوفياتي بالجمهورية العربية السورية » ، ولكنه قال ، في لفتة من خطابه ، « ان الشعب السوري يرغب في عودة العلاقات بين سوريا ومصر، كما كانت قبل الوحدة ، اي علاقة صداقة وتضامن أخوي في النضال ضد الاستعمار ، دون التدخل في الشؤون الداخلية » . فهل عادت مصر قوة معادية للاستعمار « كما كانت قبل الوحدة » ؟؟

إلا ان تأكيد القيادة الشيوعية السورية للحدث الانفصالي وللوضع الانفصالي لم يفتر ، رغم التصريحات المتكررة التي أدلى بها حكام سورية ضد الشيوعية .

وحين قامت معركة إلغاء التأميم ، أعلنت القيادة الشيوعية تأييدها لإلغاء تأميم الرأسمال الصناعي . وأدلى خالد بكداش بتصريح لجريدة اونيتا ، لسان حال الحزب الشيوعي الايطالي ، مسخ فيه مشكلة التأميم على النحو التالي :

« للحكم على أي تأميم ، ينبغي وضع السؤال التالي: في مصلحة مَنْ يجري هذا التأميم ؟... — لمصلحة الجيل البرجوازي الجديد في مصر الذي نشأ بعد ١٩٥٢ ، ضد فئات أخرى من برجوازية مصر وضد برجوازية سوريا ...» ، ضارباً عرض الحائط بمشكلة الانماء الاقتصادي في البلدان المتخلفة ودوره في اقتلاع علاقات العصر الامبريالي ، متجاهلاً أن التأميم الذي يشمل ٨٠٪ من

وسائل الانتاج الصناعي هو بمثابة تحول نوعي في تاريخ علاقات الانتاج الاجتماعية .

وأضاف خالد بكداش في تصريحه أن التأميم في الجمهورية العربية المتحدة « لا يمت للاشتراكية بصلة » . وبما أنه أراد التوفيق بين الماء والنار ، أردف قائلاً :

« لكن في سورية اليوم اتجاه قومي ، تؤيده أوساط أوسع فأوسع (؟) من البرجوازية الوطنية نفسها ، يقول بأن تأميم البنوك وشركات التأمين وبعض الخدمات العامة يستطيع أن يعود بفوائد كبرى على اقتصاد البلاد وفيه مصلحة البرجوازية الوطنية نفسها » .

فما زال بكداش ورفاقه حريصين على صداقة « البرجوازية الوطنية » ، متمسكين بمبدأ عدم خروج سورية من « اطار علاقات الانتاج الرأسمالية» ، ومن « اطار مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي » (على حد ما جاء في مقال كتبه بكداش قبل عامين في مجلة « قضايا السلم والاشتراكية ») .

بلغ الصراع أشده بين الثورة والثورة المضادة في المشرق العربي (محاولة القوميين السوريين في لبنان ، الاجتماع السوري – العراقي في الرطبة) . وتصوّرت قوى الردة الانفصالية أنها أجهضت النهوض الثوري في أواخر آذار وأوائل نيسان ١٩٦٢* . ولكن المد الثوري ، عاد على أوسع نطاق بانتصار الثورة

---

* – بيار روسّي يربط هذه التطورات بمشروع الهلال الخصيب . راجع الملحق «٨» .

الجزائرية وترسّخ اتجاهها العربي والاشتراكي ، وبقيـام الثورة اليمنية في ٢٦ أيلول ١٩٦٢ .

في سوريـة ولبنان ، عزّزت الصحف الشيوعية حملتها على الناصرية، في فترة الانفصال نصف – التقدمي (نيسان ١٩٦٢ – آذار ١٩٦٣) . ونسي خالد بكداش دعوته الى اعادة العلاقات بين سورية ومصر الى ما كانت عليه قبل قيام الوحدة. واضطلع الكتاب الشيوعيون وانصاف الشيوعيين في صحف دمشق وحمص وحماه بنصف أعباء الحملة على الناصرية . وصاغ الفريق عفيف البزرة نظريـة « الناصرية في جملة الاستعمار الجديد » . واستلم الحزب الشيوعي السوري لأكرم الحوراني ، الذي كان الحزب في أوائل ١٩٥٩ قـد اعتبره عميلاً أمريكياً والمسؤول الأول عن حملة محاربة الشيوعية .

وبالرغم من ان الحزب الشيوعي السوري تمتع بامكانيـات دعائية لم تتوافر له في أي وقت مضى، إذ كانت غالبية الصحف مفتوحة لأقلامه ، فقد بلغت عزلته عن الجماهير أشدها : هذا ما تبين من نتائج انتخابات نقابات العمال في حمص ودمشق وحلب ، حيث مُني حلف الشيوعيين والرجعيين والانتهازيين بهزيمة ماحقة على يد العمال الوحدويين .

وحين قامت ثورة اليمن في ٢٦ ايلول ، قرّر بعض الملفقين « الماركسيين » السوريين أن الثورة مؤامرة امريكية ضد الامام البدر صديق السوفيات . وما ان اعترف الاتحـاد السوفياتي بالجمهورية الجديدة حتى صححوا موقفهم . ولكن ذلك لم يمنعهم

ابداً من ملاحقة « الناصرية » الى اليمن والجزائر .

ولما قامت ثورة الثـامن من آذار ١٩٦٣ في سورية ، حملت الصحف الشيوعية في بيروت على الثورة . ثم سعت الى تسعـير الخلاف بين البعث والناصرية ، وكتبت في شهر ايار ١٩٦٣ تعلن تأييدها الحماسي لـ « نضال دمشق الديموقراطية ضد النـاصرية الهتلرية » . وبعد شهرين ، قـالت ان « الحلف المركزي » كان قد درس ، قبل شهرين ، موضوع الوحدة الثـلاثية (التي تقرر انشاؤها في ١٧ نيسان) ، وقرّر « تأييد الوحدة الثنائية بـين سورية والعراق » ، ناسية ما كتبته آنذاك عن « نضال دمشق الديموقراطية ضد الناصرية الهتلرية حليفة الاستعمار » !! ..

في العراق ، بعد المد الاحمر ، عادت الميـاه الى مجاريها : سياسة المحاور في المشرق العربي . الا ان قيادة الحزب الشيوعي ثابرت على موقفها الاساسي .

وساورت قواعد الحزب الشكوك حول طبيعة الحكم القاسمي وشخص الزعيم الاوحد: هل هو وطني ؟ أم رجعي ؟ يبـدو أن القيادة الشيوعية «حلّت» المسألة على النحو التالي : قاسم وطني في السياسة الخارجية ورجعي في السياسة الداخلية ! وعلى هـذا الاساس اتّخذت قراراً بوجوب الدفـاع عن الحكم القاسمي ضد اي ثورة يواجهها . ونفذت القرار في يوم ٨ شباط ١٩٦٣. الخطأ في نقطة الانطلاق ، والنتيجة محتومة .

كان قاسم وطنياً .. التقى بخط بريطانيا الثـابت منذ

عهد بالمرستون حتى عهد ماكميلان . هذا الجانب الثابت تعامى
عنه قادة الحزب الشيوعي العراقي على نحو ثابت. خطأ لا يُغتفر:
جهل في التاريخ وجهلٌ للوقائع اليومية الراهنة ، تلك الوقائع
التي نبّه اليها المخلصون وسجّلها المراقبون .

أما في مصر ، فقد جاءت قرارات تموز ١٩٦١ وأحداث
٢٨ ايلول لتقوي الجناح الوحدوي في صفوف الشيوعيين . فقد
أدرك عدد متزايد من الشيوعيين المصريين طبيعة الحدثين
وصلتها ، ودعا الى حل الحزب والانضمام الى الاتحاد الاشتراكي
العربي . وتعزّز هذا الاتجاه مع تلاحق الاحداث الثورية في
الوطن العربي وتفاقم الصراع بين الثورة والثورة — المضادة ،
بينما شرعت السلطات تخلي سبيل الشيوعيين تدريجياً وتعيدهم الى
مراكزهم في الصحف ودور النشر .

إن تخلي الاحزاب الشيوعية الستالينية عن « الآفاق
الجديدة » وتحولها ضد القوى الثورية العربية في النصف الثاني
من العام ١٩٥٨، قد فتحا دوراً جديداً في تاريخ هذه الأحزاب:
دور التداعي والتفكّك .

حارب الحزب الشيوعي السوري «الوحدة» باسم «الاتحاد».
ولو كان الحزب جاداً وصادقاً في رفعه شعار « الاتحاد » حتى
بالشكل الذي أعلنه في ١٩٥٨/١/١٥ ، لتمسّك بهذا الشعار إبان
الانفصال ، ولتغيّر مصيره في كثير أو قليل .

الا ان خالد بكداش ورفاقه لم يكونوا يكرهون الوحدة
بكل اشكالها وحسب ، بل كان تقديرهم للموقف خاطئاً تماماً .

هل تصوروا فعلاً ان جماهير الشعب السوري معادية للوحدة؟
هل انتهوا الى تصديق اكذوبتهم بفعل التكرار ؟ هذا أمر
مستبعد . ولكنهم تصوروا ان الوحدة ماتت ودُفنت ولن
تعود !

وكان ذلك خطأً يفوق جميع اخطاء الحزب السابقة، خطأً
أدى الى استفحال تداعي قوى الحزب بين جماهير العمال
والفلاحين ، كما تبين في انتخابات نقابات العمال في المدن الصناعية
الثلاث التي درج الحزب على اعتبارها مراكزه الاساسية .

يعلّل البعض هذه النهاية التي صار اليها الحزب بهرب زعمائه
في فترة الوحدة وتخلّيهم عن القواعد والكوادر المحلية. ويعلّلها
البعض بالشكوك التي تراود الحزبيين حول كيفية اعتقال فرج الله
الحلو (١٠) .

أسباب وجيهة . ولكن الأهم منها انفصال الحزب عن
الشعب وقضيته ، عن الوحدة والاشتراكية . لقد اراد الحزب
الشيوعي السوري نفسه قائداً للنضال « الديمقراطي » ضد
«الدكتاتورية» . فما كان الا أداة من أدوات الرجعية في معركتها
ضد التحويل الاجتماعي والقومي . في الصراع الضاري بين الثورة
والثورة المضادة ، وقف مع الثورة المضادة . وقف في الصف
المعادي لحركة الجماهير في الوقت الذي بلغت فيه حركة الجماهير
مداها الأوسع والأعمق بنتيجة الوحدة (والاصلاح الزراعي

والتأميم) والحدث الانفصالي .

أما في مصر ، فان انعطاف ايلول ١٩٥٨ قد كلّف الحركة الشيوعية وحـــدة صفوفها ، التي لم تكن تحققت ، بعد انقسام مزمن ، الا على اساس تدعيم الثورة القومية والاجتماعية .

إن اختلاف موقف الشيوعيين المصريين عن مواقف الحزبين الشيوعيين السوري والعراقي يعود الى عوامل كثيرة . فالانقسام التقليدي للحركة الشيوعية في مصر قد ترك مجالاً للتفكير المستقل عند الافراد . والعطف القـــديم على الضباط الاحرار او قسم منهم (خاصة في صفوف حَدِتُو) يشكل حاجزاً مانعاً امـــام نوع الاتهامات التي يرسلها الرفاق السوريون والعراقيون . كما أن المستوى الفكري للشيوعيين المصريين يتعارض مع اصدار الاحكام السطحية والاعتباطية (١١) .

إن هذا التباين في ردود فعل الشيوعيين وتنظيماتهم في الوطن العربي تجاه الأحداث الكبرى يساعدنا على وضع حد للميل الذائع الى تفسير مواقف الشيوعيين بتوجيهات «عصا موسكو» .

صحيح ان موقف موسكو من القاهرة لم يعد بعد تموز ١٩٥٨ كما كان في فترة السويس . الا ان خروشوف قد أعرب في تمـوز ١٩٥٩ عن أمله في لقاء القاهرة وبغداد ضد الاستعمار . ولم ينقطع العون السوفياتي الاقتصادي والعسكري عن الجمهورية العربيـة المتحـــدة ..

من الواضح ان بكداش واقرانه قد تخطوا كثيراً الانتقادات السوفياتية ، وقد أعطوا في شتى المـواضيع تقييماً يختلف عن

تقييم بعض المصادر الشيوعية في العالم .

فقد رأينا أحد أقطاب الشيوعيين الصومال يعلن ، في مجلة قضايا السلم والاشتراكية — المجلة الماركسية الدولية — في اواخر عام ١٩٦٠ ، ان الدعوة لإقامة صداقة وطيدة مـــع الجمهورية العربية المتحدة هي في رأس المطالب الوطنية للشعب الصومـــالي والشيوعيين الصومال . كما رأينا في المجلة نفسها احد قادة الحزب الشيوعي النمسوي ، فريدل فورنبرغ ، يحدد موقفاً من التأميم ، يختلف جذرياً عن الموقف الذي اتخذته القيادة الشيوعية السورية بعـــد قليل من قوانين التأميم في المتحدة . وقد جـــاء مؤتمر الاقتصاديين الماركسيين المنعقد في مـــوسكو في صيف ١٩٦٢ ليضع التأميم في مركزه الصحيح كمحور عمليـــة التحويل الاجتماعي ... وانتهى الأمر بمجلة الحزب الشيوعي الايطـــالي ، ريناشيتا ، الى القول في اواخر ١٩٦٣ إن الثورة الاجتماعيـــة في الشرق العربي تتمثل بالدرجة الأولى في الناصرية ...

«ج» الحزب الشيوعي الجزائري أمام الثورة الجزائرية (١٩٥٤ – ١٩٦٢) .

موقف الحزبين الشيوعيين الفرنسي والجزائري من « حوادث الجزائر ». ادانة « الأعمال الفردية». موقف الانتظار وتمرد منظمة اوراس. محاولة الضغط على جبهة التحرير . مقال بوهالي في مجلة كومونست . موقف الحزب من أزمة تموز ١٩٦٢ .

جاءت الثورة الجزائرية في أول نوفمبر ١٩٥٤ مفاجأة كاملة للشيوعيين في الجزائر وفي فرنسا (ولجميع المراقبين) .

ونشرت جريدة **الاومانيته** بتاريخ ١٩٥٤/١١/٣ بياناً صادراً عن المكتب السياسي للحزب الشيوعي **الجزائري** دعا فيه الى « البحث عن حل ديمقراطي يحترم مصالح جميع سكان الجزائر دونما تمييز في العرق أو الدين ، ويأخذ بعين الاعتبار مصالح فرنسا » . بينما أصدرت حركة انتصار الحريات الديمقراطية في اليوم نفسه بياناً طالبت فيه بـ « حق الجزائر في تقرير مصيرها

طبقاً لميثاق الامم المتحدة » ، الأمر الذي أدى الى حل الحركة من قبل السلطة الاستعمارية (١٩٥٤/١١/٥) ، في حين أن الحزب الشيوعي الجزائري ظل حزباً قانونياً مشروعاً في عهد الثورة الوطنية المسلحة والقمع الاستعماري الوحشي (حتى ١٩٥٥/٩/١٣) .

في ١٩٥٤/١١/٩ ، نشر الحزب الشيوعي الفرنسي بياناً عن « حوادث الجزائر » ، ألقى فيه مسؤولية « الحوادث » على أعمال الحكومة الفرنسية ، ودعا الى « الاعتراف بحق الشعب الجزائري وبمطالبته بحريته» ، متجاهلاً كلمة الاستقلال ومعارضاً ما أسماه « اللجوء الى أعمال فردية قد تلعب لعبة الأشرار المستعمرين ، هذا اذا لم يكونوا هم الذين دبّروها » !

أمّا قيادة الحزب الشيوعي الجزائري فقد أدانت هي أيضاً « الأعمال الارهابية » ووقفت من الثورة موقف « الانتظار » .

كانت هذه السياسة تتفق مع عواطف غالبية العناصر الاوروبية في الحزب . أما المناضلون الثوريون العرب فقد كان لهم موقف آخر . وهذا ما تبين من تجربة فرع الحزب الشيوعي في منطقة أوراس .

فقد جاء مندوبون من هذه المنطقة الى مدينة الجزائر يطلبون التوجيهات من قيادة الحزب ، ناقلين اليها رغبة الاعضاء في الالتحاق بصفوف المجاهدين . إلا أن القيادة المركزية قابلتهم بالرفض ، رغم أن الاوراسيين بذلوا أربع محاولات لاقناعها بتغيير رأيها . وأدى ذلك الى خروج الشيوعيين الاوراسيين جماعياً من صفوف الحزب والتحاقهم بالثورة . وقد ثبتت جبهة

التحرير الجزائرية هـــذه الحادثة في الوثيقة الصادرة عن مؤتمر الصمام «١٢» ، كما عرضها بالتفصيل عمار أوزيغان في كتابـه « الجهاد الأفضل »* .

وبذلك انتقلت أزمة الحزب الشيوعي الجزائري الى مرحلة أعلى ، واتسع الانشقاق يوماً بعد يوم . حتى أنـه شمل مناضلين شيوعيين اوروبيين من العمال والمثقفين، انضموا الى الثورة بصورة إفرادية. واستمرت عملية تداعي قوى الحزب الشيوعي الجزائري وعملية امتصاص عناصره الثورية من قبل جبهة التحرير .

ومن جملة الأسباب الرئيسية التي أدّت الى تضاؤل قوى الحزب الشيوعي الجزائري صلته التقليديـــة بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي لم يتخذ من قضية الجزائر موقفاً ثورياً مبدئياً .

ففي أواخر عام ١٩٥٥ ، قـامت في فرنسا حملة شعبية ضد الحرب الاستعمارية وتوسّعت يوماً بعد يوم . توالت المظاهرات في باريس وغرنوبل وروان ، وازدادت حوادث التمرّد بين الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية . وأسفرت الانتخابات العامـة في ٥٦/١/٢ عن نجاح القوى اليسارية التي خاضت المعركة على أساس برنامج معاد للحرب الاستعمارية .

وبدلاً من أن ينهج الحزب الشيوعي الفرنسي سياسة مبدئية ثورية تضمن استمرار المد الشعبي ونموه ونجاحه ، فقـد استنكر مظاهرات غرنوبل وغيرها ووصفها بانها مواقف يسارية متطرفة

* – منشورات دار الطليعة – بيروت ١٩٦٣ .

وأعمال فردية وفوضوية، ثم وافق على منح السلطات الاستثنائية لحكومـــة غي موليه بتاريخ ٥٦/٣/١٢ ، الأمر الذي آل الى انحسار المد الشعبي الفرنسي المعادي للحرب (١٩٥٦ – ١٩٥٧).

والجدير بالملاحظة ان هذه المواقف المنسجمة مـــع سياسة الحزب التقليدية ، جاءت تتفق مع الاتجاه اليميني الذي انطوى عليه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي (شباط ١٩٥٦)، ونقصد : سياسة التقرب من الاشتراكيين اليمينيين ، والتجاهـل الصريح لوجود حرب في الجزائر في خطاب سوسلوف أمام المؤتمر المذكور .

وبعد أن تأكدت القيادة الشيوعية الجزائريـة من أن الثورة القائمة ليست أعمالاً فردية أو تمرداً فوضوياً مكتوباً له الفشل ، وتحت ضغط العناصر الثورية في قواعد الحزب ، عدلت عـن سياسة « الانتظار » ، ولكنها رفضت حل الحزب والانضمام الى جبهة التحرير (كما فعلت حركة انتصار الحريات الديمقراطية) ، بل عمدت الى تأسيس جيش متميز عن جيش التحرير، لتتفاوض على أساسه مع جبهة التحرير الوطني من الند للند .

إلا أن عـدد الذين استطاع الحزب أن يجندهم للقتال المسلح كان أقـل بكثير من الذين جندهم في الفرق الدولية التي حاربت مع الجمهوريين الاسبانيين قبل عشرين عاماً . وخاضعت فرقـة المجاهـدين الشيوعيين الحرب الوطنية في منطقة اوارسنيس ، بقيادة المرشح هنري مايو ، ومات أفرادها ببطولة في نيسان – حزيران ١٩٥٦ ، على حد ما جاء في كتاب عمار اوزيغان .

وقد ظلت قيادة الحزب الشيوعي الجزائري وقيادتا الحزبين التونسي والمغربي بعيدة عن فكرة « الوحدة العربية » و « الأمة العربية » التي اكتشفها الرفاق المشرقيون ، وظلت أسيرة لتعاليم الأشقاء الفرنسيين عن « الأمة الجزائرية » التي قرّر توريز في ٥٧/٢/١٥ انها تكوّنت واستكملت نشوءها. واكتفت الاحزاب المغربية الثلاثة بتأييد مبدأ « وحدة افريقيا الشمالية » ، وذلك في اجتماع عقده في نوفمبر ١٩٥٧ الامناء العامون الثلاثة العربي بوهالي وعلي يعته ومحمد حرمل .

وعلى كل حال ، فقد كان هذا الموقف تقدماً محسوساً بالنسبة للمفاهيم السابقة ، حين كانت ايديولوجية توريز – فيكس وأصداؤها المغربية تؤكد وجود ثلاثة كيانات قومية مستقلة في المغرب وان الاستعمار هو الذي يسعى الى طمس هذه الكيانات واغراقها في مفهوم جغرافي غامض « افريقيا الشمالية » .

ونسفت الثورة نظرية الأمة الجزائرية « المزيج الموفق من الحضارتين الشرقية والغربية » ، اذ انضم عدد كبير من العمال الاوروبيين الى المنظمات الارهابية الاستعمارية. ومع ذلك لم يجد العربي بوهالي حاجة لاعادة النظر في المفاهيم والآراء . بل واصل القاء الدروس على المجاهدين ... من موسكو .

فقد نشر في مجلة كومونست (نوفمبر ١٩٦٠) مقالاً انتقد فيه جبهة التحرير الجزائرية ، على ما اسماه إهمالها العمل مع الأقلية الأوروبية . ولم تكن جبهة التحرير قد اهملت هذا

الميدان بشكل من الأشكال ، – وهذا ما يتبين من الوثيقة الصادرة عن مؤتمر الصمام (آب ١٩٥٦) – بل هي احرزت في هذا المضمار أيضاً نجاحات جدية تجلت في المواقف والاعمال المشرّفة التي قام بها عدد من الاوروبين ، بينهم أعضاء أو اعضاء سابقون في الحزب الشيوعي الجزائري (كالشهيد موريس لابان، وهو فرنسي مستعرب ، والشهيد فرنان ايفتون عضو الحزب الشيوعي الذي حاول نسف معمل الغاز وأعدم بالمقصلة في شباط ١٩٥٧) . ولقد كانت خطة جبهة التحرير دليلاً ساطعاً على نضجها السياسي وتغلبها على الاتجاهات الضيقة او الديماغوجية عند بعض الزعماء التقليديين . ولم تستطع جبهة التحرير ان تحقق ما حققته من نجاح في العمل مع الاوروبيين وفي عملها الثوري بشكل عام ، الا لأنها بنت خطتها على أساس واقعي وتحليل صادق وصريح للوضع الجزائري ، مبتعدة عن « الانتهازية الاوروبية » للحزب الشيوعي الجزائري .

نقطة ثانية ركز القائد الشيوعي انتقاده عليها هي قضية « العمل غير الجماعي » ، حيث قال :

إن الشيوعيين يؤيدون العمل الجماعي الذي يعتبرونه أنجع بألف مرة ، ولا يولّد على الصعيد السياسي من نتائج سلبية ما تولده بعض الاعمال العسكرية غير الموجهة كما يجب ، في المدن، مثل إلقاء القنابل دونما تبصر ودونما غاية » .

هذا الكلام مفاده شجب احد أشكال النضال في حرب التحرير الجزائرية ، هو الإرهاب في المدن . وقد كان هذا

الأرهـــاب شكلا اساسياً في الحرب ، باعتباره رداً ثأرياً على الإرهاب الاستعماري وسلاحاً فعالاً في خلق حالة عامة من عدم الأمن . ومن الواضح ان احتمال وقوع اخطاء في هـذا الميدان لا يؤثر على صحة المبدأ بشكل عام .

إن هذا الموقف من القيادة الشيوعية الجزائرية ازاء الارهاب في المدن ، يتفق مع موقف القيادة الشيوعيـــة الفرنسية حيال الأعمال الثورية التي قام بها الشباب الطليعيون في فرنسا ضـــد الحرب الاستعمارية . فقد قابلت هذه القيادة أعمـــال التمرد والعصيان على الخدمة العسكرية وأعمال شبكات الدعم (شبكات فرانسيس جانسون) بالإهمال والتجاهل احياناً وبالعـداء والاستنكار أحياناً اخرى .

وفي صيف ١٩٦٢ ، حين نشب النزاع بين اتجـاه بن بلا — خيضر — بومدين وبين الحكومة الموقتة ، أعلن الحزب الشيوعي الجزائري ان المكتب السياسي المؤلف برئاسة أحمد بن بلا قيادة مقبولة، يوافق على اعطائها جميع السلطات نظراً لضرورة تمركز السلطة في الفترة التي تجتازها الجزائر . الا ان الحزب لم يلبث أن عدّل موقفه بعد عودة أمينه العام من موسكو الى باريس، حيث أدلى بتصريح انتقد فيه بشدة « استبعاد الهيئات الوطنيـــة والشعبية الاخرى » ...

أما في المشرق ، فقد شنت الصحف الشيوعية في بيروت ، منذ بداية الازمة ، حملة قوية على بن بلا و « الناصرية » .

الفصل الخامس

دروس التجربة

آ – الخط البياني وظاهرة التداعي .

الاحزاب الشيوعية تكاد تكون أقدم التنظيمات الحزبية في الوطن العربي (تلك هي الحال على وجه التحديد بالنسبة لسورية ولبنان) . ومع ذلك فان رصيدها الحالي ليس كبيراً. بل يبدو انه أضعف مما كان في أي وقت سابق :

في الجزائر ، بعد انطلاقة أولى ، أخذ الحزب الشيوعي يتقلص وينعزل عن الجماهير التي التفّت حول حزب الشعب الجزائري ثم حول جبهة التحرير الوطني .

في مصر ، بلغت الحركة الشيوعية المبعثرة قوة حقيقية في أعوام ١٩٤٦ – ١٩٤٧ و ١٩٥١ و ١٩٥٦ – ١٩٥٨ . الا أنها أصيبت بنكسات عديدة كانت أخطرها نكسة مابعد ١٩٥٨.

في لبنان بلغ الحزب الشيوعي القمة في عام ١٩٤٧،واستطاع أن يحدث « ضجة كبيرة » في فترة ١٩٥٠ – ١٩٥٢ ، ونما من جديد في فترة ١٩٥٦ – ١٩٥٨ ، الى أن عزل نفسه تماماً في عام ١٩٥٩ .

في سورية ، بلغ الحزب الشيوعي ذروة القوة العددية في عام ١٩٤٧ ، ثم في عام ١٩٥٦ . وأصيب في عهد الوحدة بنكسة

كبيرة ظهرت بوضوح زمن الانفصال ، بالرغم من ادّعائه الذي لا يفتر بان «التاريخ قد أثبت صحة آرائه في موضوع الوحدة» .

في العراق ، أحرز الحزب الشيوعي قوة شعبية حقيقية في ظروف النضال القاسي ضد حكم نوري السعيد في عام ١٩٤٧ وفترة ١٩٥٦ — ١٥٩٨ ، وبلغ المد الشيوعي أوجه بعد ثورة ١٤ تموز ، ثم توقف ، وسقط الحزب في المعركة المسلّحة مع ثورة ٨ شباط . (١).

يمكن القول اذن إن الأحزاب الشيوعية في العالم العربي هي اليوم في أسفل الخط البياني لتطورها المعقّد الطويل . وكأن تداعيها يتخذ قيمة « قانون موضوعي » .

تلك ظاهرة سياسية بارزة في تاريخ النضال العربي المتعاظم . والاشتراكية العلمية لا يمكن أن تعلّل هذه الظاهرة بعامل الصدفة او الحظ العاثر . فهل يكون السبب القمع الذي أصاب الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية ؟ — إن ما أصاب الحزب الشيوعي السوري في فترات معينة من تاريخه هو أقل مما أصاب البلاشفة الروس في العهد القيصري او الشيوعيين الصينيين في عهد تشانغ كاي شك . ومع ذلك ، فقد استطاع الشيوعيون الروس والشيوعيون الصينيون أن ينجزوا أعظم ثورتين اجتماعيتين وأن يحكموا أكبر دولتين اشتراكيتين .

إن الشيوعيين الاندونيسيين والهنود والايطاليين والفرنسيين واليونان لم يصلوا الى الحكم ، الا انهم غرسوا جذوراً عميقة في بلادهم وحققوا ارتباطاً وثيقاً مع الجماهير البروليتارية وشبه

البروليتارية .

تلك ليست الحال بالنسبة للاحزاب الشيوعية في العالم العربي.

إن عزلة هذه الأحزاب أشبه ما تكون بعزلة الأحزاب الشيوعية في الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية . مع أن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي يختلف اختلافاً كاملاً في كلا الحالتين : فالولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية دول امبريالية ، ذات اقتصاد رأسمالي متطور ومزدهر ، وبروليتاريا تسير بحكم وضعها الاقتصادي في ركاب الاشتراكية اليمينية . أما البلاد العربية فتعاني من استثمار مزدوج ، خارجي وداخلي ، يتجلي في الفقر المدقع لعشرات الملايين من الناس .

لقد أوصلت مدافع اوكتوبر تعاليم ماركس ولينين الى كل أقطار الشرق. فما الذي قرّر المصير المتفاوت للاحزاب الشيوعية في تلك الاقطار بعد انقضاء زهاء نصف قرن ؟

دون ان ننفي **كل** اختلاف في الظروف الموضوعية ، لا بد من الاعتراف بان هذه الظروف واحدة ، **من حيث الجوهر** .

ثمة اختلافات (تؤثر باتجاه او آخر) في الظروف الجغرافية والديموقراطية والاجتماعية — الاقتصادية . ولكن الجوهر واحد : نير استعماري — استثماري ثقيل ، نظام اقطاعي او شبه اقطاعي ، تخلف اقتصادي واجتماعي مزمن ، حالة عامة من البؤس والفقر .

لذا وجب علينا ان نبحث عن السبب في العوامل «الذاتية».

إن تداعي الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي يعود ، بصورة

رئيسية الى العوامـــل الذاتية ، اي الى نشاط هـذه الأحزاب و « الاخطاء » الجسيمة التي سقطت فيها : إن موضوعية التاريخ هي موضوعية الممارسة الانسانية .

ب – أسلوب « إعدام الماضي » ونتائجه .

إن اول شيء يلفت النظر هو عدم قيـــام اي نقد ذاتي في تاريخ الحزب الشيوعي السوري مثلاً . لقد أجرت قيادة الحزب انعطافات سياسية وايديولوجية لا حصر لها – انعطافاً بزاويـة قدرها ١٨٠ درجة – ، ومع ذلك فهي لم ترَ من الضروري أن تعمد الى إعادة النظر في السياسة القـديمة ، الى مراجعة التاريخ (النشاط العملي) لاستخلاص دروسه وصياغته نظرياً . بل على العكس تماماً ، فهي في المرحلة الجديدة « تلغي » المرحلة القديمة وتنثر ستاراً كثيفاً من الدخان حولها .

إذا عرضت جريدة النور في ١٩٥٦/٤/١٧ لمحـــة عن تاريخ النضال الوطني في زمن الانتداب الفرنسي ، رأيناها تهاجم بأشد ما يمكن من العنف (والمزاودة) معاهدة ١٩٣٦ ، فتقول إنها كانت مناورة وخدعة وتضليلاً الخ ... ولا تذكر من قريب أو بعيد أن « الخدعة » انطلت على الحزب ، وان صحيفة صوت الشعب دأبت « تضلـّل » الاحزاب البرجوازية ...

وإذا قرر خالد بكداش في ١٩٥٥/١٠/٦ الاعتراف بالكيان القومي العربي الواحد ، رأينـاه يصرخ ويزاود ، فيؤكد توفر

الحياة الاقتصادية المشتركة بين العرب، ويشتم الصهيونيين والقوميين السوريين الذين ينكرون الشمس ... ولا يذكر من قريب أو بعيد ان له كتاباً اسمه « طريق الاستقلال » ، ولا يقول كيف ان « الشمس » ظهرت له فجأة ...

ذلك هو « الاسلوب » الذي تسير عليه القيادة الشيوعية السورية في جميع القضايا بلا استثناء : كل دور يجبُّ ما قبله . الأبيض ينقلب أسود والأسود ينقلب أبيض . الخائن يصبح وطنياً والوطني يصبح خائناً ... دونما تعليل أو تبرير : الماضي لم يكن !

ولعلّ القيادة تعتبر هذا الاسلوب ناجحاً طالما انه لا يؤدي الى رد فعل مباشر وكامل لدى القواعد . ذلك قصر نظر : **فالقواعد تثور في النهاية** ، وقوى الحزب تتبخّر تدريجياً ، هذا أولاً . وثانياً وخاصة : إن اسلوب « اعدام الماضي » يحول دون فهم تطور النضال الوطني ، دون صياغة نظرية الثورة واستراتيجيتها .

وأقل ما يمكن أن يقال بهذا الصدد أن نظرية الثورة واستراتيجيتها مفقودتان تماماً عند القيادات الشيوعية في العالم العربي ، عند هذه القيادات « مبادىء »، « مذهب »، «عقيدة»، وعندها «سياسة» ، «تكتيك» (ألف تكتيك) ، «شعارات». ولكن ليس عندها استراتيجية. عندها **عقيدة** الماركسية اللينينية من جهة ، وعندها **سياسة** الحزب (عدد من الاحزاب) من جهة أخرى . ولكن ليس لديها **نظرية** للثورة العربية. انفصال كامل

بين العمل والنظر . هوة سحيقة بين العقيدة العامة والنشاط العملي . الأمانة للمبادىء تتحوّل الى مذهبية جامدة وفارغة . والمرونة السياسية تتحول الى انتهازية لا حد لها. الجمود العقائدي « يكمّل » التقلبات الخططية و « يعوّض عنها » . والتقلبات الخططية « تكمّل » الجمود العقائدي و « تعوّض عنه » .

بين عام ١٩٠٣ وعام ١٩٢٥ ، صاغ البلاشفة الروس نظرية الثورة الروسية واستراتيجيتها ، تدريجياً ، بالاعتماد على الدليل الماركسي ، وبالارتباط مع الممارسة ، مع التجارب والاخطاء ، وفي صراع مكشوف بين الاتجاهات .

بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٤* وعام ١٩٥٠، صاغ الشيوعيون الصينيون نظرية الثورة الصينية واستراتيجيتها ، تدريجياً ، بالاعتماد على المنهج الماركسي – اللينيني، وبالارتباط مع الممارسة، مع التجارب والاخطاء ، وفي صراع مكشوف بين الاتجاهات .

إن هذا التدرج في العمل والنظر، هذا التدرّج نحو «الحقيقة» (النظرية – العملية) ، سمة بارزة في تطور جميع الاحزاب الماركسية الشعبية الكبرى . ولا نجد أي شيء من هذا القبيل في تطور القيادات الشيوعية الستالينية في الوطن العربي .

لقد كان الدور الأول والثاني والثالث من تاريخ الكومنترن (١٩١٩ – ١٩٣٤) ، الى حد كبير ، دور التلمسات بالنسبة

* – عام المسيرة الكبرى وتسلم ماوتسي تونغ ورفاقه قيادة الحزب والثورة .

لجميع فروع الاممية الشيوعية. وفي عام ١٩٣١، خطا الشيوعيون السوريون واللبنانيون والفلسطينيون خطوة كبيرة في الحقلين النظري والسياسي، بتبنّيهم مبـدأ النضال الوحـدوي – الثوري ... والآن، بعـد مضي ثلاثين عاماً، ليس للمسائل الستراتيجية الكبرى أي حل في ذهن بكداش وأقرانه وصحفهم.

ج – أمة عربية واحدة وثورات قطرية منفصلة .

كيف يفهم خالد بكداش وأقرانه مسألة « الأمة العربية »، « القومية العربية »، « الوحدة العربية » ؟

في عـام ١٩٣٩، بالارتكاز على نظرية ستالين، أنكروا عدداً من مقومات الأمة العربية، وأكدوا مبدأ « الأمـة الجزائرية » و « الأمـة السورية » الخ ... الآخذة في النشوء والتكون .

في عـامي ١٩٥٥ – ١٩٥٦، بالارتكاز على نظرية ستالين أيضاً، أكدوا توفر جميع مقومات الامة في العرب، وقرروا ان العرب يؤلفون من الخليج الى المحيط أمة واحدة تتمتع أيضاً بالحياة الاقتصادية المشتركة، بالتكامل الاقتصادي .

في كلا الحالتين، تجـاوزوا على تعريف ستالين : في المرة الأولى، شدّوا بعض مفـاهيم التعريف – الأرض، التكوين النفسي ... – باتجاه . وفي المرة الثانية، شدّوا بعض مفـاهيم التعريف – التكامل الاقتصادي – باتجاه معاكس .

والحال، إن النظرية التي وضعها ستالين في عام ١٩١٣ هي تكثيف للتاريخ القومي للمجتمعات الاوروبية يَستهدف خدمة

نضال البروليتاريا الاوروبية في فترة مـــا قبل الحرب العالمية الاولى . إن خطأ ستالين يكمن في صيغة « **الاطلاق**» التي اضفاها على تعريفه ونظريته ، الأمر الذي يتعارض جذرياً مع التعريف الجـدلي الهيغلي – الماركسي – اللينيني للقانون ، باعتباره « تثبيتاً » لواقع ديالكتي ، وبالتالي ، صورةً « ضيقة ، ناقصة ، تقريبية » عن هـذا الواقع . إن خطأ الستالينيين يكمن في أنهم تبنوا هذه النظرية دون تمحيص ، وتصوروا أنهـــا « تحتوي » التاريخ **اللاحق** أيضاً . ولما اضطروا الى القبول بمبـدأ وحدة الامة العربية ، قرروا توفر التكامل الاقتصادي في هذه الأمة ، انسجاماً مع النظرية خالقة الواقع ! وواضح إن مفهوم التكامل الاقتصادي لا يعني ، عند ماركس ولينين وستالين ، «تكامل»؟ الثروات الطبيعية الدفينة ، ولا يعني تكاملاً جغرافياً–جيولوجياً غامضاً ، بل هو يعني تكامل **الانتاج** الاقتصادي القـــائم على التوزيع المتكامـــل للعمل على النطاق القومي وتوفر المراكز الاقتصادية المشتركة والسوق القومية . (وهي أمور ظهرت ونمت في **أقطار أوروبا** مع نمو التجارة والصناعة والطبقة البرجوازية : « إن الامة مقولة تاريخية لعصر الرأسمالية الصاعـــدة » ، و« الحركة القومية حركة برجوازية »، و « النضال القومي نضال بين الطبقات البرجوازية ») . إن انتاج القمح والشعير ، والتمر والزيتون ، والقطن والقطن ، والبترول والبترول ، ليس انتاجاً متكاملاً !

إن القوميين البرجوازيين ، البرجوازيين – الصغار ، المثاليين ،

الميتافيزيين ، المشبعين حماساً ونوايا طيبة ، حين يحملون على الماركسية ويصدرون عليها حكم الاعدام ، هم يعيبون عليها كونها تركز على « العامل » الاقتصادي ، و « تربط الامة بالاقتصاد». انهم يريدون امة عربية ، مثالية ، روحية ، جغرافية ، سياسية : لغة ، او لغة وأرض ، او لغة وإيمان وإرادة . لقد جردوا الامة من الدم واللحم والعظم ، فأسقطوا الاقتصاد والطبقـــات ، وأسقطوا التاريخ الواقعي .

وكـــذلك فعل الستالينيون ، ولو على نحو آخر : أسقطوا الاقتصاد والتاريخ الواقعي . لقد أسقطوا العلاقات الاقتصادية **الواقعية** (والاجتماعية والسياسية والسكانية) **لعصر الامبريالية** .

استهوتهم نظرية ستالين في «المسألة القومية»،فنسوا التحليل اللينيني للامبريالية ...

لقد تدفّق الاستعمار الغربي على الدول العربيـــة في عصر الرأسمالية الصناعية والمالية. استفاد من التخلف التاريخي للبنيان الاقتصادي – الاجتماعي ومـــن الضعف السياسي والعسكري للبلاد العربية ، فسلّط عليهـــا احتلاله العسكري وسيطرته السياسية والاقتصادية واستعماره الاسكاني ، وحوّل اقتصاد كل دولة عربيـــة الى اقتصاد كولونيالي « يكمّل » اقتصاد الدولة المستعمِرة (بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ..) فيمدّها بالمـــواد الأولية (القطن ، خامات المعادن ، البترول ...) ويشتري منتوجاتها الصناعية . وبذلك عمّق تسلّطه الامبريالي بتعميقـه

الجذور الاقتصادية للتجزئة العربية : كانت التجزئة تتصل باسلوب الإنتاج الاقطاعي والبدائي (وما يقال عن فواصل البيئة الجغرافية وضعف المواصلات بين الدول العربية .. يدخل في إطار اسلوب الانتاج المذكور) ، فأصبحت تتّصل ، على نحو رئيسي ، بالعلاقات الاقتصادية للعصر الامبريالي . وأخذت البنيات الاقطاعية والقبلية مكانها في اطار هذه العلاقات .

وخاضت الشعوب العربية النضال ضد الاستعمار . وقد شارك الشيوعيون في هذا النضال العام في فترات مختلفة . الا أن عملهم كان مشوباً ببعض النقائص الاساسية وأول هذه النقائص أنهم تجاهلوا الاستعمار **الاسكاني** : الغزو اليهودي لفلسطين ، الغزو الفرنسي لبلدان المغرب ...

إن القيادات الشيوعية ، بشكل عام ، قد عجزت عن فهم هذا الجانب من الأمور ، وقد تجلى هذا العجز في معارضتها « للعنصرية » (؟) وفي رفعها شعار الإخاء « الأممي » بين الظالم والمظلوم ، بين المعتدي والمعتدى عليه . إن الخطأ الذي ارتكبته منظمة حدتو في مصر ازاء قضية فلسطين قد أدى الى تعطيل مفعول العناصر الإيجابية في هذه المنظمة ، والى ابطال الدور القيادي الكبير الذي كان يمكن ان تلعبه في مصر والوطن العربي . اما في الجزائر ، فقد آلت نظرية « الامة الجزائرية » الى تجاهل الفوارق القومية والطبقية بين السكان العرب والسكان الاوروبيين ، الأمر الذي عزل الحزب الشيوعي الجزائري عن الجماهير العربية البروليتارية وشبه البروليتارية في المدن

والأرياف ، وفوّت عليه فرصة المشاركة القيادية في معركة الخلاص .

لقد نسيت القيادات الشيوعية الستالينية شكلاً أساسياً من اشكال الامبريالية في الوطن العربي : الاستعمار الاسكاني .

إن التجزئة العربية الراهنة هي بنسبة ثلاثة أرباع وليدة الاستعمار وعلاقات العصر الامبريالي . والطبقات الاقطاعية والرأسمالية الكومبرادورية وتوابعها جزء من هذه العلاقات . واذا كانت الأمور على هذه الصورة ، فهذا معناه ان قضايا الأمة العربية ليست مسائل تستمد حلولها مما كتبه ماركس في عام ١٨٤٨ وما كتبه ستالين في عام ١٩١٣ عن « المسألة القومية » . انها قضايا تستمد حلولها من التحليل الواقعي لعلاقات العصر ، انها قضايا **الثورة** العربية المناهضة للامبريالية ومستقبل هذه الثورة . ولكن القيادات الشيوعية المحلية قد حوّلت الماركسية من « جبر للثورة » الى حاصل حسابي لمعلومات مدرسية (بعد أن حذفت قسماً كبيراً منها) .

نحن لا نقول من الممكن ان لا تسير عملية التوحيد القومي العربي في القرن العشرين على هدى التكون القومي الفرنسي في العصور الغابرة وحسب ، بل نقول أكثر من ذلك : إن مثل هذا الاحتمال غير وارد إطلاقاً . الوحدة العربية لا يمكن ان تتولد من التطور الاقتصادي الرأسمالي ومن نضال الطبقات البرجوازية الوطنية : إن كل رأسمالية عربية في كل قطر عربي

تتطور بصورة منفردة معزولة، في ظل التجزئة السياسية والتعبئة الاقتصادية المتولدة من عصر الاستعمار .

لقد قارب الشيوعيون المصريون هذه الحقيقة في مطلع عام ١٩٥٨ . الا انهم لم يتوصلوا الى ان الوحدة العربية هي جزء من الثورة العربية الاشتراكية المناهضة للامبريالية ، كما ان الوحدات القومية في أوروبا كانت جزءاً من الثورة البرجوازية (الديمقراطية او غير الديمقراطية) . فالوحدة والاشتراكية جزءان مترابطان في عملية تاريخية واحدة .

هذا يعني ، في جملة ما يعنيه ، ان الجماهير الكادحة وفي طليعتها الطبقة العاملة ، هي القوة الأساسية والقائدة للثورة الوحدوية (الاشتراكية) ، وان القومية العربية جزء من ايديولوجية الطبقة العاملة والطبقات الكادحة .

ومقابل ذلك ، فإن الشوفينية الاقليمية هي جزء من ايديولوجية البرجوازية والطبقات المستثمِرة ، المرتبطة مصالحها بكيانات التجزئة .

يمكن القول إن القيادات الشيوعية قد تبنّت الشوفينية الاقليمية . كان ذلك خطأً اساسياً في نشاطها في سورية والعراق ضد المدّ العربي الوحدوي في عام ١٩٥٨ وبعده . حملت على اكتافها وطنية البضائع السورية وعائدات النفط العراقي ، ودعت الى مزيد من التزاحم على فتات مائدة الامبريالية . على الصعيد الايديولوجي ، لعبت مرة اخرى ورقة « الظروف الموضوعية » و « الاختلافات التاريخية » .

في عام ١٩٥٦ ، أكّد الشيوعيون في الشرق العربي أن الفوارق والحدود القطرية والعقبات القائمة في طريق الوحدة « سطحية » و « مصطنعة » . وفي عام ١٩٥٨ ، قرروا أنها « تاريخية » و « طبيعية » . وفي كلا الحالتين ، أحجموا عن القيام بدراسة علمية موضوعية شاملة لهذه الفوارق والحدود ... ذلك ان مثل هذه الدراسة تتعارض مع خطة إثارة العصبية الاقليمية التي ساروا عليها في كل قطر وفي سورية بشكل خاص .

إن عبارة « سورية قلب العروبة النابض » تتخذ على لسان بكداش وصحبه لوناً خاصاً ، شوفينياً إقليمياً . إنه موقف التعامي عن العواصف الثورية في الوطن العربي الكبير ، موقف « حماية » سورية من هذه العواصف التي شوّهوا مدلولها .

فالنضال التاريخي العظيم الذي خاضه الشعب السوري ضد الاستعمار ومشاريعه وأحلافه جزء من النضال العربي العام ضد الامبريالية ، في سبيل الاشتراكية والديمقراطية والوحدة .

إن وحدة الامة العربية ليست مبدأً نظرياً مجرداً ومعزولاً . انها وحدة النضال العربي في سبيل الحرية والوحدة والاشتراكية ، إنها وحدة الثورة العربية ، القومية الديمقراطية الاشتراكية . هذا يعني أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر ، وثورة أوّل نوفمبر ١٩٥٤ في الجزائر ، ومعركة صد العدوان الثلاثي عن مصر ، والوحدة بين سورية ومصر في شباط ١٩٥٨ ، وثورة ١٤ تموز في العراق ... هي حلقات متصلة في ثورة عربية واحدة .

في نظر بكداش ورفاقه ، يوجد من جهة فكرة الأمة **العربية** (« المسألة القومية العربية ») ومن جهة أخرى نضال الشعب **السوري** (« الثورة الوطنية الديمقراطية ») . ولا توجد **ثورة عربية** ، قومية ، ديمقراطية ، اشتراكية ، وحدوية .

ولأن القادة الستالينيين لا يعرفون الثورة العربية ، فقد سعوا لإخراج ثورة ١٤ تموز عن الخط العربي القومي ، في لقاء مشهود مع بريطانيا ومع الامبريالية . وقد أدى هذا الموقف ، في جملة ما أدى اليه ، الى فراغ ثورة ١٤ تموز من محتواها **الاجتماعي** الديمقراطي أيضاً .

د – استراتيجية منشفية مكيّفة امبريالياً .

وكما أن القيادات الشيوعية الستالينية لم تفهم الوحدة القومية (او الجغرافية) للثورة العربية ، كذلك لم تفهم وحدتها الاجتماعية السياسية (او التاريخية) . إنها لم تفهم مبدأ وحدة الثورة الوطنية والديمقراطية والاشتراكية ، وأحلّت محلّه « نظرية المرحلتين : مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، ثم ، وبعد فترة انتقالية ، مرحلة الثورة الاشتراكية .

في اوائل ١٩٤٤ ، أسقطعت الاشتراكية من برنامج الحزب الشيوعي في سورية ولبنان . وردّ بكداش على الذين استأنفوا هذا الحكم بالتحذير من السقوط في الموقف الانعزالي اليساري الذي سقط فيه شيوعيو جاوا قبل عشرين عاماً. ولم يكن برنامج الحزب قد أعدم الاشتراكية وحسب، بل أعدم المحتوى الاجتماعي الرئيسي للديمقراطية (الاصلاح الزراعي) أيضاً . لم يشأ بكداش ورفاقه ان يقلّدوا الشيوعيين الاندونيسيين فقلّدوا ... الكماليين الأتراك .

وفي عام ١٩٥١ ، في فترة « الاتجاه بحزم نحو جماهير العمال والفلاحين » ، « أعيد الاعتبار » بشكل صاخب للإصلاح

الزراعي (مع مزاودات وشتائم على الاشتراكيين) ، الا ان الاهداف الاشتراكية بقيت مؤجلة الى ما بعد مرحلة التحرير الوطني الديمقراطي والى ما بعد « التمهيد » للاشتراكية .

وفي أعوام ١٩٥٥ – ١٩٥٧ ، في فترة « الآفاق الجديدة » ، أرجىء الإصلاح الزراعي عملياً الى ما بعد « التحرر الوطني » ، بحجة أن « المرحلة » (!) مرحلة نضال ضد الأحلاف والمشاريع الاستعمارية (هكذا انقسمت مرحلة الثورة الوطنية – الديمقراطية مرة أخرى الى مرحلتين اثنتين ...) وآل هذا الموقف الى « تفريط » حركة الجماهير التي عبّئت في الفترة السابقة ضد الاقطاع في عدد من المناطق (على يد البعثيين الاشتراكيين والشيوعيين) . وأخذ صوت القادة المدوّي يضع الآمال في التصنيع على « الرأسمالية الوطنية » . وبذلك تراجعوا عن تعاليم الستالينية الى مَنْشَفِيَّة مُكَيَّفَة إمبريالياً . وبقي فكر بكداش محصوراً في إطار « علاقات الإنتاج البرجوازية » الى ما بعد قرارات يوليو ١٩٦١ .

إن « الثورة الوطنية الديمقراطية » التي قال بها بكداش وأقرانه قد أفرغت على يدهم من المحتوى الديمقراطي (الاصلاح الزراعي) ، هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، فقد مدّدت كـ « مرحلة استراتيجية » إلى ما بعد تحقيق الاستقلال السياسي وسقوط الحكم الاستعماري الكولونيالي ، وذلك بحجة وجوب مكافحة المشاريع الاستعمارية ، الأمر الذي يؤول عملياً الى تعطيل النضال الاشتراكي والنضال الديمقراطي – الزراعي

وإرجائها الى ما بعد سقوط الامبريالية العالمية .

هذا **عكس** منهج البلاشفة الروس الذين قرروا ، في أعقاب ثورة شباط ١٩١٧ ، الانتقال التدريجي الى مرحلة الثورة الاشتراكية ، رغم ان ثورة شباط لم تكن حققت إلا جزءاً من أهدافها الديمقراطية البرجوازية .

وهذ **عكس** منهج الشيوعيين الصينيين الذين ربطوا ربطاً وثيقاً الثورة الوطنية والثورة الديمقراطية ، وحوّلوا الثورة الصينية من ثورة وطنية الى ثورة وطنية – ديمقراطية ، والى ثورة وطنية – ديمقراطية – **اشتراكية** .

من الواضح أن القادة الستالينيين العرب لم يفهموا شيئاً من تجربة الثورة المعاصرة في روسيا والصين ويوغوسلافيا ... إن هذه التجربة تثبت بشكل قاطع ان الثورة الديمقراطية البرجوازية في البلدان المتخلفة لا تستطيع ان تحقق (في أحسن الحالات) إلا جزءاً من أهدافها الديمقراطية البرجوازية وان الجزء الآخر لا تحققه إلا الثورة الاشتراكية . وهذا يعني أن الثورة لكي تنجز أهدافها البرجوازية – الديمقراطية لا بدّ لها أن تخرج من الاطار البرجوازي الديمقراطي وان تتحول الى ثورة اشتراكية . إن نظرية الثورة المعاصرة ليست نظرية مرحلتين منفصلتين ، بل هي نظرية تجاوز وتحوّل الثورة الديمقراطية البرجوازية الى ثورة اشتراكية . انها نظرية **نمو** وتطور متصل للثورة **تنجز** فيها المرحلة اللاحقة أهداف المراحل السابقة .

لقد أدار الستالينيون العرب ظهرهم لتجربة الثورة الروسية ولمؤلفات لينين . وبسّطوا تعاليم ستالين وشدّوها باتجاه منشفية صريحة ومضاعفة . وحرموا أنفسهم من القدرة على فهم التطور التاريخي اللاحق .

إن الثورة الاشتراكية العالمية اليوم لا تنبثق بالدرجة الأولى من تناقض قوى الانتاج وعلاقات الانتاج (الذي يتجلّى في صراع الطبقات) داخل كل قطر برجوازي على حدة او في إطار الغرب الرأسمالي الصناعي المتقدم ، إنما تنبثق بالدرجة الأولى من تناقض قوى الانتاج وعلاقات الانتاج (وبالتالي الصراع الطبقي، أو الصراع الطبقي – القومي) على النطاق **العالمي** ، في إطار الاقتصاد الرأسمالي الامبريالي **العالمي** . فالمهمة الأساسية ، الملحة والراسخة، هي تحطيم علاقات الانتاج الامبريالية وانهاء الاستثمار الامبريالي المتمثل في التقسيم الدولي الراهن للعمل: بلدان رأسمالية صناعية مسيطرة من جهة ، وبلدان منتجة للمواد الأولية وتابعة من جهة ثانية . إن حل هذه المهمة التاريخية يفرض اليوم على البلدان المتخلفة الخروج من إطار نظام الملكية الخاصة والتحول نحو الاشتراكية باعتبارها الطريق الوحيد للخلاص من الاستثمار الامبريالي المتعدد الأشكال ، للخلاص من الفقر والتخلّف .

فالرأسمالية الوطنية في البلدان المتخلفة ، بحكم وضعها الدولي وظروفها المحلية عاجزة عن تنظيم الانتاج تنظيماً علمياً ، وعن « تقييم » اليد العاملة المعطلة في الأرياف ، وتأمين الادخار اللازم لتحقيق تصنيع جدي سريع ، كما هي عاجزة عن نسف البنيات

الاقطاعية وما قبل الاقطاعية التي تعترض طريق التطور . والقضية ليست مسألة نوايا (« وطنية » ، خيانة ») انها مسألة طاقات تأخذ جذورها من البنيان الاقتصادي – والاجتماعي الدولي (والمحلي) .

هذه الحقيقة الأساسية قد حجبتها عن أنظار القادة الستالينيين ظروف تكتيك غريب فرض على أصحابه القفز من اليمين الى « اليسار » ومن « اليسار » الى اليمين (مع ميل أثبت الى اليمين) .

فالاشتراكية ، بالنسبة للبلدان المتخلفة ، لا تنبع من ضرورة اعادة النظر في **توزيع** الدخل القومي على أساس من العدالة الاجتماعية وحسب ، وانما تنبع **اولاً** من ضرورة **انماء** الدخل (واعادة النظر في توزيع الدخل **العالمي**) . والاشتراكية ليست مرحلة أخرى منفصلة تعقب في مستقبل بعيد تحقيق « الاستقلال التام » (؟) و « الديمقراطية الكاملة » ، انما هي جزء مكمّل للاستقلال والسبيل الوحيد لاستكمال الاستقلال ولإنهاء الاستثمار الامبريالي المتمثل في آلية السوق العالمية الراهنة وفي أشكال اخرى .

إن الأهمية التاريخية لثورة يوليو ١٩٥٢ ولقرارات يوليو ١٩٦١ تكمن في انها التجسيد العملي للارتباط المتعاظم بين الثورة القومية والثورة الاجتماعية ، ولمبدأ نمو الثورة القومية وتحولها الى ثورة اشتراكية . إن الشعار الذي يعرّف المجتمع الاشتراكي بانه «مجتمع الكفاية والعدل» تعبير صحيح تماماً عن جوهر الموضوع،

بعكس ايديولوجية العقائديين فوق – البروليتاريين أصدقـــاء البرجوازية الوطنية . وعندمـا يتساءل بكداش : لصالح من يحدث التأميم ؟ .٠. فإنه يثبت جهله أو تجاهـــله لصلة الموضوع بقضية التنمية الاقتصادية . – فالتأميم يحدث لصالح الإنتاج ، لصالح « المجتمع » ، هذا اولاً . وثانياً ، لصالح ... هـــذه أو تلك من الطبقات والفئات (الطبقة العاملة ، البروقراطية الخ ..) وعندما يطلب بكداش واقرانه أن يكون التأميم « موجهـــاً ضد الاستعمار » ، فإنهم يتجاهلون أن التأميم موجه فعلا وحتماً ضد الاستعمار وضد الاستعمار الجديد .

أمـــا القول « إن ظروف سورية تختلف » فهو لا يدين الا أصحابه ، أنصار الكيان القطري .

هـ – تكتيك القوالب الجاهزة .

يمكن ان نلخص الستراتيجية العامـــة ، شبه الراسخة ، للقيادات الشيوعية الستالينية في العالم العربي ، على النحو التالي : « ثورة » منحصرة في الاطار القطري (اما المزاودة النظرية في موضوع **الأمة** العربية فتؤدي وظيفة « تعويض » وتضليل) ، « ثورة وطنية ديمقراطية » (في أغلب الأحيان : لا ديمقراطية ، مفرغة من الاصلاح الزراعي) ، تؤول عملياً الى « نضال ضـــد المشاريع الاستعمارية » وضد « عمـلاء الاستعمار » ، الحقيقيين تارة ، الوهميين تارة اخرى (الناصرية) . هذه « الستراتيجية » الشاملة ، المترابطة الاجزاء ، المتكاملة العناصر ، اللاوحدوية واللاإشتراكية ، كان محتماً أن تؤدي الى صدام شامل مع الثورة الوحدوية الاشتراكية ، اعتباراً من عـــام ١٩٥٨ ، والى تداعي قوى الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي .

لننظر الآن الى بعض المسائل الفرعية ، الى التكتيك ، الى الشعارات واشكال النضال .

إن تاريـــخ الاحزاب الشيوعية في روسيا والصين وفرنسا وايطاليا والهند واندونيسيا ... يقدم لنا ثروة عظيمة في هـذا المضمار : الاضرابات بشتى أنواعها ، قتـال المتاريس ، الانقلاب

الانقلاب المسلّح ، النضال البرلماني ، حرب الانصار ، الحرب
الأهلية الثورية والحرب الوطنية الثورية ... شعارات وطنية
وشعارات بروليتارية .. تحالف مع القوى الوسطية ومحاربة
القوى الوسطية ... كل ذلك في ارتباط وثيق مع الستراتيجية
ومع الهدف الاشتراكي . — بصرف النظر عن الاخطاء :
والاخطاء جزء من الممارسة ويمكن ويجب أن تكون حافزاً
للتقدم .

الا ان القيادات الشيوعية الستالينية في البلاد العربية لم
« تأخذ » من هذه الثروة الفريدة الا بعض «الجمل» و«القوالب».
(فضلاً عن أنها آمنت بأن التاريخ لا يمكن أن يأتي بجديد) .
وأهم هذه القوالب فكرة « **الجبهة الوطنية** » التي لا ينفكّ
خالد بكداش يتحدث عنها منذ ثلاثين عاماً والتي فُهمت غالباً
على انها « جبهة الاحزاب الوطنية » وارتبطت بالستراتيجية
اليمينية : من غير المجدي ان نتابع تفصيلياً الاستحالات الغريبة
التي أصابت هذا الشعار بين الفينة والفينة على يد أصحابه (في
عام ١٩٤٤ ، امتدت الجبهة المذكورة الى الطاشناق). الا أن كل
متتبّع لتاريخ النضال العربي يلاحظ ان **القسم الاكبر** من هذا
التاريخ يخرج عن إطار « الجبهة الوطنية » (بصرف النظر عن
الخدمات التي يمكن ان تسديها مثل هذه الجبهة في هذه أو تلك
من فترات النضال) .
فالثورة الشعبية الجزائرية لم تقم على يد « جبهة الدفاع عن
الحرية » التي كانت جبهة وطنية « نموذجية » تضم « جميع »

الاحزاب والهيئات الوطنية ، بل حضّرتها وقادتها هيئة سرية
مستقلة عن الاحزاب ، بعيدة عن مشاغلها وانقساماتها .
إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الوطنية الديمقراطية في مصر لم
تتحقق على يد « جبهة وطنية » من الاحزاب بل اضطلع بها
الضباط الاحرار . وكذلك ثورة ١٤ تموز في العراق وثورة ٢٦
ايلول في اليمن . الا أن القيادات الشيوعية الستالينية تجاهلت
ظاهرة « **دور العسكريين** » ، بدلاً من ان تتناولها بالدراسة
والتحليل لمعرفة أسبابها والاحتمالات السلبية التي تنطوي عليها :
إن تجربة **المشرق** العربي تبيّن ان « الجيش » يؤدي في هذه
المنطقة دور القابلة التي تولدّ الثورة الوطنية — الديمقراطية
(البرجوازية) في ظروف اجتماعية وسياسية محدّدة . إلا أن
الستالينيين لم يفهموا هذه الحقيقة وحكموا على « الانقلاب
العسكري » في **مصر** بمقاييس الانقلابات العسكرية السورية .
وهكذا أغفل انصار «الفوارق القطرية» الفوارق القطرية الفعلية
الأساسية : فمصر قبل ثورة ٢٣ يوليو كانت تعيش في ظل نظام
ملكي استبدادي وتحت نير احتلال اجنبي، والانقلاب العسكري
يمكن أن يتخذ في هذه الظروف محتوى وطنياً وديمقراطياً
موجهاً ضد الاحتلال والملكية والاقطاع . (العراق السعيدي
واليمن الإمامي هما في وضع مشابه) . أما في سورية الجمهورية
المستقلة ، فالطريق العسكري مسدود أصلاً .
إن القادة الستالينيين لم يقدموا أي تحليل شامل لهذا
الموضوع ، واكتفوا بتكتيك متقلّب يجعل من أديب الشيشكلي

تارة عميلا خائناً، وتارة أخرى دكتاتوراً أو مضطهداً للحريات، ليس إلا ، ويحوّل عبد الناصر من عميل الى بطل اسطوري فالى عميل ، في حركة مد وجزر لا نهاية لها .

لقد أغفل بكداش « دور العسكريين» (نظرياً على الأقل!)
... وأكد **الطريق البرلماني** ! أخذ عن المؤتمر العشرين « جملة » لم يفهمها تماماً ، وألغى كل دروس حركة العمال الثورية وكل تعاليم ماركس ولينين ، وتعامى عن تجربة البلدان المتخلفة ، فتصور أن سورية كهولندة أو سويسرة ، و « اقتنع بان العالم وتاريخه ومستقبله انما تقررها الاغلبية في تلك الهيئة التمثيلية الخاصة التي تتشرف بوجوده في عداد اعضائها » ، (على حد تعريف إنجلس الغباء البرلماني) .

إن فكر بكداش لم يخرج من اطار ثنائية : الطريق السلمي (بل البرلماني) ١٩٥٦ – الثورة الكلاسيكية (« النضال حتى أعلى درجاته » ١٩٥١) . ومن الواضح ان تسعة اعشار النضال العربي الثوري يخرج عن اطار هذه الثنائية : فلا طريق «سلمي» ولا « ثورة كلاسيكية » . بل طريق معقد وأشكال نضال لا حصر لها . هذا ما يفهمه القادة الستالينيون الذين حصروا تفكيرهم في عدد محدد من المساطر والاحكام القياسية .

هكذا، مثلاً، أدان العربي بوهالي وأقرانه «الاعمال الفردية» و « الارهاب » في الثورة الجزائرية . (وقبلها في الحركة الوطنية التونسية عام ١٩٥١) ، مخالفين بذلك الآراء الصريحة التي صاغها لينين في عام ١٩٠٦ : إن الاشتراكية العلمية لا ترفض أي

شكل من اشكال النضال **على نحو مطلق** . ولا تؤيد أي شكل من اشكال النضال **على نحو مطلق**. إن الاشتراكيين لا «يخترعون» اشكال النضال في مكاتب الدراسة ، بل هم يحللون الاشكال الواقعية التي تنبثق من مراحل التطور التاريخي ويسعون الى توجيهها وشل جوانبها السلبية .

لو كان اعتراض الستالينيين على ما أسموه تجاوزاً « أعمالاً فردية » ناجماً عن حرصهم على أسلوب النضال الجماعي المسلح ، لهانت المصيبة. الا أنه ،حين حزم بوهالي وصحبه أمرهم وقرروا المشاركة في النضال المسلح ، كان عملهم متاجرة سياسية تهدد باقامة مركز قيادي آخر (حادثة المرشح مايو) .

و – ايديولوجيا ستالينية مضاعفة .

استراتيجية الثورة الوطنية الديمقراطية أنزلت الى مستوى نضال ضد الاحلاف في الحدود القطرية ثم تحولت الى نضال ضد الناصرية . تكتيك القوالب والوصفات الجاهزةالتي يطرد بعضها البعض الآخر موسمياً أصبح تبريراً لمواقف عمياء . لنحاول ان ننفذ الى الايديولوجية الاساسية التي يهتدي بها قادة الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي .

لقد دفعت القيادات الشيوعية في سورية ولبنان والجزائر والعراق الجوانب السلبية في الظاهرة الستالينية الدولية الى حدها الاقصى : الجمود المذهبي الذي يجعل اصحابه مقتنعين بأن التاريخ موجود سلفاً فيالعقيدة وان الممارسة الحقة لا تفعل سوى تثبيت النظرية ، والانتهازية باعتبارها إخضاع الاهداف البعيدة والعامة للمصالحالآنية والجزئية والتي تتجلى في التقلبات الكثيرة اللامبدئية . إن ايديولوجيا **الستالينية العربية** تتصف بالعلائم التالية : تضخيم بعض جوانب الواقع على حساب البعض الآخر، تشويه العلاقة بين الممارسة والنظرية ، احتقار الجماهير ونفي قدرتها على الإبداع ، رفع لواء المعرفة « الموضوعية » الخالصة

وسقوط في ذاتية مرزغية، إسقاط المحتوى الجوهري للماركسية: جدل الممارسة الانسانية في ظروفها الموضوعية .

هل كان ما قالته القيادات الشيوعية في المواقف الكبرى (معركة الجلاء ١٩٤٥ ، معركة فلسطين ١٩٤٨ ، قضية الوحدة ١٩٥٨ ، الخ ...) خطأ **مطلقاً** ؟ طبعاً لا . الا أنه تجسيد لموقف غير جدلي ، **أحادي الجانب** ، يبرز جانباً من الامور ويخفي الجانب الآخر (هو في احيان كثيرة الجانب الأهم) . في عام ١٩٤٥ : ابراز الخطر البريطاني ونسيان نضال الجماهير السورية والوضع العالمي الجديد ، في عام ١٩٤٨ : ابراز خطر الرجعيات العربية العميلة ومناورات بريطانيا لتبرير موقف الهروب والذيلية ، في عام ١٩٥٨ : ابراز الفوارق القطرية وقضية حل الاحزاب واهمال الخط العريض للتطور التاريخي للنضال العربي وحاجات هذا التطور ... إن الواقع التاريخي واقع جدلي – تناقضي معقد. وباسلوب بكداش واخوانه يستطيع الانسان أن « يبرر » جميع المواقف أياً كانت . ويستطيع ان يقنع نفسه ، وأن يقنع عدداً من الانصار يتناقص باطراد ، الا انه لن يقنع الجماهير ولن يعبئها .

لقد تعلمت القيادات الشيوعية في البلاد العربية استراتيجية الثورة من خلال فهمها المبسّط لكراس ستالين«أسس اللينينية». فجعلت من مراحل (مرحلتي) الثورة قوالب مجرّدة ، مطلقة ، قبْلية، تقررها «حتمية موضوعية» مسبقة ، ولم ترَ أنها معطيات حسية مشخصة ، نسبية متحولة ومتداخلة ، تحددها كما يقول

لينين « درجة تهيؤ البروليتاريا ودرجة اتحادهـــا مع الفلاحين الفقراء » ، اي ما يمكن ان نسميه « الشروط الذاتيـــة » (او الذاتية – الموضوعية) . وهكذا تتحول المادية الديالكتية الى ماديـــة ميكانيكية ، ميتافيزيائية ، « موضوعية » ، مشائية ، مبتذلة : « فالموضوع موضوع ، ولا ينظر اليه على أنـه ممارسة انسانية ، لا ينظر اليه على نحو ذاتي» . هذا ما يفسّر لنا اعجاب القادة الشيوعيين السوريـــين بكتاب ستالين الأخير « القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي » . فقد ألغت وصية ستالين الفلسفية موضوعة ماركس الاولى عن فويرباخ .

إن هذا الميل الى ابتذال الماركسية قد تجلى بشكل خاص في الاتجاه الى ترك أمر الوحدة العربية للتطور التلقائي، الاقتصادي، « الموضوعي » : فالوحدة العربية تبدو ، «في الآفاق الجديدة»، وليدة « تطور موضوعي » مستقل عن الرغبـات والارادات ، وقادر على بلوغ غايته « رغم ما أقيم ويقام في وجهه من عوائق مصطنعة » . التاريخ يصبح ضرباً من الفيزياء مرفوعة الى مرتبة ميتافيزياء . والممارسة انحلت من جهة الى « رغبات وارادات » لا شأن لها ، ومن جهة ثانية الى نشاط سلبي أقـام ويقيم العوائق في وجه قدَر الاشياء .

حكم الاعـــدام على الممارسة ، تعطيـــل ديالكتيك الذات والموضوع ، الايمان بان التاريخ الحق تفتح للنظريـة الحقة ، كل ذلك يتجلى بشكل حادّ في الابتعاد عن الجماهير ، في احتقـار حركة الجماهير الحقيقية القائمة في الواقع وابدالها بحركة جماهـــير

نظرية وهمية قائمة في ذهن أصحابها ، وبالتالي في تحويل «القيادة» الى « وصاية» تسعى الى أن تفرض على الجماهير مواقف «الحزب» سدين الحقيقة الموضوعية الخالصة (معركة الجلاء، قضية فلسطين، قضية الوحدة والاشتراكية) : فالتاريخ ، كما يجب أن يكون ، هو حوار بين « الموضوع » الخالص وذات الحزب اللاذاتية . لقد أسقطت القيادات الستالينية العربية «ذاتية » الجماهير ، فأدارت بذلك ظهرها للواقع – الممارسة ، للتطور الواقعي الموضوعي ، وسقطت في ذاتيّتها الخاصة، ذاتية القيادة الوصية، ذاتية النخبة! إن نسيان الجماهير قاد الى نسيان الديالكتيك الجديد ، العالمي ، لعلاقات الانتاج وقوى الانتـــاج ، ونسيان ديالكتيك الثورة العربية ، القومية ، الاشتراكية الوحدوية . لقد تعامى بكداش عن الجوهر التقدمي الثوري لحركة الجماهير العربيـــة ، وترفع عن « عواطف العوام » ، فتحوّل من قائـد شبه – ناجح الى وصي عاجز أسير أهوائه وأحقاده . وفي كل مرة ، كانت الوقائع تدلل على أن الجماهـير أوعى وأصدق من الذين تصدّوا لتوجيهها على هذا النحو الغريب .

إن نبذ « خط الجماهير » في النضال السياسي قد افترض ، في جملة مـا افترضه ، نبذ الديمقراطية الداخلية في تنظيم الحزب . وإن سقوط المعارضة اللبنانية في الحزب الشيوعي السوري عام ١٩٥٧ كان مقدمة لانفصال الحزب جذرياً ونهائياً عن « خط الجماهير » ونذيراً بسقوطه . كان ذلك الدور الأخير في تاريخ الحزب الشيوعي السوري : دور التداعي السريع الذي انفتح في

عام ١٩٥٨ وتثبّت في عام ١٩٦١ ، دور الانفصال الحاد بين النظر والعمل، دور التباعد بين الأهداف المعلنة والنتائج الفعلية، « بين الذات والموضوع » !

لقد أراد الحزب الشيوعي السوري في فترة الحكم الانفصالي وقبله وبعده ان يكون قائداً للمعركة «ضد الدكتاتورية الناصرية والنقطة الرابعة الاميركية » . فما كان الا قوة مساعدة للرجعية وأداة من أدوات الثورة المضادة : **إن السياسة ليست نوايا ، إنها « علاقات موضوعية »** . ولكن العقل البروقراطي — الغباء البروقراطي — يجعل أصحابه « يتصورون إرادتهم سبباً أولاً »، وينسون العلاقات الموضوعية، القوى الواقعية، الدولية والمحلية، ويُسقِطون الممارسة والجماهير ، ويحرّمون على أنفسهم السؤال التالي : أين تقف الطبقة العاملة ؟ أين تقف الجماهير الكادحة ؟

ذلك ظفر كامل للذاتية ، بل للحقد الذي يعمي أصحابه . والحقد « مرشد سيّىء » ، يقضي على الصفتين الرئيسيتين عند الثوريين : « الصفاء العلمي التام في تحليل الموقف الموضوعي والتطور الموضوعي ، والاعتراف الحازم بدور الطاقة الثورية والابداع الثوري والمبادرة الثورية لدى الجماهير ، وبالتالي وأيضاً لدى الأفراد والجماعات والمنظمات والاحزاب القادرة على تحقيق الارتباط مع هذه او تلك من الطبقات الاجتماعية . » (لنين) .

هذا كله ما كان يمكن ان يبلغ المقاييس التي بلغها في ايديولوجية وممارسة القادة الستالينيين العرب لولا الجهل الثقافي المروّع . وليس سراً أنّ المستوى الفكري لدى الغالبية العظمى من قادة

وأعضاء الاحزاب الشيوعية في العالم العربي ضعيف جداً . ولا مجال لمقارنة ثقافة بكداش وخيري وبوهالي بثقافة البلاشفة الروس ، بل ولا بثقافة قادة الاحزاب الشيوعية في العصر الستاليني . إن ما كتبه بكداش في ١٩٣٩ و ١٩٤٤ و ١٩٥١ و ١٩٥٦ و ١٩٦١ يَشهد بذلك . كما تشهد به المقدّمة التي كتبها عام ١٩٥٤ عن فلسفة ابن طفيل بتوقيع عبدالهادي حكيم . وبشكل عام ، يمكن ان نؤكد أن **بعض** مؤلفات ستالين ومفسّري الستالينية تشكل تسعة أعشار المتاع الفكري للاحزاب الشيوعية الستالينية في الوطن العربي ، ولقادة هذه الاحزاب .

تلك تركة ثقيلة لم تستطع الأحزاب الشيوعية التخلص منها بعد المؤتمر العشرين . إن المسؤولية في ذلك تقع على عاتق القيادات وخاصة القيادة الشيوعية السورية التي ألقت بثقلها ضد كل تغيير .

إن خالد بكداش لم يأخذ من المؤتمر العشرين إلا جوانب يمينية، لأغراض تكتيكية محددة : الطريق البرلماني الى الاشتراكية ، الجبهة الوطنية الموسّعة ، تطمين البرجوازية الوطنية ... أما التفكير بأن هذا المؤتمر بداية عهد جديد في تاريخ الحركة الثورية العالمية ، يفسح المجال لصياغة نظرية الثورة العربية ، القومية والاجتماعية ، على أساس الاستقلال الفكري للماركسيين العرب، فقد ظل بعيداً عنه . ولعلّه تصوّر أن المؤتمر العشرين ليس إلا تراجعاً (؟) تكتيكياً أملته بعض الظروف، وأن كتلة مولوتوف

ستضع حداً لشطط خروشوف وستعيد المياه الى مجاريها ... لقد أخطأ !

كان المؤتمر العشرون فرصة فرصة ثمينة جاءت في وقتها ، إلا ان الأحزاب الستالينيّة فوّتت هذه الفرصة ، فحكمت على نفسها بالتداعي والسقوط في الوقت الذي دقت فيه ساعة الثورة الوحدوية الاشتراكية في الوطن العربي .

لقد تحوّلت الماركسية اللينينية من دليل للعمل ومنهج للتحليل الى جمل للدعاية : لذا **فوجئت** القيادة الشيوعية السورية بوحدة سورية ومصر **وفوجئت** بقوانين تموز ١٩٦١ . والحال ، إن قيادة ماركسية تفاجأ بمثل هذه الأحداث ليست قيادة ماركسية . وإن قيادة سياسية تفاجأ بقوانين تموز ١٩٦١ ، ثم تكتشف **بعد** صدورها **ثمانية** أسباب « قابعة وراءها » ليست قيادة جدية ، بل هي زمرة من المهرّجين انفصلت عن الحياة ، وفقدت القدرة على التنبؤ العلمي والتأثير على الواقع ، وحكمت على نفسها بالعزلة والتلاشي .

ولئن كان تداعي الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي بمثابة قانون تاريخي ، إلا أن هذا القانون لم يفرضه قدر صوفي مسبق او حتمية ميكانيكية « موضوعية » خالصة ، بل جاء نتيجة للعامل الذاتي ولتفاعله الجدلي مع عوامل التطور الموضوعية .

وقد أدى ذلك الى تبدّل معطيات الثورة الاجتماعية في الوطن العربي. فالتاريخ لا ينتظر حتى تصحّح الأحزاب السياسية أخطاءها ليسلّمها دور القيادة بموجب « حتمية قبْلية » ...

لقد فتحت الثورة سبلاً جديدة .

لقد تخطى النضال العربي الحدود القطرية من جهة وحدود النضال السياسي الوطني من جهة أخرى . لقد بلغت المعركة أبعادها الحقيقية – الجغرافية والتاريخية – . وكان نمو الممارسة الثورية للشعوب العربية يدفع دفعاً نحو تطوير الفكر الثوري العربي . إن هذا التطور حصل ويحصل خارج إطار الأحزاب الشيوعية الستالينية .

في الوقت الذي أخذت فيه الرياح الافريقية – العربية تهبّ على المشرق العربي ، ظلت سورية ، في نظر القيادة الشيوعية السورية ، « قلب العروبة النابض » ، والمكان المؤهل لا لتحقيق التحويل الاجتماعي الثوري ، بل لتحقيق « الوثبة » الى السلطة. وكان ذلك معناه خروج هذه القيادة وأمثالها ، عملياً ونظرياً ، على الثورة العربية .

ومن الجدير بالملاحظة أن تداعي الأحزاب الشيوعية الستالينية في العالم العربي لم يتواكب فقط مع نهوض الثورة العربية المعاصرة وحسب ، بل أكّده أيضاً انفصال الماركسية الحية عن هذه الأحزاب، وانتشارها في صفوف الحركات العربية الثورية من الخليج الى المحيط. وهكذا للمرة الأولى ، بدأ يتحقق الاندماج بين الاشتراكية العلمية – الدليل وبين حركة الجماهير الثورية في الوطن العربي ، باعتباره المقدمة الضرورية لانتصار المجتمع الاشتراكي . (٢)

القسم الثاني

ملاحق

الفصل الأول

١ ــ آراء لينين
في المسألة القومية والكولونيالية

يستطيع القارىء ان يراجع مؤلف لينين « حركة التحرر الوطني في الشرق » ، دمشق ، ١٩٥٨ . وقد نقلنا عنه النصوص الآتيـــة :

آ ــ من خطاب في المؤتمر الثاني لعامة روسيا عقدته المنظمات الشيوعية لشعوب الشرق ١٩١٩ .

... ويغدو واضحاً كل الوضوح ان الثورة الاشتراكية التي يتمخض عنها العالم لن تكون مجرد انتصار البروليتاريا في كل بلد على برجوازية هذا البلد... إن الثورة الاشتراكية سوف لا تكون فقط او في الدرجة الأولى نضالاً يشنه الثوريون في كل بلد ضد برجوازيتهم. كلا ، بل ستكون نضالاً تخوضه جميع المستعمرات والبلدان التي يضطهدها الاستعمار ، نضالاً تخوضه جميع البلدان

التابعة ضد الاستعمار العالمي . ففي برنامج حزبنا ، البرنامج الذي أقر في آذار من العام الفائت ، قلنا ، ونحن نحلل اقتراب الثورة الاجتماعية العالمية ، ان حرب الكادحين الاهلية ضد الاستعماريين والاستثماريين في البلدان المتقدّمة أخذت تندمج مع الحروب القومية ضد الاستعمار العالمي ...

المرجع المذكور ص ١٦٤

* * *

ب – من مشروع أول للموضوعات الخاصة
بالمسألة القومية الكولونيالية
(الى المؤتمر الثاني للكومنترن) ١٩٢٠

٢ – ... يجب على الحزب الشيوعي ، الممثل الواعي للبروليتاريا المناضلة في سبيل زعزعة نير البرجوازية ، في المسألة القومية كما في غيرها من المسائل ، ان لا يضع في المرتبة الاولى المبادىء المجرّدة والشكلية ، بل من واجبه : أولاً ، تقدير الوضع التاريخي الملموس ، وقبل كل شيء الوضع الاقتصادي ، تقديراً صحيحاً . ثانياً ، إبراز مصالح الطبقات المظلومة ، اي مصالح الكادحين المستثمَرين وتمييزها بشكل واضح عن مفهوم مصالح الأمّة بمجموعها، اي مصالح الطبقة السائدة. ثالثاً،التمييز الواضح بين الأمم المظلومة والتابعة والمغلوبة وبين الأمم الظالمة والمستثمِرة والسائدة ، بعكس نفاق الديمقراطية البرجوازية التي تخفي الاستعباد الاستعماري والمالي للكثرة الغالبة من سكان المعمورة

على يد أقلية ضئيلة من البلدان الرأسمالية المتقدمة والغنية ....

٩ – .... يجب على جميع الأحزاب الشيوعية أن تقدّم عوناً مباشراً الى الحركات الثورية التي تقوم بها الأمم التابعة او التي لا تتمتّع بحقوقها كاملة والى المستعمرات ....

١٠ – إن الاعتراف بالاممية قولاً ، وابدالها فعلاً ، في كل الدعاية والتحريض والنشاط العملي بالنزعة القومية والسلمية البرجوازية – الصغيرة ، ليس من الأمور المألوفة تماماً في أحزاب الأممية الثانية فقط ، بل أيضاً في الأحزاب التي خرجت منها ، بل وأيضاً بين الأحزاب التي تسمّي نفسها الآن شيوعية .

١١ – .... ضرورة مكافحة فكرة الدولة الاسلامية الكبرى والاتجاهات المماثلة التي تعمل على جمع حركة التحرّر المناهضة للاستعمار الأوروبي والأميركي مع تثبيت مواقع سيد الأرض والخان والملّة الخ .

.... يجب على الأممية الشيوعية ان تعقد تحالفات موقتة مع الديمقراطية البرجوازية في المستعمرات والبلدان المتخلفة ،ولكن أن لا تنصهر معها وان تدافع بلا تحفظ عن استقلال الحركة البروليتارية حتى في شكلها الجنيني .

ص ١٧٣ – ١٧٨

ملاحظة : كان بعض خبراء الكومنترن يميّزون بين فكرة الوحدة الاسلامية والوحدة الطورانية من جهة ، والوحدة العربية من جهة أخرى . وقد تنبأ الشيوعي الروسي غوركو – كريازين بمستقبل عظيم للوحدة العربية . اما الزعيم الشيوعي

الاندونيسي فكان يدعو الى تأييد فكرة الوحـدة الاسلامية .

Panislamism أ . م .

* * *

ج – من خطاب في اجتماع
لمناضلي الحزب في موسكو ١٩٢٠

.... اليوم لم نعد نتحدّث كممثلين لبروليتاريي جميع البلدان فحسب ، بل أيضاً كممثلين للامم المظلومة . لقد أصدرت الأممية الشيوعية مجلة اسمها « شعوب الشرق » وضعت فيها الشعار التالي موجهاً للشعوب الشرقية : « يا عمّال العالم وأيتها الأمم المظلومة اتّحدوا ! » فسأل أحد الرفاق : « متى قررت اللجنة التنفيذية هـذا التغيير في الشعارات ؟ » . حقاً ، أنا لا أذكر أي قرار من هذا النوع. بالطبع، من وجهة نظر البيان الشيوعي ، هذا الشعار خاطىء . ولكن البيان الشيوعي كُتِب في ظروف تختلف كل الاختلاف . أمّا من وجهة نظر سياسة العهد الحاضر ، فان هذا الشعار صحيح ....

ص ١٨٨

* * *

د – من تقرير الى المؤتمر الثالث للكومنترن

... ولكن ما زال يُنظر الى الحركة في المستعمرات كحركة قومية ضئيلة الشأن وسلمية تماماً. تلك ليست الحال . فقد حدث

تبدل خطير في هذا المضمار منذ مطلع القرن العشرين ، وهو ان الملايين ومئات الملايين– حالياً الغالبية الساحقة من سكان العالم– ينهضون اليوم كعامل ثوري مستقل ونشيط . ويجب ان يكون واضحاً كل الوضوح انه في المعارك الحاسمة المقبلة للثورة العالمية ، هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان المعمورة والتي كانت تهدف بالاصل الى التحرر القومي ، سوف تتحوّل ، في المعارك الحاسمة المقبلة للثورة العالمية ، ضد الرأسمالية والامبريالية ، وربّما تلعبُ دوراً ثورياً أكبر مما نتوّقع ...

ص ١٩٨ ، ١٩٩

* * *

ه – حول مذكرات سوخانوف

... إذا كان ضرورياً في سبيل خلق الاشتراكية أن نبلغ مستوى معيّناً من الحضارة (مع العلم بأن أحداً لا يستطيع ان يقول لنا بالضبط ما هو هـذا « المستوى الحضاري » المعيّن ، لأنه يختلف بين دولة وأخرى من دول الغرب) ، فَلِمَ لا نبدأ بتحقيق الشروط الأولية لهذا المستوى بطريقة ثورية ...

... في أي كتب قرأتم أن مثل هـذه التبدّلات في السير التاريخي العادي للأمور غير مقبولة أو مستحيلة ؟...

... إن صغار البرجوازيين الاوروبيين لا يتصوّرون ان الثورات القادمة في بلدان الشرق ذات كثافة من السكان أكبر بكثير وذات شروط اجتماعية أكثر تنوعاً بكثير ، سيكون لها

حتماً سمات خاصة أكثر مما كان للثورة الروسية بكثير ...

ص ٢١٢ ، ٢١٣

* * *

و – من كتاب تقليل الكم وتحسين النوع

... إن نتيجة الصراع تتوقف في النهاية على ان روسيا والهند والصين الخ . تؤلف الكثرة الغالبية من سكان العالم . وهذه الكثرة التي انجرفت ، بسرعة لا تصدق ، منذ بضع سنوات ، في النضال من أجل انعتاقها ؛ وبهذا الصدد ، ليس هناك أدنى شك فيما يتعلق بالنتيجة الأخيرة للصراع العالمي . فانتصار الاشتراكية النهائي مضمون بشكل تام وناجز .

ص ٢١٦

٢ – المسألة القومية والكولونيالية في المؤتمر الثاني للكومنترن ١٩٢٠

[قرر المؤتمر تمييز الحركة القومية **الثورية** والحركة القومية **الاصلاحية** ، وأقرّ في الوقت نفسه مبدأ عدم حتمية المرحلة الرأسمالية من التطور بالنسبة للبلدان المتخلفة] . فيما يلي ما جاء بهذا الشأن في تقرير **لينين** الى المؤتمر المذكور :

«... سنؤيد فعلاً الحركة البرجوازية التحررية في المستعمرات فقط عندما تكون حقاً ثورية ، وعندما لا يعوق او يمنع ممثلوها عملنا في تثقيف الفلاحين وجمهور المستثمَرين بالروح الثورية . اذا لم تتوافر هذه الشروط ، يكون من واجب الشيوعيين في هذه البلدان ان يكافحوا البرجوازية الاصلاحية التي ينتمي إليها أيضاً أبطال الأممية الثانية . ثمة أحزاب إصلاحية قائمة منذ الآن في البلدان المستعمَرة ...

... هل المرحلة الرأسمالية من التطور الاقتصادي حتمية بالنسبة لتلك الامم المتخلفة التي تحقق الآن تحررها والتي نلاحظ فيها اتجاهات تقدمية منذ الحرب . لقد أجبنا سلباً ... على

الاممية الشيوعية ان تضع وتسوّغ نظرياً الحكم القائل بان هـذه البلدان المتخلفة تستطيع ، مـع مساعدة بروليتاريا البلدان المتقدمة، ان تنتقل الى النظام السوفياتي، وخلال مراحل محددة من التطور، الى الشيوعية، دون ان تمر حتماً بالمرحلة الرأسمالية.

المرجع السابق ص ١٨٠ – ١٨٦

ملاحظة : ١ – صيغة الفقرة الأولى لم يتوصل اليها المؤتمر الا بعد مناقشات طويلة ، برز فيها الشيوعي الهندى روي الذي كان اكثر تشدداً من لينين ضد البرجوازية الوطنية الاصلاحية .

٢ – مبدأ عدم حتمية المرحلة الرأسمالية أملته ضرورة السير الى أمام في آسيا الوسطى والقوقاس ، وقد فسح المجال التقدم في بلدان اخرى (منغوليا الشعبية) . أ . م .

٣ – من نداء لينين

الى مسلمي روسيا ومسلمي الشرق ١٩١٧

... أيها المسلمون في الشرق ، أيها العجم والاتراك والعرب والهنود ، انتم الذين كانت حياتكم واموالكم وحرياتكم وأوطانكم طوال قرون سلعة في يد طغاة اوروبا الشرهين . انتم الذين يهددكم القرصان الاستعماريون الذين أعلنوا الحرب لاقتسام أوطانكم . اننا نتوجه اليكم جميعاً قائلين :

نعلن ان المعاهدات السرية المتعلقة بالحاق القسطنطينية التي عقدها القيصر المخلوع وصادقت عليها حكومة كيرنسكي الساقطة قد مزقتها اليوم وألغتها الجمهورية الروسية وحكومتها . إن مجلس مفوضي الشعب يعلن انه يرفض الحاق أراضي الآخرين وان القسطنطينية يجب أن تبقى في أيدي المسلمين ...

... تخلصوا من نير المستعبدين الذين اغتصبوا أراضيكم خلال مئات السنين ، لا تدعوهم بعد الآن ينهبون بيوتكم ، يجب ان تكونوا انتم انفسكم أسياد بلادكم ، يجب ان تنظموا حياتكم كما تريدون ، فذلك من حقكم وان مصيركم هو بين ايديكم .

أيها الرفاق ، أيها الاخوان .

اننا نسير نحو سلام ديمقراطي شريف ، بعزيمة قوية وقدم ثابتة . اننا نحمل في طيات علمنا التحرر لجميع الشعوب المظلومة في العالم .

أيها المسلمون في روسيا ، ايها المسلمون في الشرق ، في هذا الطريق الذي نسير عليه نحو تجديد العالم ننتظر منكم التأييد والمساعدة .

برافدا ١٩١٧/١٢/٥

٤ ــ من كتاب ستالين

« في أسس اللينينية » ١٩٢٤

... إن الطابع الثوري الاكيد للغالبية الساحقة من الحركات القومية طابع نسبي وله شكل خاص ، شأنه شأن الطابع الرجعي المحتمل للبعض الآخر من هذه الحركات . في ظروف الاضطهاد الامبريالي ، إن الصفة الثورية للحركة القومية لا تفترض بالضرورة وجود عناصر بروليتارية في الحركة ، او وجود برنامج ثوري او جمهوري للحركة ، او وجود قاعدة ديمقراطية لها . إن نضال أمير الافغان في سبيل استقلال افغانستان هو ، موضوعياً ، نضال ثوري ، رغم الاتجاه الملكي لافكار الامير وأنصاره ، ذلك لانه يضعف ويفكك ويقوض الامبريالية ... ولهذه الاسباب نفسها ، إن نضال التجار والمثقفين البرجوازيين المصريين من أجل استقلال مصر ، هو موضوعياً نضال ثوري ، رغم الاصل البرجوازى والصفة البرجوازية ، ورغم انهم ضد الاشتراكية . في حين ان نضال الحكومة « العمالية » الانكليزية من اجل بقاء مصر في حالة بلد تابع ، هو للاسباب نفسها نضال

رجعي ، رغم الاصل البروليتاري والصفة البروليتارية لاعضاء هذه الحكومة ، ورغم أنهم « يؤيدون » الاشتراكية ...

نقلاً عن الكتاب المذكور

فصل « المسألة الوطنية والكولونيالية »

ملاحظة : يلاحظ القارىء ان الموقف من البرجوازية المصرية التي هي « ضد الاشتراكية » ، على حد تعبير ستالين ، يختلف عما ورد سابقاً في صيغة لينين وروي : راجع الملحق رقم ٢ . أ . م .

٥ ـ حول تأريخ تأسيس الحزب الشيوعي في سورية ولبنان

ليس من السهل تحديد موعد تأسيس الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، نظراً لتناقض المراجع الحزبية الرسمية :

فقد جاء في جريدة **الصرخة** اللبنانية في معرض حديثها عن حياة خالد بكداش بمناسبة الانتخابات النيابية ان الحزب قد « نشأ » (؟) في عام ١٩٣٠ . (الصرخة ١٩٥٤/٩/١٩) .

بينما « كتبت **صوت الشعب** في عددها الأول (١٩٣٧/٥/١٥) تقول : « وان « صوت الشعب » هي صوتك ، صوتك الرنان الداوي منذ ١٧ عاماً » ، مرجعة بذلك تأسيس الحزب الى عام ١٩٢٠ ، موعد ظهور عصبة سبارتاكوس الأرمنية .

وأكد **خالد بكداش** في خطاب ألقاه في مكتب الحزب بدمشق بتاريخ ٤ نيسان ١٩٣٨ « ان الحركة الشيوعية قد نشأت في بلادنا منذ عام ١٩٢٤ » (صوت الشعب ، ١٩٣٨/٤/٩) .

وأكد **خالد بكداش** نفسه في الخطاب الذي ألقاه باللغة الفرنسية في قاعة فندق نورماندي ببيروت في شباط ١٩٤٤

« ان حزبنا ... قد شارك خلال الخمسة عشر عاماً لوجوده في كل المعارك الوطنية للشعب السوري والشعب اللبناني» (كراس الميثاق الوطني للحزب الشيوعي في س . ول . ، باللغة الفرنسية، ص ٢٦) ، وهذا يرجع ظهور الحزب الى عام ١٩٢٩ .

ترى ، هل تعمد القيادة في يوم من الأيام الى وضع موجز رسمي عن تاريخ الحزب ؟

٦ ــ الحزب الشيوعي الفرنسي حتى عام ١٩٣٥

عقد الحزب الاشتراكي الفرنسي مؤتمراً في مدينة تور عام ١٩٢٠ ، وأقرت الأغلبية الموافقة على شروط الاممية الثالثة والانضمام اليها واتخاذ اسم « الحزب **الشيوعي** الفرنسي » (بينما ظلت الأقلية تشكل الحزب الاشتراكي) .

وقد خاض الحزب الجديد صراعاً داخلياً ضد العناصر الاصلاحية ، والفوضوية ــ النقابية ، والماسونية ــ الانسانية ، وجماعة باربيه ــ سيلور ، وغيرها .

وقد تشكى لينين مراراً من أن الاحزاب التي انضمت الى الكومنترن ما زالت « اممية في الاقوال وقومية في الافعال » ولا تقوم بأي عمل جدّي لمساعدة شعوب المستعمرات . وشهد الحزب الشيوعي الفرنسي صراعاً حاداً بين الاتجاه الثوري الاممي والاتجاه الانتهازي الاستعماري في صفوفه أدى الى إقصاء لوي سيليه وادانة موقفه الانتهازي من قضية الجزائر وابداله في منصب السكرتير العام بالمناضل الثوري الاممي بيار سيمار .

ونظّم الحزب الشيوعي الفرنسي أعمال التضامن مع ثوار الريف وثوار سوريا ١٩٢٥ — ١٩٢٦ .

وكان بيار سيمار صديقاً للعرب وصديقاً للأمير عبد الكريم .

« ولم يوّفر الدسّ والافتراء هذا القائد الذي كان عدواً للاستعمار قولاً وفعلاً . فكانت الدعاية تصوّره شخصاً مريباً « لعله مدسوس من قبل البوليس » ، حينما كان الاختيار قد وقع عليه لتسلم مركز السكرتير العام للحزب ، خلفاً للسكرتير السابق الذي أقصي بسبب موقفه العرقي — الاستعماري » (نقلاً عن كتاب عمار اوزيغان ، الجهاد الأفضل) .

وفيما بعد ، أصبح موريس توريز السكرتير العام الجديد للحزب . وقد استشهد بيار سيمار في المقاومة الوطنية الفرنسية ضد الاحتلال النازي .

الفصل الثاني

١ — الحزب الشيوعي السوري يطلب الانضمام الى الكتلة الوطنية

آ - كيف تكون الامة صفاً موحداً منظماً .

من مقال بقلم خالد بكداش ١٩٣٧

تشغل الآن مسألة وحدة الصفوف محلاً أولياً في السياسة السورية .

ويعتقد بعض اخواننا الوطنيين ان المسألة ليست موضوع بحث من الاساس، فالصفوف كما يقولون ملمومة والكلمة موحدة. ولكننا لا نعتقدهم مصيبين كل الاصابة فيما يذهبون اليه . نعم إن الاكثرية الساحقة للامة السورية ، بل الامة السورية كلها (عدا نفر قليل باعوا انفسهم للاستعمار وأصبحوا له أعواناً مباشرين فخرجوا بذلك عن الامة) مجمعة على وجوب العمل في سبيل حقوقها الوطنية واستقلالها ...

اما الاساس الوحيد الذي يمكن ان تقوم عليه الآن ، حسب

اعتقادنا ، وحدة الكلمة فهو : العمل لأجل حماية العهد الوطني الجديد ونجاحه ، بل نحن لا نتصور اساساً مباشراً لوحدة الصفوف في المرحلة الحاضرة غير هذا الاساس .

اما الشكل الذي يمكن ان يتم عليه تنظيم الاتحاد فمسألة سهلة ما دامت الغاية واضحة والنيات خالصة ، ما دام العمل لنجاح العهد الوطني رائد الجميع .

ولا نعتقد ان بين الهيئات السياسية وبين اخواننا الزعماء الوطنيين والقواد والمجاهدين من يرفض ان تكون الكتلة الوطنية نفسها شكلاً لهذا الاتحاد المنظم فتنضم اليها كل الهيئات والاحزاب والجماعات المجمعة على نجاح هذا الدور الوطني ، على ان تعين بوضوح وبصورة ملموسة الأهداف والواجبات المباشرة المتفق عليها ، فتنظم الجهود لتحقيقها ويتم الاتحاد والتعاون بين الجميع في قلب الكتلة الوطنية نفسها على أساس ديمقراطي صحيح منظم !

وأملنا أن تتضح قريباً هذه الحقيقة أمام اخواننا الكتلويين واخواننا المجاهدين، فيسود الاستقرار والتنظيم حركتنا الوطنية وتنصرف البلاد الى العمل المثمر والاصلاح الذي ينتظره الشعب.

صوت الشعب ١٩٣٧/٦/١٩

ب – الشعب يطلب اتحاداً وطنياً منظماً
من مقال بقلم خالد بكداش – ١٩٣٨ .

.... وأعلنا ان حزبنا مستعد للانضمام الى الكتلة الوطنية على اساس ديمقراطي لأجل ان تنتظم جهوده مع جهود الاخوان

الكتلويين وذلك دون ان يكون لنا وراء ذلك أي مطمع حزبي خاص واية غاية في الوظائف وما اليها... بما ان الكتلة الوطنية هي الهيئة السياسية التي تستند الحكومة مباشرة على تأييدها في ممارسة الحكم ، فقد يحلو لبعض الدساسين ان يعمدوا الى تضليل الرأي العام ، فيزعمون ان الشيوعيين يطلبون الدخول في الكتلة لغايات حزبية او لغايات توظيفية يأملونها من الحكومة الوطنية ...

وليس اتحاد الأمة السورية مسألة شعور وعواطف فقط ، فهي مسألة تفرضها الضرورات الاقتصادية والاجتماعية نفسها . فوطأة السياسة الاستعمارية نازلة بكل الأمة السورية وليس هناك سوى بضعة أنفار نجح الاستعمار في شرائهم وافسادهم .

فمن الوجهة السياسية : كل الأمة السورية يستعبدها أجنبي ، ويمنعها من بناء كيانها الوطني والتمتع باستقلالها ...

ومن الوجهة الاجتماعية : كل الأمة السورية تقاسي اسواء سياسة الاستعمار ...

... فعندما ندعو الى اتحاد الأمة السورية وتنظيم العمل المشترك في الميدان الوطني فاننا نحن واثقون باننا بالغون هذه الأمنية .

صوت الشعب ١٩٣٨/٤/٦

٢ ـــ قضية فلسطين

في مرآة خالد بكداش وسليم عبود . ١٩٣٧

آ – من كتاب خالد بكداش
الى مؤتمر بلودان من اجل قضية فلسطين

... فكل العرب وكل القوى الديمقراطية الشريفة في العالم العربي لا يمكن الا ان يؤيدوا مطاليب الشعب الفلسطيني وهي :

١ – رفض تقسيم فلسطين رفضاً باتاً .

٢ – وقف الهجرة الصهيونية .

٣ – منع بيع الاراضي .

٤ – اقامة نظام دستوري ديمقراطي يضمن انتشار السلام والهدوء في فلسطين .

صوت الشعب ١٩٣٧/٩/١٥

ملاحظة : لا يجد القارىء في كتاب خالد بكداش أي ذكر لقضية الاستقلال والجلاء والغاء الانتداب البريطاني . أ . م.

ب – كيف يمكن حل المشكلة الفلسطينية
من مقال بقلم سليم عبود ،
عضو اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية

... أما العرب فعندما يرفضون مشروع التقسيم يقدمون بالوقت نفسه مشاريع عمرانية مقابلة . فهم يطلبون وضع حد للسياسة الامبراطورية الاستعمارية ، واعطاء سكان فلسطين العرب واليهود أيضاً حقوقهم الديمقراطية المحرومين منها ، وتشكيل مجلس يتألف من ممثلي الشعب لأجل التشريع بشكل ديمقراطي وبدون قيد فيما يختص بتقسيم الاراضي والهجرة وجميع الأمور وفقاً لمصلحة جميع سكان فلسطين ...

وهنالك مشروع عربي آخر يستحق الذكر هو مشروع الأمير محمد علي وصي العرش المصري الذي جاء مطابقاً لمشروع الشخصيتين النافذتين في العالم اليهودي ، السر هربرت صموئيل رئيس حزب الاحرار في بريطانيا العظمى والمفوض السامي البريطاني الأول في فلسطين ، والدكتور ماينتس رئيس جامعة القدس العبرية سابقاً . ويرمي هذا المشروع الى ضم فلسطين وسوريا وشرقي الاردن الى حكومة ديمقراطية موحّدة حيث يصبح اليهود أقلية وطنية لها نفس الحقوق التي لغيرها . وهو حائز على تأييد جميع الوطنيين في العالم العربي . وان احدى ميزات هذا المشروع هو انه لا يضمن التعاون والصداقة بين اليهود والعرب فحسب بل هو يخفف اخطار الحرب في البحر المتوسط الشرقي – ذلك ما لا يستطيع احد إنكاره – ويخلق

بلاداً تحبّذ قضية السلم العالمي وحليفاً جديداً للامم الديمقراطية ، فرنسا وانكلترا بنوع خاص ، في نضالهما ضد الحرب والفاشستية .

صوت الشعب ١٩٣٧/١٢/٢٣

ملاحظة : إن سليم عبود يحبّذ إقامة سوريا كبرى تحت حماية بريطانيا أو بريطانيا وفرنسا (بدون لبنان) . أ. م.

٣ — من خطاب موريس توريز
في الجزائر . شباط ١٩٣٩

نحن الشيوعيين لا نقر بوجود العروق العنصرية ، نحن لا نريد أن نعترف بغير الشعوب ... أليس ثمة بينكم هنا الأبناء المتحدرون من تلك العشائر النوميدية القديمة ، التي كانت قد بلغت في تلك الأيام مرتبة معينة من التمدن ، حتى أنها استطاعت أن تجعل من أراضيها اهراء لروما القديمة . أليس ثمة بينكم أحفاد أولئك البربر الذين أعطوا للكنيسة الكاثوليكية القديس أوغسطين ، أسقف هيبون ، كما أعطوا في الوقت نفسه المنشق دونات. أليس بينكم الآن أحفاد أولئك القرطاجيين، والرومان، وجميع أولئك الذين أسهموا طوال قرون وقرون في ازدهار حضارة لا نزال نشهد آثارها حتى اليوم ... وكذلك فبينكم الآن أبناء أولئك العرب ، الذين جاؤوا إلى هذه البلاد وراء راية النبي ، وكذلك أبناء الأتراك الذين اعتنقوا الاسلام والذين جاؤوا فاتحين جدداً . إن جميع هؤلاء انصهروا على أرضكم الجزائرية ، وانضم إليهم اليونان ، والمالطيون ، والاسبان ،

والطليان ، والفرنسيون ...

ثمة أمة جزائرية آخذة في التكوّن ، هي أيضاً ، في انصهار أجناس مختلفة ...

وإن جهود الجمهورية الفرنسية يمكن ان تسهّل وتساعد على تكوّن الأمة الجزائرية ...

نقلاً عن (موريس توريز، ابن الشعب،
ليون فيكس، الجزائر حتف الاستعمار) .

ملاحظات : ١ . يتصور موريس توريز ، في حماسه لتعدد الأجناس ، أن النوميديين والبربر شعبان مختلفان جوهرياً . ٢ . ولا يعلق في حديثه عن الفتح أية أهمية على اختلاف أثر الفتح الروماني والفتح العربي . ٣ . وهو لا يلتفت ولو بكلمة الى الفوارق الاقتصادية واللغوية والنفسية والثقافية بين العرب والفرنسيين في الجزائر .

أ . م .

٤ ــ العرب وأبحاث ستالين في المسألة القومية

مقدمة لكتاب « طريق الاستقلال »

بقلم خالد بكداش . نيسان ١٩٣٩

[هذه المقدمة تكاد تكون المؤلف النظري الوحيد الذي وضعه زعيم الحزب الشيوعي السوري في مسألة يعتبرها مسألة المسائل . لذا رأينا ان نقدم في الصفحات الآتية **القسم الأكبر** من هذه الدراسة ، التي لم يجد الحزب فائدة من اعادة نشرها ، رغم طابعها النظري والتثقيفي — لعلها تعطي صورة كافية عن **النهج الفكري** لما يمكن ان نسميه الستالينية العربية . وقد وضعنا ملاحظاتنا المرقمة في أسفل الصفحات] .

يقول خالد بكداش :

في هذا الكتاب أربعة أبحاث لستالين وبحث لموريس توريز . وهي جميعها تدور حول قضيتين : القضية القومية ، اي قضية نشوء القوميات والامم الحديثة ومراحل تطورها وتكونها والعلائم التي تميز كل امة من الامم . ثم قضية المستعمرات ونضال

الشعوب المظلومة في سبيل حريتها الوطنية واستقلالها [1] .

ولسنا نريد من هذه المقدمة ايضاح هذه الابحاث . فان ستالين ، شأنه في كل ما يكتب ، يحيط بالموضوع احاطة تامة ويشرحه بعبقرية وقوة وبساطة لم ير العصر الحديث مثيلاً لها على الاطلاق [2] . فلسنا نريد سوى الاشارة الى النقاط الرئيسية التي تهم القارىء العربي في كل بحث من هذه الابحاث ، ساعين جهدنا للوصول الى بعض نتائج عملية تتعلق بنضال العرب الحاضر في سبيل حريتهم الوطنية واستقلالهم .

البحث الاول : في تعريف الامة

البحث الاول « في تعريف الامة » هو قسم من مقال كبير كتبه ستالين في اواخر ١٩١٢ واوائل ١٩١٣ . وقد أجاد الناشر في اختيار هذا القسم وتعريبه نظراً للغموض المنتشر انتشاراً هائلاً في بلادنا حول قضية الامة وتعريفها والعلائم التي

---

١ – ان تعريف بكداش للقضية القومية خاطىء بالتأكيد . وقد كتب ستالين مراراً ان القضية القومية وقضية المستعمرات غدت ، بعد الحرب العالمية الأولى وثورة اوكتوبر الاشتراكية ، مسألة واحدة تسمى في العرف الماركسي – اللينيني « المسألة القومية والكولونيالية » . إن بكداش يدفع الميل الى الفصل والعزل الى أقصى حد .

٢ – في مديح ستالين ، يفوق بكداش جميع زعماء العصر الستاليني بما فيهم توريز وراكوشي وخوجه . هذا ما يمكن ان نلاحظ في مطالعة كتاب « خطب رؤساء وفود الاحزاب الشيوعية الاجنبية في المؤتمر التاسع عشر للح . ش . ا . س . ١٩٥٢ » .

تميّزها .

فكثيراً ما تجد كاتباً عربياً واحداً ، يعطيك تعاريف مختلفة للامة في مقالات مختلفة : فقد تراه في هذا المقال يقول بأن الوضع الجغرافي والبيئة هما العنصر الأساسي الرئيسي الذي يميز الأمة ، ثم تراه في مقال آخر يقول بأن اللغة المشتركة وحدها تكفي لتكوين الامة ، اي ان كل الافراد الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون « أمة واحدة » ، ثم تجده نفسه في مقال ثالث ، يؤكد بأن وحدة الآمال او « النفسية المشتركة » هي العنصر الأساسي الذي يميز امة من الأمم [1] . ويحدث أحياناً ان بعض الساسة يحرّفون بين يوم وآخر تعريف الأمة في سبيل مأرب من المآرب السياسية ، مستفيدين في ذلك من الغموض المنتشر بين جماعات المثقفين والطلاب [2] . وأذكر انني كنت مرة مع بعض شباب العرب في دمشق نبحث في تعريف « القومية العربية » ، فاقترح أحدهم التعريف التالي : « القومية العربية هي مظهر الشعور الشامل للشعب القاطن في البلاد العربية المرتبطة بجامعة اللغة والتاريخ والثقافة والبيئة الجغرافية والآلام والأماني » . فاحتج احد الحاضرين على كلمة « البيئة الجغرافية » قائلاً بأن وضعها

---

١ – لا ريب ان « القومية » باتت عندنا موضوع انشاء . ولكن يبدو أن بكداش يبالغ ... ليته ذكر اسم الكاتب الذي تقلب على هذا الشكل .

٢ – هل أصبح «تعريف الامة» مسألة المسائل ومحور المآرب والمصالح؟ رأينا في مطلع البحث كيف أن بكداش عزل « القضية القومية » عن قضية « نضال الشعوب المظلومة » ، وخفضها الى مسألة تعريف و« علائم » .

يخرج من القومية العربية سكان أفريقيا الشمالية الذين يفصلهم وضعهم الجغرافي فصلاً تاماً عن سكان الشرق العربي . ثم اقترح آخر حذف كلمة « التاريخ » أيضاً اذ ان ذلك « يخلق بعض المشاكل ، لأن للعراق مثلاً تاريخاً يختلف عن تاريخ سوريا او مصر » . وكان لهما ما اراداه [١] . ومن الواضح ان التعريف المقترح القائل بأن « القومية العربية هي مظهر الشعور الشامل الخ ... » ، هو تعريف باطل من أساسه ولا يدل على شيء [٢] . ولكن كثير من الحاضرين لم يعلقوا عليه أهمية كبرى ، وكانوا يريدون الانتهاء منه كيفما كان الأمر ، حتى ينتقلوا الى البحث الاساسي حول الأهداف العملية للحركة القومية العربية ، اى حركة التضامن بين العرب على اختلاف أقطارهم [٣] .

وقد أوردنا هذا المثال ليرى القارىء بان اكثر ساستنا وكتابنا لا يزالون بعيدين كل البعد عن بحث قضايانا الوطنية على ضوء العلم ، ويعتقدون مثلاً بان اجماعهم على حذف كلمة « الوضع

---

١ — لقد سقط الخصوم من «الشباب العرب» بتضارب آرائهم ، وانتصر بكداش : حقاً « إن الفأر لا يعرف حيواناً أقوى من الهر » . والحال ، إن الفأر والهر يفكران ميتافيزياً : الاختلاف ينفي الوحدة ، والوحدة لا يمكن أن تكون الا تماثلاً مطلقاً .

٢ — هكذا يتخلص خالد بكداش من اعطاء «تعريف علمي» ، وتسقط فكرة القومية العربية « من أساسها » ، لتفسح المجال لفكرة الامة السورية .

٣ — هل هذا هو « كل» محتوى الحركة القومية العربية ؟ وهل هذا رأي « الشباب العرب » فعلاً ؟

الجغرافي » [١] من التعريف ، يؤدي فعلاً الى إلغاء أثر الوضع الجغرافي في تطور الامم وتكونها ولا يلاحظون بانهم في اعتقادهم هذا أشبه بالنعامة تخفي رأسها حتى لا ترى العدو وتظن بان أيضاً لا يراها ما دامت هي لاتراه [٢] .

فالوضع الجغرافي الذي يفصل بين سوريا والجزائر أو بين العراق ومصر [٣] سيظل فاصلاً بينهما ، وهو قد أثر ويؤثر وسيؤثر على تطور كلا القطرين وعلى ثقافة كل منهما وحياته الاقتصادية وعقليته وبنيانه النفسي ، سواء وضعوا كلمة «الوضع الجغرافي » في التعريف أم لم يضعوها . ولم يلحظ كذلك صاحبا الاقتراحين المذكورين ، أن اللغة المشتركة ووحدة الآمال والاماني ، اللتين أرادا بقاءهما وحدهما في التعريف ، لو كانتا كافيتين لتأليف الأمة ، لأصبح الانكليز واميركيو الشمال أمة واحدة بالرغم من محيط الاطلنطيق الواسع الذي يفصل بينهما .

---

١ — إن ستالين لم يذكر في تعريفه «الوضع الجغرافي» (المناخ والامطار والتضاريس والمناطق الطبيعية الخ ..؟) بل « الارض المشتركة » (وحدة أرض الوطن : رقعة من الأرض متصلة على امتداد واحد) ...

٢ — إن من ينسى اختلاف « الوضع الجغرافي » يشبه النعامة . ولكن من يتجاهل « الأرض المشتركة » ينكر « الشمس الساطعة في رائعة النهار».!

٣ — الغموض المتعمد في مفهوم « الوضع الجغرافي » يبلغ هنا أشده . وهذه الطريقة في الجمع اللفظي بين قطرين متباعدين — سورية والجزائر ، العراق ومصر — تؤدي وظيفة اعدام فكرة الأرض المشتركة نهائياً . وبهذه الطريقة، يكون من الواجب اسقاط هذه العلامة من كل تعريف ستالين ، ذلك لأن ما فعله بكداش بأرض الوطن العربي يمكن فعله بأرض أي وطن آخر .

اذ ان كلا الشعبين يتكلمان اللغة الانكليزية ولهما – اي للشعبين لا للحكومتين – آمال وأمان واحدة هي : بلوغ حياة تؤمن لهما السلام والحرية والخبز [1] .

من هنا يتبيّن بوضوح ان مقال ستالين في تعريف الأمة وتحديد العلائم التي تميزها ، ذو أهمية كبرى لتنوير أذهان العرب حول القضايا التي يجابهونها تبعاً لخصائصهم القومية التي تكونت وتتكون فيهم في كل قطر من أقطارهم .

يقول ستالين في تعريف الأمة :

« الأمة جماعة ثابتة من الناس ، مؤلفة تاريخياً ، لها لغة مشتركة وأرض مشتركة وحياة اقتصادية مشتركة ، وتكوين نفسي مشترك يجد تعبيراً عنه في الثقافة المشتركة » .

ثم يقول : « إن كل علامة من العلائم التي ذكرناها لا تكفي لتعريف الأمة إذا هي أخذت منعزلة ، بل نذهب الى أكثر من ذلك فنقول : يكفي أن تنعدم علامة واحدة من هذه العلائم حتى تنقطع الأمة عن كونها أمة » .

[هنا يحمل خالد بكداش على النظريات الفاشستية، العرقية،

---

١ – تلك آمال وأماني جميع الشعوب ! فاذا كان التكوين النفسي المشترك ، الذي ذكره ستالين بين العلائم التي تميز الامم ، لا يعني سوى هذه الآمال والأماني (وسبق لبكداش ، في معرض تهكمه على الكاتب العربي المتقلب ، أن وضع علامة التعادل بين المفهومين) ، عندئذ كان من الأجدر بالتلميذ السوري أن يشك « بعبقرية وقوة وبساطة » معلمه الجيورجي الذي أدخل التكوين النفسي بين العلائم القومية المميزة .

الطورانية ، الصهيونية ، ويثني على مقال موريس توريز « الذي يشرح كيف تكوّنت الأمة الفرنسية »[1]] .

البحث الثاني : مراحل تطور القضية القومية

البحث الثاني ، وهو قسم من التقرير الذي قدّمه ستالين أمام المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي في ١٠ آذار ١٩٢١ ، يتناول مراحل تطور القضية القومية ، وهي ثلاث : المرحلة الأولى، هي مرحلة نشوء الرأسمالية وتطور الصناعة والمواصلات، وفيها أخذت تتكوّن الأمم . فقبل هذه المرحلة ، أي عندما كان النظام الاقطاعي هو النظام السائد ، لم يكن في الدنيا « أمم » . فقد كان كل قطر من أقطار الدنيا مفككّ الأجزاء ، ولكل جزء شبه استقلال اقتصادي وسياسي ، يسيطر عليه إقطاعي او أمير. ثم بدأت الصناعة الرأسمالية وطرق المواصلات

---

١ – الحملة على الطورانية والصهيونية « تعوض » في ذهن الاعضاء والقراء عن موقف الحزب من قضيتي الاسكندرون وفلسطين .

ولم تكن النزعة الطورانية أو الصهيونية بالطبع تؤثر على الشباب العربي . اما الشكل الآخر للمنصرية – الفلسفي المصعد Sublimée – والذي أصاب ويصيب بعض قطاعات من المثقفين العرب ، فما كان في قدرة زعيم الحزب وكتابه ان يتعرضوا له : ليس بسبب الجهل وحسب ، بل أيضاً وخاصة لأنهم لا يقفون على أرض صلبة .

إن مقال توريز عن نشوء الأمة الفرنسية يتفق في أذهان المثقفين وأصدقاء الحزب مع ما قرؤوه في مدارس ذلك العهد في « موجز تاريخ فرنسا » أما الجماهين الشعبية فهي في واد آخر .

تتطوّر في الغرب وبدأت الاقطاعية تندثر ...

ولكن كيف نشأ الاضطهاد القومي ؟ كيف نشأ اضطهاد إحدى الأمم لأمة او لأمم وشعوب وقوميات أخرى ؟ فقبل نشوء الأمم ، أي قبل نشوء الرأسمالية واندثار الاقطاعية ، لم يكن هنالك اضطهاد قومي إذْ لم يكن هنالك أمم وقوميات . فكيف بدأ الاضطهاد وكيف تطوّر ؟

نشأ الاضطهاد القومي، أي نشأت المسألة الوطنية ، كنتيجة لاختلاف درجات التطور الرأسمالي واتجاهاته في مختلف الأقطار [1] ...

أما المرحلة الثانية فتبدأ مع دخول الرأسمالية في عهد الاستعمار (الامبرياليزم) ...

أما المرحلة الثالثة في تطور القضية القومية ، فهي تبدأ عام ١٩١٧ ، عند انتصار الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي...

... وهكذا نرى ، بعد بحث هذه المراحل الثلاث ، ان الرأسمالية التي أنجبت الأمم الحديثة ، هي التي أنجبت الاضطهاد القومي أيضاً ، أي اضطهاد أمة لأمم وقوميات أخرى . فما

---

١ – تعريف المسألة الوطنية بانها مسألة الاضطهاد القومي يختلف تماماً مع ما جاء في مطلع المقدمة .

إن كل هذا القسم يزيد التبسيط تبسيطاً والتشويه تشويهاً : التاريخ كله يخرج من « صيغة » . كم تنطبق فكرة «اختلاف درجات التطور الرأسمالي» على الاضطهاد القومي الذي مارسه الاتراك مثلاً في البلقان وفي البلاد العربية !

دام هنالك نظام رأسمالي يكون هنالك اضطهاد قومي ، ولا يمكن القضاء على هذا الاضطهاد القومي إلاّ بالقضاء على الرأسمالية وبناء النظام الاشتراكي [1] ...

ويلاحظ القارىء بسهولة ، بعد قراءة البحثين الأول والثاني، ان نشوء الأمم وتطورها لم يسيرا بسرعة واحدة في كل الدنيا : فبينما أن بعض الأمم تكوّنت تماماً في الغرب كانت شعوب آسيا وافريقيا لا تزال في عهد الاقطاعية ولم تتكون بعد في أمم ، ولما بدأ التطوّر الرأسمالي في هذه الأقطار المتأخرة ، كانت الرأسمالية في الاقطار الأوروبية تدخل في دور الاستعمار (الامبرياليزم) فاستعمرت الدول المتقدمة هذه الشعوب المتأخرة في آسيا وإفريقيا ، وعرقلت بكل الوسائل تقدّمها وتكوّنها في أمم .

فأمتنا في سوريا العربية[2] مثلاً منعتها سيطرة الاستعمار من السير بسرعة في طريق التكوّن . وهي ، ان تكن قد تقدمت في هذا الطريق، فقد كان تقدمها بطيئاً تحيط به صعوبات كبرى

---

١ – التبسيط يبلغ أشده : العلاقة، في النشوء والسقوط ، بين الرأسمالية والاضطهاد القومي تصبح علاقة ذات اتجاه واحد : فلينتظر الشعب السوري سقوط الرأسمالية الفرنسية (بل بناء الاشتراكية) على يد ليون بلوم او دالاديه !

٢ – ما هو السبب في ان بكداش يستعمل هذه الصيغة الجديدة « أمتنا في سوريا العربية » بدلاً من تعبير « الامة السورية » الذي ورد في مقالاته في صحيفة صوت الشعب ؟ لعله يعتقد أنه ، سوف تتكون في سورية ، أمة سورية – عربية ، وقوميات أخرى من الأقليات ؟

لأن الرأسمالية الاستعمارية الاجنبية من خصائصها عندما تسيطر على قطر من الاقطار ان تحافظ فيه على الاقطاعية والتجزئة والنزاع الديني[١]، فتعرقل بذلك تكوّن الأمة المستعمَرة. فأمتنا لا تزال في طريق التطور والتكوّن أي في طريق استتمام العلائم التي تميز الأمة. ويتوقف مستقبل هذا التطور والشكل الذي سينتهي اليه على عدة عوامل خارجية وداخلية[٢]. وقد رأينا في المعاهدة السورية – الفرنسية خطوة للامام من ناحية سيرنا في طريق التطور القومي أيضاً، لأنها اذا تنفذت تقيم دولة متمركزة، وتضعف نفوذ الاقطاعية الرجعية في مختلف المناطق، وتؤدي الى تلاحم اجزاء الوطن وتقوية العلاقات الاقتصادية والثقافية فيما بينها، أي تسهّل إتمام وحدة الوطن وتكامل الأمة[٣].

---

١ – ان دور الاستعمار لا يقتصر على ذلك، بل يتعداه الى تحويل اقتصاد البلد المستعمر الى اقتصاد كولونيالي تابع وبالتالي الى تعميق التجزئة في الوطن العربي. ذلك لا يهم بكداش: إن تعريف ستالين للأمة قد ألغى تحليل لينين للامبريالية.

٢ – هل يمكن ان تنشأ في «سوريا العربية» عدة أمم وقوميات؟ هل يمكن ان تؤدي العوامل الخارجية والداخلية الى تناثر الأمة السورية؟ لنتابع النص ...

٣ – (تابع لـ ٢) هذا ما يمكن أن يحدث فعلاً اذا لم تتنفذ المعاهدة السورية – الفرنسية: إن «اجزاء الوطن» سوف تتناثر الى قوميات مختلفة في دمشق وحلب، والجزيرة، والعلويين، والدروز. على كل حال، يبدو أن «عدة عوامل خارجية وداخلية» أدت حتى الآن الى خروج الاسكندرون من الامة السورية ...

البحث الثالث: موقف الشيوعيين من الحركات الوطنية.

بعد ان عرفنا ما هي الامة، وكيف نشأ الاضطهاد القومي، وكيف تطوّرت أشكاله خلال التاريخ، يبقى علينا ان نعرف حلول المسألة الوطنية، اي السبل والطرق العامة المؤدية الى تحرير الشعوب المظلومة من نير الدول الاستعمارية الحاكمة. وهذا ما يشرحه ستالين في البحثين الثالث والرابع المنشورين في هذا الكتاب. وهما في الأصل جزءان من محاضرة كبرى ألقاها ستالين في اوائل نيسان ١٩٢٤ في جامعة سفردلوف في موسكو وعنوانها «مبادىء اللينينية» ...

...فالشيوعيون يؤيدون الحركات الوطنية في المستعمرات ما دامت حركات تحريرية ثورية تضعف الرأسمالية الاستعمارية، بصرف النظر عن طبيعة العناصر التي تقود هذه الحركات ....

ولكن ليس معنى ذلك ان الشيوعيين يؤيدون كل حركة وطنية كيفما كانت وفي كل الظروف والأحوال. انهم يؤيدون تلك الحركات التي تؤدي عملياً الى زعزعة سيطرة الاستعمار. فهنالك حركات تسمي نفسها «وطنية» مع انها تؤدي في الواقع الى تثبيت سيطرة الاستعمار. اي انها مثلاً تحارب سيطرة دولة استعمارية معينة وتعمل لتثبيت سيطرة دولة استعمارية أخرى أفظع منها وأهول ...

ونحن الشيوعيين العرب، نحارب كل جماعة في بلادنا تمد يدها الى هتلر وموسوليني، بحجة طلب «مساعدتها» للتخلص

من إرهاق الاستعمار الفرنسي والإنكليزي [1]....

فنحب أن يعلم هتلر وموسوليني ان عملاءهما يخدعونهما . فالعرب لن يكونوا مطية لهما . بل ان العرب – اذا خيّروا بين أمرين – يكرهون الفاشستية الطليانية والالمانية اكثر من كرههم كل استعمار آخر ، وهم ، في حالة حرب ، لن يكونوا الا في معسكر القوى التي تحارب الدول الفاشستية [2] ...

البحث الرابع : كيف تحلّ المسألة الوطنية

... الشيء الأساسي هو تأمين الاتحاد بين الحركة الوطنية في المستعمرات وحركة العمال في الغرب، ومحاربة الأفكار الضيّقة عند بعض المناضلين في المستعمرات، الذين لا يرون أبعد من أنوفهم وينحصرون في يومهم الحاضر، « ولا يرون إلا مصالحهم الوطنية المباشرة ، ولا يريدون أن يفهموا ارتباط الحركة التحريرية في

١ – ان أول هؤلاء الذين يمدون يدهم الى موسوليني وهتلر كانوا القوميين السوريين ، ولكن بكداش لا يفتح ضدهم اية معركة على صعيد « المسألة القومية » . ولن يجد قراء العربية أي صراع فكري بين فرسان الامم السورية الصغرى وفرسان الامة السورية الكبرى : ان القيادة الشيوعية السورية تحرم النضال الفكري ضد « عصابة الفاشست العملاء » ! تبرير غريب : فالاحزاب الشيوعية الاوروبية (بولتزر ، لوكاكش ...) خاضت مثل هذا النضال ضد « نظريات » هتلر وروزنبرغ وموسوليني .

٢ – ألم يكن من الأفضل والأبسط مساندة الاتحاد السوفياتي والدول التي تحالفه في المعركة ضد الفاشية ، دون اقحام تعريف ستالين و « الابحاث النظرية » ؟ الا أن بكداش يريد التعاون مع « فرنسا الديمقراطية » مباشرة وبدون وسيط . لنتابع النص .

بلادهم بحركة العمال في البلاد الحاكمة المسيطرة » .

ولكن المسألة لا تقتصر على الاتحاد مع حركة العمال والحركة الشعبية في الغرب. فقد تقضي مصلحة النضال الاستقلالي بالسعي للتحالف مع احدى الدول القوية ، فلو نظرنا الى العالم في الوقت الحاضر مثلاً ، لرأينا كما قدمنا ان الخطر الاساسي على كياننا الوطني ، نحن العرب ، مصدره ايطاليا والمانيا الفاشستيتان اللتان تعملان للتوسّع والامتداد ، وتقومان بهجوم استعماري شديد ، هدفه الرئيسي على الشرق الادنى والبلاد العربية ، سوريا والعراق ومصر وفلسطين بوجه خاص . فهل يكفينا لحماية كياننا الوطني الناشىء ان تتحالف بلادنا مع الدول العربية الأخرى كالعراق والمملكة السعودية واليمن ... الخ ، وهي على ما عليه من الضعف ، وتتقاذفها عدا ذلك مناورات ومؤامرات الدوائر الاستعمارية المختلفة ؟ كلا ! لا يكفي . بل إن مصلحتنا الوطنية تقضي علينا بأن نوطّد عرى التحالف مع احدى الدول الديمقراطية الكبرى ، وهذه الدولة لا يمكن ان تكون بالنسبة لنا نحن السوريين واللبنانيين الا فرنسا الديمقراطية [1] .

لذلك يضع الشيوعيون في سوريا ولبنان ، وجميع الوطنيين الواعين ، مسألة التحالف السوري – اللبناني – الفرنسي في مقدمة المطالب الوطنية التي تناضل بلادنا في سبيلها ، ويرون

١ – هذا كله يقوله بكداش في نيسان ١٩٣٩ ، بعد تحول حكومة باريس نهائياً نحو اليمين ، وعقدها معاهدة مونيخ ، وسقوط تشيكوسلوفاكيا واسبانيا .

أن أحسن وسيلة لتحقيق هذا التحالف هي عقد معاهدة مع الديمقراطية الفرنسية ، تسمح لبلادنا بتقوية نفسها ، وربط اجزائها ، وتثبيت كيانها الوطني ، وتكون - المعاهدة - سداً منيعاً أمام مطامع الوحش الفاشستي في الشرق الأدنى[1] .

أما الذين يحاربون مبدأ التحالف مع فرنسا، ويسعون بكل الوسائل لعرقلة تحقيقه ، هم : هتلر وموسوليني من جهة ، والفاشست الفرنسيون (اي عملاء هتلر في فرنسا) من جهة ثانية ، وعملاء الرجعية الانكليزية التي تريد الانفراد بالسيطرة على الشرق العربي من جهة ثالثة ، ومع كل هؤلاء بعض الشباب العرب الذين لا يدركون معنى الخطر الفاشستي وأهواله ، ويجمحون وراء رغباتهم الخيالية ، ولا يفهمون ارتباط مصير بلادنا بمصير الحركة الشعبية الديمقراطية في فرنسا وكل بلاد الغرب[2] .

دمشق - اواسط نيسان سنة ١٩٣٩

خالد بكداش

---

١ - قصة المعاهدة كقصة جحا يخطب بنت الملك . ان اقوال بكداش موجهة للسوريين لا لفرنسا الديمقراطية . وفرنسا الديمقراطية، التي تعلم ذلك، تمضي أكثر فأكثر في سياستها الاستعمارية بعد سلخ لواء الاسكندرون .

٢ - هذه البهلوانيات لا تساعد « الشباب العرب » على ادراك حقائق الامور ، ولا تساعد « الحركة الشعبية الديمقراطية في فرنسا » بشيء . بالعكس : انها تدفع الأمور « نحو اليمين » في سورية وفي فرنسا .

٥ - من بيان صادر عن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان - آب ١٩٤٠

فلتسقط الحرب الاستعمارية !
فليسقط الارهاب الاستعماري !

... نريد عملاً وخبزاً! نريد حيادبلادنا واستقلالها !فليسقط الإرهاب الاستعماري !

يا ابناء وطننا الاشاوس : إن سياسة الاستعمار الفرنسي أوصلت بلادنا امام خطر مجاعة أكيدة . فتقنين البنزين يقتل المواصلات ويشلّ التجارة والزراعة ويرمي ألوف السائقين في البطالة ... فكل البلاد تعاني البؤس ولا يتمتع بالهناء إلا موظفو الاستعمار وأصحاب الشركات الاجنبية وكبار التجار المحتكرين ...

يا ابناء سوريا ولبنان ! ان الرأسمالية الفرنسية تريد تعويض خسائرها في الحرب على حسابنا نحن شعوب المستعمرات ، وعلى حساب اخواننا العمال والفلاحين الفرنسيين .

فالى الاتحـاد والتنظيم والنضال ! ولنعلم بان موقف عدونا الاجنبي يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ! فلو نظرنا الى العالم ، رأينـا التناقضات تشتد بين الدول الرأسمالية وتضعضع أسس العـالم الرأسمالي، بينما ان الاتحادالسوفياتي صديق العرب، وكل الشعوب المظلومة ، يزداد قوة ومنعة،ويسير تحت قيادة ستالين العظيم من انتصار الى انتصار ، وكل كلاب الاستعمار العالمي يتراجعون امامه .. فلنطالب بحياد بلادنا واستقلالها ...

آب ١٩٤٠

ملاحظة : هذه الوثيقة (التي نقلناها عن كتاب الحـكم دروزة) تعود لعهد حكومة فيشي الرجعية اليمينية التي كانت سياستها مكافحة الشيوعية و « الجبهة الشعبية » و « اليسار » .
لسوء الحـظ لم نعثر على اي نص من نصوص الحزب الشيوعي السوري يعود للفترة الممتـدة بين أواخر ايلول ١٩٣٩ ، تاريخ تعطيـل صوت الشعب وحزيران ١٩٤٠ تاريخ استسلام فرنسا وبداية عهد فيشي .

أ . م .

٦ ـ سياستنا الوطنية . ليست القضية في نظرنا قضية إقامة نظام اشتراكي في سوريا ولبنان .

(من خطاب ألقاه خالد بكداش باللغة الفرنسية في ملهى البارزيانا ببيروت بمناسبة الانتخابات في اوائل ايار ١٩٤٣) .

إن القضية ليست فينظرنا إقامة نظام اشتراكي في لبنان أو في سوريا ، وان كل ما نطلبه وما سيناضل لأجله نوابنا القلائل في المجلسين النيابيين في سوريا ولبنـــان ، هو ادخال بعض الاصلاحات الديمقراطية التي يتحدث عنهــا الجميع ، والجميع متفقون على ضرورتها ... ونؤكد لاصحاب الأراضي والملاكين اننا لا نطالب ولن نطلب في البرلمان مصادرة أملاكهم وأراضيهم، بل نريد على العكس مساعدتهم بطلب انشاء مشاريع واسعة للري وتسهيل استيراد الأسمدة واستعمال الآلة الحديثة، وكل ما نطلبه مقابل ذلك الرفق بالفلاح واخراجه من حالة البؤس والجهــل ونشر العلم والصحة في القرية . ونؤكد للتجار الكبار اننـا لن نطلب مصادرة تجارتهم مهما كانت كبيرة بل نطلب تسهيل

المبادلات التجارية مع جميع الاقطار العربية المجاورة وكل ما نطلبه وسنطلبه هو وضع حد للربح غير المشروع الآتي عن طريق الاحتكار ... هذه هي مطالبنا الاقتصادية ، أو « الاجتماعية » اذا صح التعبير ، وهي ديمقراطية معتدلة جداً .

صوت الشعب ١٩٤٣/٥/٩

ملاحظة : من الواضح ان هذه المطالب اكثر اعتدالاً بكثير من برنامج الاصلاحات الاجتماعية الذي طرحه الشيوعيون في فرنسا وبلدان اوروبا المحتلة في عهد المقاومة الوطنية ضد النازيين. فالنضال **الوطني ـ القومي** ضد الفاشستية قد اتخذ ، الى حد كبير ، طابع نضال **اجتماعي ـ طبقي** . تلك ليست الحال في سياسة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان .

أ . م .

٧ ـ الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري

الذي أقره المؤتمر الوطني للحزب في أول كانون الثاني ١٩٤٤

١ ـ استقلال سوريا وسيادتها التامة وتحررها الوطني الكامل .

٢ ـ نظام جمهوري ديمقراطي صحيح .

٣ ـ توثيق صلات التضامن الوطني بين الشعوب العربية لتحقيق تحررها الوطني الكامل .

٤ ـ توطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بين سوريا وجميع الاقطار العربية الشقيقة .

٥ ـ بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الأجنبية .

٦ ـ المساواة بين جميع السوريين على اختلاف أديانهم وعناصرهم وتحقيق روابط الإخاء والتضامن بينهم .

٧ ـ تأمين الحريات الديمقراطية العامة والفردية وفي مقدمتها حرية الضمير والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والاحزاب والنقابات وحرية العبادة واحترام عقائد الناس

الدينية .

٨ – تنظيم شؤون الادارة والقضاء بروح ديمقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع .

٩ – تربية النشء تربية وطنية والاهتمام بالرياضة البدنية وتشجيعها ونشر الثقافة في البلاد واحياء التراث الفكري العربي .

١٠ – تعزيز مكانة رجال الفكر والعلم والفن وحماية الاساتذة والمعلمين .

١١ – تعميم المدارس في المدن والقرى وجعل التعليم الابتدائي مجانياً واجبارياً .

١٢ – العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجاناً للمواطنين المعوزين .

١٣ – حماية العائلة السورية من اخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الأم والطفل .

١٤ – رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم مشاريع الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيعها وتحسين المواصلات بين المدينة والقرية .

١٥ – حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم .

١٦ – معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب .

١٧ – حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوي العلاقات بينهم وبين اصحاب العمل على أساس العدل والمصلحة الوطنية .

١٨ – تحرير الفلاح السوري من التأخر والبؤس والجهل .

١٩ – رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة .

٢٠ – توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام .

نشر هذا الميثاق في صوت الشعب

ونشر وشرح في الوثيقة–الملحق٨

ملاحظات : ١ – الشق الاجتماعي في هذا الميثاق يتضمن بندين عن «حماية العمال» و «معالجة البطالة» ويلغي الاشتراكية، ويتضمن بنداً واحداً عن « تحرير الفلاح من التأخر والبؤس والجهل » ويتجاهل مسألة الملكية الاقطاعية الكبرى وقضية الاراضي الاميرية التي ذهبت نهباً لكبار الملاك . انه أقلّ من البرنامج الذي أقرّه آنذاك المجلس الوطني الفرنسي للمقاومة الذي ضمّ الشيوعيين والاشتراكيين والمسيحيين وغيرهم ...

٢ – الشق الوطني يتضمن « بسط السيادة الوطنية على المؤسسات **الاقتصادية** الاجنبية » ، ولكنه يتجاهل موضوع « بسط السيادة الوطنية » **على الجيش والتعليم** .

٣ – هذا الميثاق الجدير بأن يحمل توقيع أي حزب برجوازي عادي قد « أعدِم » بعد سنوات قليلة (كما « أعدِم » النظام الداخلي) .

أ م ٠

الميثاق الوطني للحزب الشيوعي اللبناني

مماثل للميثاق السابق باستثناء ما يلي :

١ – استقلال لبنان وسيادتـــه ، وتعزيز **كيانه القومي** ، وتحرره الكامل (في النص الفرنسي Entité Nationale) .

٧ – ... ونشر الثقافة في البلاد واحيـاء التراث الفكري **القومي** (بدلاً من احيـاء التراث الفكري **العربي** ، في الميثاق السوري – البند ٩ –) .

٨ – من محاضرة ألقاها خالد بكداش في قاعة فندق نورماندي ببيروت في ١٩٤٤/٢/٢٧ باللغة الفرنسية تحت عنوان:

الميثاق الوطني للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان

أيها السيدات والسادة .

في مطلع هذا العـام انعقد في بيروت المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. وقد حضره ١٩٠ مندوباً ، انتـُخبوا من ٥٠ منظمة فرعيـة في الحزب ، وهم يمثلون ٧ آلاف شيوعي منظم .

لقد دعي المؤتمر الى الانعقاد على أثر حل الأمميـــة الشيوعية بوصفها مركزاً دولياً للحركة الشيوعية العالمية . إن هذا الحل قد جعل حزبنا مستقلاً تماماً في إطاره الوطني . فلم تبق له أية صلة مع أي مركز دولي . وقـد تحرر بشكل خاص من الالتزامات الناجمـــة عن النظام الداخلي للأممية الشيوعية وعـن مناهجها وقرارات مؤتمراتها الدولية السابقة .

... لقد دشن مؤتمرنا أعماله بتوجيه برقيّتين إحداهمـا الى

رئيس الجمهورية اللبنانية والثانية إلى رئيس الجمهورية السورية ...
وكذلك أرسل مؤتمرنا أربع برقيات الى رؤساء حكومات الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وانكلترا وفرنسا ...

واستعرض مؤتمرنا نضالنا السابق[١] ودرس حالة بلادنا في الدور الجديد من تطورها القومي والسياسي ...

إن المندوبين الى المؤتمر قد اتخذوا قراراتهم بملء الحرية وبدون أن يستوحوا لندن أو الجزائر أو واشنطن أو موسكو. إنهم لم يستوحوا إلاّ مصلحة وطنهم وشعبهم ...

سوف تلاحظون بأنفسكم أن ميثاقنا ليس ميثاقاً للشيوعيين وحدهم أو لطبقة واحدة معينة . إنه ميثاق جميع الوطنيين المخلصين ، جميع العمال والفلاحين والمعلمين والطلاب والتجار والصناعيين الوطنيين . إنه يريد أن يكون ميثاق الأمة بأسرها [٢] ...

[يشرح المحاضر الميثاق ، فيتحدث عن قضية الاستقلال وموقف الحزب من العهد الوطني . ويعرض موقفه من فرنسا وانكلترا ، ويتحدث عن الاتحاد السوفياتي – حيث يسهب في شرح النظام الفيدرالي للدولة السوفياتية ، وحقوق القوميات ،

---

١ – هذا الكلام فيه تجاوز كبير على الحقيقة . مثلا : لم يرد أي ذكر في المؤتمر عن المؤتمر المنعقد قبل ١٩ عاماً . حتى ان بكداش في محاضرته هذه أعاد نشوء الحزب الى قبل ١٥ عاماً فقط ، ناسياً ما قاله في ٤ نيسان ١٩٣٨ (راجع الملحق ٥ من الفصل الأول) . أ . م .

١ – ما هي إذن الحاجة الى حزب شيوعي ؟ أ . م .

مستشهداً بتصريحات مولوتوف الأخيرة ، وينسى نظام الملكية ، ينسى الاشتراكية – وينتقل الى القضية العربية وكيان لبنان . ثم يتحدّث عن الاقلية الأرمنية فيقول :]

... إن الشيوعيين الأرمن كانوا دوماً في طليعة النضال في هذا الميدان : لقد عملوا دائماً من أجل وحدة الشعب الأرمني ومن أجل الاخاء العربي – الأرمني . وهم اليوم يصافحون بدافع الاخوة أيدي مواطنيهم الطاشناق وسائر المناضلين الأرمن ، دون تمييز حزبي ، الذين يدافعون عن حاضر ومستقبل شعبهم .

إن ما فرّق خلال زمن طويل بين الطاشناق والشيوعيين الأرمن ، هذين التيارين السياسيين الأكثر أهمية في الشعب الارمني ، هو الخلاف على نقطتين رئيسيتين : هما الموقف من الشعب العربي والموقف من أرمينيا السوفياتية [١] . أمّا الآن فهم متفقون على هاتين النقطتين . ونأمل أن يدوم هذا الاتفاق . ومن الطبيعي ان أصدقاءنا الطاشناق يسعون الى تبرير سياستهم القديمة حيال أرمينيا والاتحاد السوفياتي بشكل عام . ولكن تلك مسألة أصبحت طيّ الماضي . يمكن النقاش حولها ، غير أن ذلك لا يمكن ان يمنع النضال المشترك من أجل أهداف المستقبل .

[ثم يتهكّم على « حزب أرمني صغير » قد يكون حزب الهنشاق ... ويعلّق المحاضر على « الاصلاحات الديمقراطية في

---

١ – نقطتان رئيسيتان فعلا ! ولكن ألم يكن هناك نقاط اختلاف أخرى : الجنرال غودريان مثلا ، قائد الدبابات الألمانية ؟ أ . م .

ميثاقنا الوطني » فيقول :]

لدى صياغة الاصلاحات اللازمة لبلادنا ، انطلق ميثاقنا الوطني من المبدأ التالي وهو مبدأ قومي صرف : إن أفراد جميع طبقات سكان بلادنا هم أبناء الأمة . لذا فإن كل مسألة تتصل بحياتهم الثقافية او بوجودهم المادّي هي مسألة قومية تماماً ...

[ثم ينتقل المحاضر الى موضوع الاشتراكية ، مبرراً غيابها من الميثاق على النحو التالي :]

الاشتراكية العلمية تعلمّنا بكل الوضوح اللازم أن قضية الاشتراكية ليست مطروحة أمام الأحزاب الشيوعية في البلدان الخاضعة قومياً والتي لا يزال اقتصادها الزراعي تسيطر عليه مخلفات الاقطاعية والعصور الوسطى ...

... إن المنظّم العظيم باني الاشتراكية على سدس الكرة الأرضية ، الرفيق ستالين ، قد حذّر دائماً من الاتجاه الى تجاهل الشروط الموضوعية التي تحيط بنضال كل من الأحزاب الشيوعية. وفي معرض انتقاده الروح الانعزالية عند بعض المناضلين في المستعمرات في كتابه «الماركسية والمسألة الوطنية والكولونيالية» (ص ٢٥٢) ، يتحدّث ستالين عن الانحراف الانعزالي الذي يعني على حد تعبيره « تضخيم الامكانيات الثورية لحركة التحرّر والتقليل من أهمية تحالف الطبقة العاملة مع الطبقة البرجوازية الثورية ضد الاستعمار . ويبدو لي أن شيوعي جاوا مصابون بهذا الانحراف ، إذ ارتكبوا مؤخراً خطأً فادحاً برفعهم شعار

إقامة حكم السوفيات في بلادهم » .

ويضيف ستالين : « ذلك انحراف يساري يهدّد بعزل الحزب الشيوعي عن الجماهير وتحويله الى « طائفة معزولة » . إن النضال الحازم ضد هذا الانحراف هو الشرط الذي لا غنى عنه لتكوين ملاكات ثورية فعلاً للمستعمرات وأقطار الشرق التابعة » .

فما هو رأي منتقدينا بأقوال ستالين العظيم هذه ؟ [1] أما نحن ، شيوعيي سوريا ولبنان ، فلا نريد أن نكون « طائفة معزولة » ، نريد بناء حزب جماهيري عظيم قادر على قيادة شعبنا في كل مراحل نضاله . ولذا ... فإننا نستلهم مذاهب كبار زعماء الاشتراكية العلمية ومكمّلهم العظيم الرفيق ستالين !

١ – من هم المنتقدون يا ترى ؟ ألم يكن بإمكانهم أن يستشهدوا بأقوال كثيرة لستالين « باني الاشتراكية على سدس الكرة » تناقض موقف بكداش ؟ ثم ، ألم يعترضوا على تجاهل موضوع « مخلّفات الاقطاعية والعصور الوسطى » ؟ أ . م .

الفصل الثالث

١ — فلسطين ... الحرب التي أملاها الاستعمار

(من مقال افتتاحي في نشرة « صوت البروليتاريا » لسان حال « المنظمة الشيوعية المصرية » ١٩٤٨) .

مقدمة : في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، غزت جيوش البلاد العربية فلسطين .

هناك حرب قائمة في الشرق الاوسط منذ ٧ شهور ، ولكننا اذا درسنا هذه الحرب بتعمّق لوجدنا انها ليست مجرد حرب عنصرية .

آ — لقد أملى الاستعمار البريطاني هذه الحرب وأعدّ لها منذ سنين طويلة ليدافع عن مركزه في الشرق الأوسط .

ب — إن هذه الحرب تخدم البرجوازية العربية بكبت البروليتاريا الصاعدة .

ج — إن هذه الحرب هي واحدة من مصادر الحرائق الكثيرة التي تشعلها الرجعية العالمية وذلك بهدف خلق ترسانات من بعض

المناطق التي يريدون استخدامها كنقط للهجوم ضد الاتحاد السوفياتي .

« . وأخيراً فان هذه الحرب موجهة اليوم ضد الخطر الذي تمثله البروليتاريا الثورية في فلسطين ...

« صوت البروليتاريا »
العدد الثاني ، نوفمبر ١٩٤٨

ملاحظات : ١ — هذه النشرة التي نقلناها من كتاب الحكم دروزة مكتوبة بخط رديء ومسحوبة على الآلة الناسخة . وهي تمثل رأي **إحدى** الهيئات الشيوعية الكثيرة في مصر .

٢ — الحزب الشيوعي السوري لم يصدر قراراً رسمياً بتأييد تقسيم فلسطين واكتفى بتوجيهات شفوية (**واحياناً** كتابية) ، ولم يطعن بكيان اسرائيل حتى فترة تأزم العلاقات السوفياتية — الاسرائيلية في الأشهر الأخيرة من حياة ستالين .

أ . م

٢ — « لأجل النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية ، يجب الاتجاه بحزم نحو جماهير العمال والفلاحين »

(من تقرير ألقاه خالد بكداش أمام الاجتماع الموسع للقيادة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في كانون الثاني ١٩٥١) .

[يحذر خالد بكداش من خطر الانغماس في النشاط اليومي وإضاعة الهدف،ويذكر ما كتبه ستالين بهذا الصدد. ثم يقول:]

إن للحزب الشيوعي دائماً أهدافاً ثابتة" ، أهدافاً لا تتغير طول مرحلة استراتيجية معينة (راجع ستالين ، « أسس اللينينية » ، فصل « الستراتيجية والتكتيك») . وهذه المرحلة الآن ، بالنسبة لبلادنا ، بالنسبة لحزبنا ، هي مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية . وأهدافنا خلال هذه المرحلة تتلخص في القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه وتصفية بقايا الاقطاعية في بلادنا ، اي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي ، تحرير شعبنا من نير الاستعمار

الاجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه ، ومن بقايا القرون الوسطى ، واقامة حكم ديمقراطي شعبي . وعند ذلك تبدأ مرحلة جديدة ، هي مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية في بلادنا .

ومن الواضح ان نضالنا في سبيل هذه الاهداف الوطنية والديمقراطية ، يمتزج امتزاجاً عضوياً بالنضال العام ضد خطر الحرب العالمية الثالثة التي يعمل لاشعالها الاستعمار العالمي بقيادة الاستعمار الاميركي بأمل مدّ سيطرته على العالم بأسره ، وتثبيت نيره في أعناق جميع الشعوب بما فيه شعبنا .

وهكذا تكون الشعارات الرئيسية التي يناضل حزبنا في سبيل انتصارها خلال مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي هي : السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية ...

... ومهمتنا طول المرحلة الحالية التي تجتازها بلادنا، مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، هي حشد أوسع الجماهير الشعبية وخصوصاً جماهير العمال والفلاحين ، وجذبها الى اعتناق هذه الشعارات عملياً ، والى الاستعداد للنضال ، حتى أعلى درجاته ، في سبيل تحقيقها .

ولكي نحقق ذلك ، لا بد ان يكون الاتجاه الرئيسي لجهدنا ، لنشاطنا ، متوجهاً نحو عزل البورجوازية الوطنية ، والقضاء على نفوذها في الشعب ، لأن هذه البورجوازية الوطنية ، مهما اختلفت اسماء احزابها ، تستعمل نفوذها لخدع الشعب ، وصرفه عن النضال الثوري ، وتعمل ، من وراء ظهره ، للتفاهم

مع الاستعمار ...

[ثم يستعرض بسرعة طبقات المجتمع السوري لتحديد قوى الثورة الوطنية الديمقراطية وأعدائها . — في الحقيقة ، لم يقدم الا ملخصاً مبسطاً وباهتاً للتحليل الذي أورده ماوتسي تونغ في كتابه عن « الثورة الصينية » ، الذي صدرت طبعته الفرنسية قبل قليل في باريس . — ثم يعود الى موضوع البرجوازية الوطنية وضرورة تركيز النار ضدها لاقتلاعها من مركز الزعامة وتحقيق زعامة البروليتاريا ، مستشهداً على ذلك بأقوال ستالين . ثم يضيف :]

وينبغي الانتباه الشديد والعمل المستمر في سبيل فضح الجماعات والاحزاب التي تزعم انها اشتراكية (مثل الحزب العربي الاشتراكي ، والجبهة الاشتراكية الاسلامية ، والبعث العربي في سوريا ، والحزب التقدمي الاشتراكي — حزب جنبلاط — في لبنان) ، ينبغي فضحها فكرياً وسياسياً . إن هؤلاء رغم ضآلة نفوذ بعضهم وانحصار نفوذ بعضهم في مدن أو مناطق معينة أو بين فئات محدودة ، يشكلون مع ذلك ، بدعاياتهم المضللة ، خطراً على الحركة الوطنية الديمقراطية المتعاظمة ضد الحرب والاستعمار وضد الاقطاعية والاستثمار . انهم يحاولون استغلال الاتجاه الشعبي المتزايد نحو الاشتراكية ، ويسعون لتضليله داخلياً ودولياً . فهم يطمسون خصوصاً شعار توزيع أراضي الاقطاعيين وكبار الملاكين على الفلاحين ، وهم يدعون الى شراء الشركات الاجنبية مقابل تعويض ضخم لأصحابها الرأسماليين الأجانب ، ووضع هذه الشركات تحت سيطرة الحكومة الاقطاعية الرجعية

خادمة الاستعمار ، ثم يسمون ذلك ، « تأميماً » ... وهكذا يشوهون ويطمسون أهم الشعارات الوطنية الديمقراطية التي يطمح شعبنا الى تحقيقها ...

ملاحظات : ١ — الحديث عن « الاهداف الثابتة التي لا تتغير طول مرحلة ، الخ ... » إدانة لكل الانحراف اليميني الشديد الذي سار عليه الحزب والذي تجلى في ميثاقه الوطني الصادر في اوائل ١٩٤٤ .

٢ — « امتزاج هذه الاهداف الثابتة بالنضال العام ضد خطر الحرب » فكرة لاغبار عليها ، نظرياً . ولكنها ، عملياً ، تهدد باغراق جميع الاهداف في هذا « النضال العام » .

٣ — يشن بكداش حملة شديدة على البرجوازية الوطنية ، الا أنها أخف مما كان دارجاً في العهد الستاليني الاخير .

٤ — وهي أخف ، في القول والعمل ، من الحملة التي يشنها بكداش على « الاحزاب التي تزعم انها اشتراكية » : إن « الفضح الفكري » الذي يدعو اليه لم يكن يعني ، في واقع الحال ، التعرض للجذرية الفلسفية أو للمواقف الاجتماعية والاقتصادية لهذه الاحزاب ، ولم يتخط في أغلب الاحيان بعض « الجمل » التي لها طابع الشتائم والاتهامات غير المقنعة .

٥ — بعد حوالي اربع سنوات ، أعيد طبع تقرير بكداش في كراس بعنوان « حزب العمال والفلاحين » ، ولكن بعد أن حذفت منه مقاطع طويلة وقصيرة وجمل وأجزاء من جمل !

أ . م .

٣ — من برنامج خالد بكداش الانتخابي. ١٩٥٤

٤ — السعي لحل قضية فلسطين بمعزل عن تدخل المستعمرين الاميركيين والانكليز ، على أساس أن حل هذه القضية مرتبط ارتباطاً تاماً بالقضاء على سيطرة الاستعمار في الشرق العربي وعلى حكم عملائه وعلى الصهيونية الرجعية صنيعة الاستعمار الاميركي .

١٥ — الغاء القطيعة بين سوريا ولبنان ، واقامة العلاقات الاقتصادية بين البلدين الشقيقين على أساس وحدة اقتصادية قوامها حماية الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي في البلدين ، وتنظيم الاستيراد والتصدير وفقاً لمصلحة اقتصادهما الوطني ومصلحة الجماهير الشعبية الواسعة .

نقلاً عن كراس
«النضال في سبيل الجبهة الوطنية»

٤ — من خطاب ألقاه خالد بكداش في جلسة عقدها مجلس النواب السوري لتأييد تسلح مصر. تشرين الاول ١٩٥٥

... إن الاشتراكية العلمية تقرّر ... أن الامة جماعة ثابتة من الناس مؤلفة تاريخياً، ذات لغة مشتركة وأرض مشتركة وحياة اقتصادية مشتركة وتكوين نفسي مشترك يجد تعبيراً عنه في الثقافة المشتركة ...

ولا بأس من القول بهذه المناسبة بأن الوقاحة بلغت بالصهيونيين اليوم درجة أنهم ، بينما يدعون ان اليهود يؤلفون قومية ، ينكرون ذلك على العرب ، بينما ان جميع مقومات الأمة الآنفة التي تعتبرها الاشتراكية العلمية متوفرة في العرب ، كما هو واضح وساطع كالشمس في رائعة النهار . ولنقل هنا ان هذا الاتجاه الصهيوني لنفي القومية العربية يتفق تماماً مع موقف عصابة القوميين السوريين بانكار القومية العربية أيضاً انكاراً باتاً.

كراس « حول قضية تسليح مصر » ١٩٥٥

ملاحظات : ١ – يتصور القارىء دهشة أعضاء الحزب الذين لم يسمعوا مثل هذا الكلام من قبل. أما دهشة قادة المرتبة الأولى ، الذين قرؤوا نظريات ١٩٣٩، فقد كانت أكبر بالتأكيد، ولعلهم أعجبوا بطريقة رئيسهم في ادخال فكرة الأمة العربية الواحدة « تهريباً » في معرض هجوم على الصهيونيين والقوميين السوريين .

٢ – إن « الحياة الاقتصادية المشتركة » ، بخلاف ما يقوله بكداش غير متوّفرة في العرب ، ولا يمكن أن تتوّفر في ظل التجزئة السياسية والتبعية الاقتصادية والنظام الرأسمالي والاقطاعي . إن ايديولوجيي الحزب كانوا يتصورون أن هذه الوحدة ستنشأ وتنمو بفضل نمو التجارة بين البلاد العربية ، في ظل «الرأسمالية الوطنية الصاعدة» : ذلك معناه نسيان علاقات الامبريالية الدولية وموضع « الرأسمالية الوطنية » فيها .

أ . م .

٥ – من قرارات « نحو آفاق جديدة »
صدرت عن اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان . أيار ١٩٥٦

آ – من قرار بعنوان «الحزب الشيوعي في س. ول. ومهماته على ضوء الاوضاع الجديدة في العالم والشرق العربي» .

... وبالاستناد الى هذه الحركة الشعبية الجماهيرية العامة يمكن تأمين أكثرية ديمقراطية ثابتة في البرلمان، وتحويل البرلمان، من حيث تركيبه واتجاهه وأعماله ، الى هيئة ديمقراطية حقاً تنعكس وتتحقق فيها إرادة الشعب ، ويصبح من الممكن استخدام الطريق البرلماني لتحقيق الاصلاحات الجذرية التي تحتاج اليها البلاد ...

... وفي ظروف سوريا الحاضرة تتبلور هذه الجبهة الوطنية سياسياً في تحقيق الاتحاد الوطني والتعاون بجميع أشكاله بين الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي والفئات الوطنية الديمقراطية في البرلمان وخارجه ، والاتجاهات التقدمية

الوطنية في حزب الشعب والحزب الوطني وفي الحركات الدينية الإسلامية .

ولا ريب ان وحدة الطبقة العاملة ووحدة حركتها النقابية عاملان هامان في تقوية الجبهة الوطنية وتوطيدها .

ومن المفهوم أن من أهمّ مقومات الجبهة الوطنية في أوضاع سوريا الحاضرة أن يسود التعاون والتفاهم بين الحزبين الوطنيين الشعبيين الكبيرين ، الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي ، اللذين يستندان الى جماهير العمال والفلاحين والمثقفين التقدميين ...

ملاحظة : يمكن ان نلخّص الخط البياني لآراء القيادة الشيوعية السورية من **حزب البعث** خلال عشر سنوات على النحو التالي :

١ – في ١٩٥١ ، اعتبر البعث العربي والعربي الاشتراكي خطراً كبيراً على الحركة الوطنية الديمقراطية . (راجع الملحق٢ من هذا الفصل) .

٢ – في ١٩٥٣ ، اعتبر البعث العربي الاشتراكي حزباً برجوازياً–صغيراً يتأرجح بين الطبقة العاملة واحزاب البرجوازية ، وقررت صحيفة «نضال الشعب» السرية أنه انحاز الى البرجوازية بتبنّيه مقاطعة انتخابات عهد الشيشكلي .

٤ – في انتخابات ١٩٥٤ ، أعطى الحزب عدداً من أصواته لصلاح البيطار ، ولكن دعمه لبعض المرشحين البرجوازيين كان أكبر .

٥ – في عام ١٩٥٥ ، اكتشفت صحيفة الحزب جناحاً يمينياً وجناحاً يسارياً في البعث (وهيب الغانم – عبد الكريم زهور) .

٦ – وبعد أشهر ، قرّرت ان الاستعمار هو الذي أوجد فكرة وجود جناحين في هذا الحزب ، الذي كرّس بعد قليل حزباً وطنياً شعبياً يستند على جماهير العمال والفلاحين (أيار ١٩٥٦) .

٧ – في ١٩٥٧ ، عادت الشائعات والتلميحات من وقت لآخر (« مبدأ ايزنهاور » ، مساومات وخلافات الانتخابات الفرعية في دمشق وحمص ، خلافات الانتخابات البلدية المزمع اجراؤها ، صراع الكتل في الجيش ») .

٨ – في ١٩٥٨ – ١٩٥٩ : اعتبر البعث حزباً فاشستياً وعميلاً لبنك مصر ، في صحيفتي الأخبار والنداء .

٩ – في ١٩٦٠ – ١٩٦١ : دعت الصحيفتان الى جبهة وطنية تضم حزب البعث (أو « عناصره الوطنية ») ضد « الفاشستية الناصرية » . الخ ...

أ . م .

ب – من قرار اللجنة المركزية للحزب عن قضية فلسطين

[يعرض القرار تاريخ القضية : الحركة الصهيونية ، وعد بلفور ، سياسة الانتداب البريطاني ... الى أن يقول :]

... وهكذا قامت اسرائيل من أساسها على العدوان والاغتصاب وبقوة حراب الاستعمار . ولم تكتف اسرائيل بما حصلت عليه بموجب قرار التقسيم الصادر عن منظمة الأمم المتحدة ، عام ١٩٤٨ ، بل استولت بالعدوان والقوة وبتشجيع الاستعمار الانكليزي الاميركي ومساعدته على مناطق أخرى واسعة من فلسطين ...

... ولا ريب ان صون استقلال البلاد العربية المتحررة وتوطيده ، والنضال لاستكمال استقلال البلاد العربية الاخرى ، والتعاون الوثيق بين جميع الشعوب العربية، هي من أهم العوامل في جميع الظروف للوصول الى حلول لقضية فلسطين تتفق مع مبادىء الديمقراطية والعدالة وتضمن حقوق العرب .

ومن الواضح ان كل حل أو تسوية لقضية فلسطين، في نطاق الاوضاع والملابسات الحاضرة لن يؤدي الى ما ينشده جميع الشرفاء في العالم من قيام سلم وطيد ، ولن تكون له صفة الاستقرار والدوام ما دامت اسرائيل قاعدة للاستعمار وأداة في

يده للضغط والتوسّع ...

ملاحظات :

١ – هذا الكلام تقدم محسوس ، اذ ان اسرائيل اعتبرت « قاعدة للاستعمار » . ولكن تركيا أيضاً قاعدة للاستعمار (على حد ما ورد في خطاب خالد بكداش في المؤتمر العشرين للح . ش . أ . س .) ، ومع ذلك، فإن أحداً لا يطعن بكيان تركيا كدولة . وقرار اللجنة المركزية يسكت على هذه الناحية ولا يقدم أي حل .

٢ – أن لا يستطيع الحزب الماركسي – اللينيني ان يقدّم حلاً عن أخطر قضية تواجه الشعوب العربية أمر له مدلول ضخم . وليس من الضروري (بل لعلّه من الطبيعي) أن لا يأتي الحل المطلوب ، الشعبي ، الاشتراكي ، متفقاً مع « حلول » الطبقات الرجعية أو مع صراخ تجار السياسة الديماغوجي . إلا ان الاحزاب الشيوعية في المشرق العربي عجزت منذ البدء عن خوض النضال ضد هذه الطبقات وهؤلاء الزعماء على صعيد هذه القضية القومية الخطيرة .

٣ – لا ريب ان « صون الاستقلال » و «استكمال الاستقلال» و « التعاون الوثيق بين الشعوب العربية » ، هي « في جميع الظروف» «من أهم العوامل » للوصول الى الحل المنشود . ولكن كيف ، بعد كل هذا التعداد ، لم تتوصل اللجنة المركزية الى « عامل » آخر يتوج كل العوامل السابقة ألا وهو إقامة وحدة عربية ، إقامة الدولة العربية الواحدة ؟...

أ . م .

جـ - من قرار اللجنة المركزية للحزب عن قضية الوحدة العربية

إن طموح البلدان العربية الى وحدتها ليس وليد ظروف طارئة ، أو رغبة عاطفية ، ولا نتيجة لدعاية فكرية قام بها حزب أو فريق من الناس ، بل هو مظهر لحاجة واقعية ، ونتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن الرغبات والارادات. فإن الأرض المشتركة ، ووحدة اللغة ، والتاريخ المشترك ، والتكوين النفسي المشترك الذي ينعكس في الثقافة المشتركة ، والاوضاع الاقتصادية التي يتمّم بعضها بعضاً ، كل هذه العوامل الدائمة التي تكوّنت تاريخياً والتي تتطوّر – رغم ما أقيم ويقام في وجهها من عوائق مصطنعة – في اتجاه موحّد يؤدي الى ازدياد التقارب بين مختلف أجزاء البلاد العربية ، هي الأسس الواقعية الموضوعية التي تنبثق منها قضية الوحدة العربية ...

... إن الحجر الأساسي في الانطلاق نحو الوحدة العربية هو التعاون المتين بين البلدان العربية المتحررة ، وخصوصاً بين سوريا ومصر ، وتوثيق الروابط بينهما في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية الى جانب تقوية التضامن مع الشعوب العربية التي ما تزال رازحة تحت نير العبودية الاستعمارية ، في

نضالها الباسل من أجل حريتها واستقلالها الوطني .

ولا ريب ان نجاح الشعب العراقي الشقيق في نضاله الشاق لتحطيم حلف بغداد ، والخلاص من الاحتلال الاجنبي سيزيل عائقاً كبيراً من طريق التعاون العربي ويفتح السبيل للسير بخطى أسرع نحو الوحدة العربية الشاملة ...

ملاحظات : ١ – على الصعيد السياسي : أصابت اللجنة المركزية في التركيز على « سورية ومصر » وعلى تحرر العراق . الا انها لم تتخطّ مفهوم « التعاون الوثيق » (الذي هو مفتوح أيضاً للبلدان العربية المتحررة الأخرى – الاردن – السعودية : نحن في عام ١٩٥٦) ، لم تتخطّ هذا المفهوم حتى الشهر الأول من عام ١٩٥٨ ، حين اقترحت اتحاداً كونفيدرالياً (ابان مفاوضات الوحدة) . والوحدة تبدو هدفاً بعيداً « يفتح له السبيل » انتصار العراق . وكأن اللجنة المركزية تتصوّر ، في جملة ما تتصوّر ، ان العراق في حال تخلصه من حكم نوري السعيد يستطيع أن يتقدّم بشكل راسخ ومضمون دون ان يكون جزءاً من اطار عربي أكبر . وقد أثبتت التجربة خطأ هذا التصوّر .

٢ – على الصعيد النظري : تفصل اللجنة المركزية بين « التطور الموضوعي » وبين « العوامل الذاتية » (عواطف، رغبات ، ، ارادات) : وهي بذلك تلغي المفهوم المركزي في الماركسية : الممارسة (والممارسة الواعية) .

هذا يقودها الى آراء غريبة عن « تطوّر » علائم الأمة ، والى تشويه السير الواقعي للوحدة العربية القومية :

حين يذكر القرار العلائم الستالينية الأربع (التي أصبحت خمساً بإضافة « التاريخ المشترك ») ، فإنـــه يعدّدها على نحو مدرسي ويغرق « الأوضاع الاقتصادية المتكاملة » في بحر عـام متشابه ، رمادي اللون ، بحر العلائم الخمس : يقول القرار إنّ العلائم المذكورة « تكوّنت تاريخيـــاً **وهي تتطور** في اتجـاه الخ ... » . أجل ، إن الارض المشتركة ووحدة اللغة والتكوين النفسي المشترك ، قد تكوّنت تاريخياً . هذا أمر بديهي بالنسبة للماركسيين . ولكن مـا معنى القول أنهـــا **تتطوّر** في اتجاه موحّد الخ ؟ ماذا تنتظر اللجنة المركزية ؟ حـــدوث تغيرات جيولوجية؟أو امتداد جديد للفتح العربي الإسلامي؟ أو انقراض اللهجات المحليـة والقطرية ؟ أو « استكمال » التكوين النفسي المشترك ؟ وكيف يمكن أن « يتطوّر » **التاريخ** المشترك ؟ بأي معجزة نغيّر التاريخ **الماضي** للعرب ؟

لقد ضاعت مسألة الوحـــدة الاقتصادية في السكولاستية الستالينية . والوحـــدة العربية غـدت شيئاً ينبثق من التطور الموضوعي ، التلقائي ، الطبيعي ، لجميع العلائم ، على نحو عـام متساوٍ . والحال : إن الاوضاع الاقتصادية الراهنة والناجمة عن عصر السيطرة الاستعمارية والمرتبطة بآلية السوق الامبريالية ، « لا يتمم بعضها بعضاً » ، ولا تسير تلقائياً باتجاه التكامل . هنا يدخـــل عنصر الممارسة الواعيـــة ، عنصر النضال السياسي الوحدوي – الاشتراكي . الا ان الماركسيين الستالينين قـــد ألغوا الممارسة !

أ . م .

٦ ـــ أ : إيضاح حول مفهوم الاشتراكية

(من حديث أدلى به خـالد بكداش الى جريدة « المساء » المصرية في اواسط تشرين الثاني ١٩٥٦) .

... ولا بد هنا من إيضاح نقطة حول مفهوم الاشتراكية : من الواضح ان الاشتراكية في بلادنا لا يمكن تحقيقها بمجرّد قرار من الحكم القائم ولا بمجرّد رغبات حزب من الاحزاب أو هيئة من الهيئات .

فلتحقيق الاشتراكية ينبغي ان تكون القوى المنتجـــة في البلاد على مستوى معيّن ، اي أنه ينبغي ان يكون الانتاج قد بلغ درجة معينة من تطوره .

إن العمل لتحقيق الاشتراكيـة في بلد كسورية أو كمصر ، مثلاً ، لا يعني تأميم المعامل والمشروعات الرأسماليـــة الوطنية القائمة في البلاد ...

نقلاً عن الملحق الثقافي للنور – عـدد تشرين الأول ١٩٥٧ الصفحة د

ملاحظة : هكذا اذن ، ينبغي ان تكون القوى المنتجـة

« على مستوى معيّن » . ليت بكداش عيّن هذا المستوى ! ولم يسقط في موقف سوخانوف وأقرانه ! (راجع الملحق ١ – هـ من الفصل الأول) . أ . م .

ب – محاولة لتوضيح بعض المفاهيم والشعارات ... (بقلم مراقب) .

... وعلى ضوء ما تقدم ، يمكننا ان نبحث شعار « الاقتصاد الموجّه » الذي أطلق مؤخراً . والحقيقة ان الطريقة الغامضة التي ألقي بها هذا الشعار لا تعطي المرء فكرة واضحة عن مضمونه ولا عن اهدافه . فاذا كان المقصود بالاقتصاد الموجه تقييد نشاط الرأسمال الحر وتقليص مجالات فعاليته ، فهو خاطىء من الوجهة الاقتصادية وسابق لأوانه . لأن الرأسمال الحر ما زال ، في سوريا، يلعب دوراً تقدمياً ، دوراً ثورياً، في تطوير الاقتصاد الوطني ، فلا يجوز والحالة هذه ، تقييده ووضع العراقيل في طريقه . وخاطىء من الناحية السياسية والخططية أيضاً...

ملاحظة : كلام المراقب كان موجهاً ضد البعث (أو بعض قادته) ، والتعاون مع خالد العظم كان في ذروته . التكتيك ألغى التحليل الاقتصادي أو على الأقل بتره . وليست القضية أن سوريا، منفردة، كانت مؤهلة أو غير مؤهلة للتأميم والتحويل الاشتراكي . بل إن غياب الأفق الاشتراكي مرتبط بغياب الأفق الوحدوي . هل تقيم سوريا الرأسمالية الحرة صناعة ثقيلة وتقضي على التبعية الاقتصادية ؟

٧ – تقرير قدمته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وصادق عليه المجلس الثاني للحزب . أيلول ١٩٥٦

.... فالأمة العربية أمة واحدة تمتلك جميع الخصائص القومية للأمة الواحدة من حيث كونها جماعة من الناس تكونت تاريخياً ، وتسكن أرضاً مشتركة – برغم الحدود المصطنعة القائمة – وتتكلم بلغة مشتركة، ولها مقومات الوحدة الاقتصادية، ولها تكوين نفسي مشترك يجد له تعبيراً في الثقافة والتقاليد العربية المشتركة وفي الطموح المشترك الحار نحو الوحدة ...

... إن انعزال العراق عن بقية البلاد العربية وليد خطة استعمارية بحتة، وهو انعزال غير طبيعي وموقت ، لأنه معاكس لمنطق التطور القومي التاريخي والتحرر الاقتصادي ...

... إن رغبة شعوب الأمة العربية في التقارب والتعاون ليست رغبة عرضية أو طارئة وإنما هي رغبة طبيعية ووليدة العوامل المادية والموضوعية التي ينبثق منها ويتوطّد على أساسها شعار الوحدة ...

كراس « خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني القومي »
ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

ملاحظة : الصياغة أفضل وأدق مما هي في قرار الرفـــاق السوريين . وتبدو خالية من نوايا التمويه .

أ . م .

٨ — من كراس « مفهوم القوميـة العربية »
بقلم الرفيقين « عباس » و « خالد »
إلى أعضاء الحزب الشيوعي المصري . ١٩٥٨

... وهكذا وجدنا أن نشأة النظام الرأسمالي تعني بالضرورة القضاء على التجزئة والنظم الاقطاعية في أشكال الحكم والانتاج والحياة الاجتماعيـــة ، وتدعم كل مقومات الوحدة القوميـــة وتطورها .

ولهذا يؤرخ لظهور القومية بظهور النظام الرأسمالي ... ولم تشذ نشأة القومية عن هـــذا القانون الموضوعي للتاريخ وان اختلفت عن سائر القوميات الأوروبية في مدلول نشأتهـا وذلك للملابسات الخاصة التي صاحبت هـــذه النشأة . فلقد ارتبطت نشأة القوميات في أوروبا خـــاصة بسعي الطبقات الرأسمالية الأوروبية الى الربح والاستغلال والتوسع والسيطرة . ونمـا هذا الاتجاه وتعاظم بتطور الرأسمالية ذاتهـا من المرحلة الصناعية الى المرحلة الاحتكارية الاستعمارية في أواخر القرن التـاسع عشر .

أما القومية العربية فقد اتخذت في نموها اتجاهاً مختلفاً منذ البداية ...

لم تتخذ الحركة الوطنية العربية طابعاً دينياً متعصباً ، بل ساهم فيها – وما يزال يساهم – المسلمون والمسيحيون على السواء. فكان المثقفون المسيحيون في بيروت والشام خاصة من أوائل الداعين الى الوحدة العربية والعاملين على احياء التراث الثقافي العربي .

ولم تتخذ الحركة الوطنية كذلك طابعاً شوفينياً ضيقاً ، ولا أدلّ على ذلك من التعاون النضالي القائم بين الأكراد والعرب في العراق وبين الزنوج والعرب في السودان لتصفية الاستعمار .

[ثم يتحدّث الكراس عن مقومات القومية العربية ، ويوجزها في النقاط التالية :]

١ – القومية العربية هي حصيلة تاريخ مشترك لجماعة من الناس عاشوا وتآلفوا وناضلوا معاً مئات السنين ...

٢ – القومية العربية لها لغتها الواحدة التي تحمل تراثها وخلاصة خبراتها التاريخية .

٣ – القومية العربية تشترك في رقعة واحدة من الأرض مهما اختلفت وتعدّدت مظاهرها الجغرافية .

٤ – القومية العربية لا تشترك في حياة اقتصادية واحدة... (ولكن) ... من الواضح أن هذه الحقيقة مرتبطة تماماً بأن دولاً استعمارية مختلفة لا تزال تسيطر على مقدرات وامكانيات وثروات أجزاء من الوطن العربي . وهي بالتالي تربط هذه

الأجزاء بالاقتصاد الاستعماري نفسه .

ولقد كانت السوق العربية المشتركة موجودة في الماضي ، قبل الاحتلال الغربي ، بشكل أو بآخر . وعمل الاستعمار على تحطيم هذه السوق بوعي والقضاء على تكامل الانتاج في الوطن العربي ، ومع ذلك فأسس التكامل لا تزال قائمة وان كانت متناثرة تقوم بينها الحدود المفتعلة .

٥ – التكوين النفسي المشترك (أو « الطابع القومي ») للأمة العربية .

[ويتناول الكراس الاختلافات القائمة بين الأقطار العربية ، فيقول :]

ومهما كانت الفوارق السطحية التي تبدو لنا هنا في مصر مقنعة للبعض منّا بأننا في نهاية الأمر نختلف نفسياً عن بقية العرب ، إلا أن هذه النظرة ليست إلاّ بقايا الانعزالية في مصر إزاء القومية العربية .

[ثم يمضي الكراس الى تحديد معالم القومية العربية ، فيقول :]

إن القومية العربية – على هذا الأساس الذي أوضحناه – ليست شعاراً سياسياً تكتيكياً ، ولا هي عصبية دينية . إن القومية العربية ليست تطلع طبقة اجتماعية صاعدة نحو أسواق جديدة بهدف تكوين امبراطورية جديدة تخدم أغراضها التوسعية . إن القومية العربية ظاهرة تكوين أمة واحدة ، لها كافة المقومات الأساسية للأمة الواحدة ، وتناضل كافة فئاتها

الوطنية الشعبية لتجميع شتاتها المبعثر ، وتكامل اقتصادها الممزّق وتطويره ، وخلق سوقها المشتركة واستعادة ثرواتها وأراضيها التي سلبها الاستعمار ، والقضاء على كل القوى الرجعية والاستعمارية المعرقلة لنموها ، ورفع مستوى معيشة أبنائها وتطوير حياتها وتنمية ثقافتها ، والمساهمة مع كافة الشعوب والدول الوطنية والاشتراكية للقضاء على الحروب وصيانة السلام العالمي .

... انها في جوهرها حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار . فالاستعمار هو الذي أقام الحدود والحواجز في وجه هذه القومية فمزّق وحدتها وسعى لطمس معالمها وعرقلة نموّها . ولهذا كانت معركة التوحيد معركة في جوهرها معادية للاستعمار .

إنها بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية . ففي نضالها ضد الاستعمار تناضل كذلك ضد عملائه وحلفائه من الاقطاعيين والاحتكاريين ، وهي تحرر ثروات أرضها وطاقات شعوبها من الاستغلال والاستعباد ، وتحقق التكامل بين اقتصادها الممزّق ، وتبني اقتصادها الوطني وتطوره ، وتنمي ثقافتها الوطنية والشعبية . وهي بهذا تتيح لأبنائها ارتفاعاً في مستوى المعيشة ، كما توّفر لهم حريات ديمقراطية متعاظمة ...

من كراس « مفهوم القومية العربية » ص ٣ — ١٦

ملاحظات : ١ — القسم الأول المتعلق بنشأة القوميات : «لم تشذ نشأة القومية العربية عن هذا القانون الموضوعي للتاريخ، ... الملابسات الخاصة » تساهل مع منطق الفلسفة الستالينية .

٢ — إذا استثنينا هذا القسم ، فإن النص بشكل عام يختلف جوهرياً عن « دعائيات وتكتيكات » الرفاق السوريين . إنه يعلن صراحة أن الوحدة الاقتصادية غير موجودة ، وان الاستعمار ضرب التكامل الاقتصادي ، وان التوحيد **معركة ونضال** . (فالوحدة العربية لا تنبثق من التطور الاقتصادي التلقائي) ... إن الرفيقين المصريين قد تلمّسا عناصر أساسية من « الحل » .

أ . م .

الفصل الرابع

١ ـــ من تصريح أدلى به خالد بكداش
الى جريدة النور ، على أثر إعلان الوحدة

... صحيح أنه حين طرحت مؤخراً قضية الوحـــدة بين سوريا ومصر ، كان لنا رأي في شكل هـذه الوحدة وهو رأي لا يمس جوهر الوحدة وصميمها[1] . وقد أوضحنا هـــذا الرأي بصراحة للمسؤولين ولأركان التجمع القومي كما نشرناه في جريدة النور . وليس سبيلنا الآن الدخول في تفاصيل هــذه المرحلة الماضية[2] وتبادل الرأي .

فنحن الشيوعيين في سوريا ، كنا قبل قيام الدولة العربيـة المتحدة، مؤيدين للخطوط الكبرى الأساسية في سياسة الحكومة المصرية . فما الذي تغيّر؟ أليس من الطبيعي ان يؤيد الشيوعيون

---

١ – هذا غير صحيح طبعاً . أ . م .

٢ – هذا المقطع كله يوحي بان بكداش يطوي الصفحة وهو موافق على قيام الوحدة (ج . ع . م .) . ومع ذلك فهو لم يوقع ... أ . م .

استمرار هذه السياسة في الدولة العربية الموحدة الجديـدة ؟ بل نحن نأمل ان يؤدي التفاعل السياسي في الدولة الموحدة لخطوة جديدة الى أمام في السياسة التحررية[1] : إن ما كنـا نعمل له ونناضل في سبيله من قبـل ، سنعمل له ونناضل من أجله في ظل الدولة العربية الموحدة ، ولن تكون لنا سياسة اخرى .

النور ٣ / ٢ / ١٩٥٨

---

١ – ليته أوضح اية خطوة جديدة يريد : الاشتراكية ؟ طبعـاً لا ! إعلان الحرب على امريكا ؟.. أ . م .

٢ ــ بيان الى الشعب عن الوحدة المصرية السورية

أصدره المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري .

أيها المواطنون ،

في هذه الأيام المجيدة تحرز بلادنا العربية انتصاراً جديداً بتحقيق هدف من أكبر أهدافنا الوطنية هو الوحدة بين مصر وسوريا .

فهذه الوحدة وإن تكن وحدة بين بلدين عربيين ، إلا أنها تعبير عن إرادة الملايين من شعوب بلادنا العربية جميعاً ، وهي ثمرة لنضالها ، وتدعيم للانتصارات والمكاسب التي ساهمت جميعاً في تحقيقها ، وهي كذلك نقطة انطلاق نحو التحرر الكامل والوحدة الشاملة لقوميتنا العربية .

ولقد حملنا نحن الشيوعيين المصريين راية القومية العربية ودعونا الى تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا...معبرين عن إرادة شعبنا المصري ومصالحه الحيوية ، مدركين إدراكاً علمياً واعياً أن هذه الوحدة هدف رئيسي من أهداف نضالنا الوطني .

إن الوحدة بين مصر وسوريا وحدة حقيقية لأنها وحدة

متحررة ، وحدة بين بلدين مستقلين . وهي وحدة تدعم هذا الاستقلال وتثبته وتدفعه الى الأمام ، وتحمي مصر وسوريا معاً من مؤامرات الاستعمار ومشروعاته العدوانية والاستغلالية .

إنها وحدة ضد حلف بغداد وقواعده النووية والصاروخية ، وحدة ضد اسرائيل صنيعة الاستعمار والصهيونية ، وحدة ضد مشروع ايزنهاور ، وحدة ضد القوى الرجعية في بلادنا العربية من عملاء الاستعمار وحكامه وبقايا الاقطاع والاحتكار ...

١٩٥٨/١/٢٧

٣ ــ بيان من الحزب الشيوعي المصري

عن الوحدة السورية المصرية

... يستخدم الاستعمار العالمي بقيادة امريكا جميع الوسائل التي ترمي الى إضعاف القومية العربية وتأخير اندفاع الجماهير العربية في طريق الوحدة . وهذه المؤامرات توجه من خارج البلاد العربية ومن داخلها سواء بسواء .

[يتحدث البيان عن المؤامرات الخارجية ثم ينتقل الى المؤامرات الداخلية فيقول :]

وفي الوقت ذاته لم تقف قوى الاستعمار والرجعية عند حدّ التفريق بين الشيوعيين العرب وبقية الوطنيين العرب ، بل انها بدأت تثير الذعر بين الطبقة الرأسمالية الوطنية في مصر وبين مثيلتها في سوريا . ومن هنا راحوا يشيعون في مصر ان الوحدة ستصيب بالخراب صغار التجار ومتوسطيهم وبان التجار المصريين سيكونون تحت رحمة التجار السوريين . وأشاعوا بان الرأسمالية المصرية – وهي الرأسمالية الأقوى – ستزحف على سوريا لتستعمر وتستنزف دماء الشعب العربي في سوريا ، وانها تمهد

لذلك بالقضاء على الحريات الديمقراطية وتشديد الكبت ضد الحزب الشيوعي السوري متعاونة في ذلك مع الرجعية السورية .

...ولكن هل تعني معارضتنا في حل الاحزاب أن مستقبل الديمقراطية مظلم في الجمهورية العربية المتحدة؟ كلا . لانه لا يجب ان ننظر الى مستقبل التطور الديمقراطي من زاوية وجود الاحزاب وحدها ، وانما يجب أن ننظر الى المسألة من زاوية : ١) ان القوى الشعبية والوطنية ستلتقي في الدولة الواحدة وتتجمع وتناضل بكيفية فعّالة من أجل توسيع الحريات الديمقراطية وتدعيمها . ٢) وان السياسة الوطنية التحررية السائدة في الجمهورية العربية المتحدة موجهة لإضعاف النفوذ الاستعماري وتصفيته . وهذا يخلق الظروف الملائمة لتطور الديمقراطية كما تخلقها السياسة التقدمية التي ترمي الى تصفية الاقطاع وتصنيع البلاد وتطوير الزراعة فيها ...

... ويجب علينا في الوقت نفسه أن نحذر من ان ننحرف بقضية الوحدة وتدعيمها الى وضع مسألة الأحزاب في مركز الأحداث ، فإن المهمة الرئيسية هي في الدفاع عن الوحدة الوليدة وحمايتها والتوعية لأهميتها العظمى ورفع الشعارات التي تؤدي الى تطويرها لمصلحة الشعب ...

فبراير ١٩٥٨

٤ ـــ تقدموا الصفوف الوطنية

في معركة الوحدة العربية !

توجيه أصدره مكتب العمل الجماهيري
في السكرتارية المركزية للحزب الشيوعي المصري
الى أعضاء الحزب

... ولكن ، هل القضية الكبرى قضيـة حل الاحزاب في سوريا ؟ كلا . القضية الكبرى هي ان تنجح الوحـدة السورية المصرية وتنشأ قوة سلام في منطقة الشرق الاوسط .

هل الأصح أن نركز كل جهودنا في نقد حل الاحزاب والنظر الى الوحدة من هذه الزاوية ؟ كلا . إن الموقف الأصح هو أن نستفيد من المـد الثوري الذي أحدثته الوحدة واقترن بهـا وأعقبها ...

وهكذا نرى انه من الخطأ ان نحصر موضوع الوحدة في هذه الزاوية الضيقة : زاوية حل الاحزاب . إن الأصح هو ان نضع قضية إنجاح الوحدة وحمايتها فوق كل قضية داخلية . إن الموقف الصحيح الدي يخدم قضية الديمقراطية نفسها هو أن نحرّك أوسع

الجماهير من أجل حماية الوحدة وإنجاحها ...

ايها الرفاق !

تقدموا الصفوف في معركة التحرر العربي ، ارفعـوا لواء الوحدة العربية من اجل السلام والديمقراطيـة والرخاء . أيدوا الوحدة في كافة المجالات وبكافة الاشكال. افضحوا كل المناورات التي تريد إظهار الشيوعيين بمظهر معادٍ للوحدة سواء في مصر أو في سوريا .

١٠ فبراير ١٩٥٨

٥ — المنطقة المتحررة

إفتتاحية «اتحاد الشعب»، جريدة الحزب الشيوعي المصري.

المنطقة المتحررة هي الجمهورية العربية المتحدة . إنها المنطقة المتحررة من أرض الوطن العربي الكبير . انهـا الدولة الوحيدة من بين جميع الدول العربية التي تتمتع باستقلال حقيقي وحريـة حقيقية . انها الدولة الوحيـدة التي لا سيطرة لاستعماري دخيل او لاقطاعي رجعي على مصائرها .

بل إن جمهوريتنا هي اكثر من هذا .

انها قلعة الحرية في الشرق العربي. انها المنارة التي تتطلع اليها الشعوب العربية المكافحة . انها المثل والامل . انها اليد الرحيمة التي انقذت جميلة ، وهي اليد القوية الممدودة بالسلاح للمجاهدين في جبال أطلس. انها مأوى المكافحين الذين شردهم نوري السعيد وسمير الرفاعي وسعود بن عبد العزيز ، وهي القاعدة التي تنطلق منها القذائف لتردي جنود الاستعمار في صحراء ُعمان، انها صوت العرب الاحرار في كل مكان . انها دعوة للكفاح في كل ركن من اركان الوطن العربي . إن مجرد وجودهـا دعوة لشعب العراق

لكي يثور ويحطم أغلال حلف بغداد ، ودعوة لشعب الاردن لكي يثور ويحطم مشروع ايزنهـاور ، ودعوة للشعب العربي في الجزيرة لكي يثور ويحطم قاعـدة الظهران . وهي دعوة للعرب في كل هذه البلاد لكي يسقطوا حكامهم الخونـــة والرجعيين وينضموا الى موكب التحرر في الجمهورية العربية المتحدة .

لكل هذا ، لم يكن غريباً ان يتضاعف حقد الاستعمار على جمهوريتنا ، على أرضنا المتحررة . فجمهوريتنـا هي الشوكة في جنب الاستعمار، وهي الضوء الكاشف لمؤامراته ، واليد الضاربة لأوكاره ، والقوة الباطشة بعملائه . ويفرز الاستعمار حقده على جمهوريتنا في مؤامرات تتتابع بعدد الايام ، ولو استطاع لجعلها تتتابع بعدد الدقائق واللحظات ...

١٥ مارس ١٩٥٨

٦ — بيان الحزب الشيوعي المصري حول ثورة ١٤ تموز

عاشت الجمهورية العراقية العربية

عاشت ثورة الشعب العراقي الباسل

أيها المواطنون .

لقد هب الشعب العراقي الباسل هبته الكبرى وأطاح بحكم الرجعية والاستعمار ، حكم فيصل – عبد الاله – نوري السعيد ، حكم حلف بغداد سجن الشعوب . لقد أسقط الشعب العراقي النظام الملكي الاقطاعي الخائن وأقام جمهورية عربية متحررة اعترفت على الفور بالجمهورية العربية المتحدة – جمهورية تحمي السلام في ربوع الشرق العربي وتنضم الى ركب الشعوب العربية المتحررة السائر بثبات نحو الوحدة العربية الشاملة .

إن الشعب العراقي البطل الذي امتهنت ارادته خلال السنوات الماضية ، وفرض عليه الخونة حلف بغداد البغيض ليكون رأس الرمح ضد حريات الشعوب العربية ، إن الشعب العراقي البطل الذي بذل دماءه سخية من أجل حريته وضحى بأرواح بنيه فداء لقضية تحرر الوطن والوحدة العربية ، قد قام ليسوّي حسابه مع جلاديه ومستعبديه ...

٧ — بيان من المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي حول الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة واليمن

... والشعب الكردي الذي امتزجت دماء ابنائه الشجعان بدماء ابناء الشعب العربي الميامين في الكفاح ضد عهود الظلم والطغيان ، هو الآخر قلق على مصير حقوقه القومية كشعب ينشد لنفسه بحق أسباب التقدم والرفاه . هذا الشعب الذي استبشر أيما استبشار بما جاء في الدستور الموقت للجمهورية العراقية بخصوص مشاركته في الوطن العراقي ، وهو يطمح الى تحويل هذا البند الى واقع عملي يجني ثماره جنباً الى جنب مع الشعب العربي في العراق ...

ولا يمكن لجيشنا العراقي وضباطه المغاوير ، هذا الجيش الذي ضرب مثلاً رائعاً في الوطنية والشعور بالمسؤولية تجاه قضية الشعب والاخلاص لمبادىء حركتنا التحررية الديمقراطية في ثورة ١٤ تموز الخالدة ، الا أن يقلقه التفكير في الاسلوب الذي تمّ به توحيد الجيشين في الجمهورية العربية المتحدة ...

إن بلادنا ذات ثروات طبيعية وخيرات وافرة ، ينبغي أن

يعاد النظر في استثمارها واستغلالها وصرف مواردها على أساس تطمين الحاجات الملحة لسائر جماهير الشعب ، وعلى أساس تطوير الاقتصاد والرأسمال الوطني ، وعلى أساس التعاون المتين والمنافع المتبادلة مع الاقطار العربية الشقيقة . وان التفكير بالانضمام للجمهورية العربية المتحدة يقلق جماهير الشعب لأن الانضمام لن يوفر للاقتصاد والرأسمال الوطني العراقي فرصاً كافية للازدهار والتطور ،ولن يوفّر شروطاً عادلة للتعاون الاقتصادي بين العراق والجمهورية المتحدة نظراً لاختلاف درجة تطوّر كل منهما ، ولا شكّ ان التعاون بين هذين الاقتصادين ممكن الى أبعد الحدود ، بينما اندماجهما سيوفّر اقتصاداً أكبر للاقتصاد الأكثر تقدماً على حساب تضييق الفرص أمام الاقتصاد العراقي المتخلف . . .

٣ ايلول ١٩٥٨

ملاحظات : آفاق الحزب الشيوعي العراقي : لا وحدة ولا تحويل اشتراكي ، بل « استقلال ورأسمالية وطنية » .

البيان ينسى الثروات الضخمة التي ينهبها الاستعمار في الوطن العربي الكبير (بترول الكويت والسعودية والعراق) ويلوّح بتزاحم الرأسماليات العربية على « خيرات العراق الوافرة » .

موضوعياً ، هذا يعني ، على الصعيد التاريخي ، إبقاء العراق في إطار علاقات العصر الامبريالي ، ويبشّر ، على الصعيد السياسي، بمعركة دامية مع القوى الوحدوية ، وبلقاء «موضوعي» مع بريطانيا ومع الامبريالية بشكل عام .

أ . م .

٨ — بريطانيا وعبدالكريم قاسم

في كتاب « عراق الانتفاضات » ، تأليف بيار روسي

صدر هذا الكتاب في باريس قبل ثورة ١٤ رمضان بقليل . المؤلف Pierre Rossi فرنسي ، عمل مديراً للمركز الثقافي التابع لسفارة فرنسا في بغداد. وهو متأثر الى حد كبير باسلوب التحليل الماركسي . (يلاحظ ذلك بشكل خاص في كشفه مشروع الانماء السعيدي الاستعماري وأثر هذا المشروع في إفقار جماهير الفلاحين التي أقحمت في اطار الاقتصاد الامبريالي العالمي). وهو يعطف على عبدالكريم قاسم ويعتبره وطنياً يتحسس آلام الشعب العراقي . كما يتبنى الفكرة القائلة ان العراق بلد آسيوي يرتبط مصيره بطريق الهند وبالتزاحم الجغرافي — التاريخي مع مصر . (رغم أن العرض التاريخي — ميثاق سعد أباد ، حلف بغداد — يبين أن كل محاولة لإخراج العراق من حظيرة العروبة وتكتيله مع الجارات المسلمات في الشمال والشرق مكتوب لها الفشل . إن هذه السياسة الاستعمارية تصطدم بارادة الشعب العراقي التي تجلت في الاستقبال الضخم الذي لقيه وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة في بغداد في اوائل عام ١٩٦١ ، وفي تحول المظاهرة المضادة التي نظمها الشيوعيون بعد يومين الى

مظاهرة « ابتهاج بالوحدة العربية » ، على نحو مـا رواه المؤلف في الصفحة ٢٩٢) .

نعرض فيما يلي بعض نصوص من هذا الكتاب ، تلقي ضوءاً على دور بريطانيا وسياسة المحاور في المشرق العربي :

آ – تحول السياسة البريطانية ومقتل نوري السعيد .

« باندفاع واحد ، من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي ، تنجرف الشعوب نحو القاهرة ودمشق . ويصاب حلف بغداد بهزيمة منكرة . هنا وهناك ، تظهر مقاومة يائسة من قبل بعض المعاندين ، ونوري السعيد واحد من هؤلاء . عناد لا جدوى فيه . اذ يمكن ، من خلال النوايا المعقدة لحماته البريطانيين ، أن تلمس رغبة الحماة بتبديله في دفة السفينة . إن بعض هؤلاء الحماة يعتقدون أنه لم يعد الا جثة في مقدمة السفينة .

... حزب المحافظين أراد انقاذ الامبراطورية بالعصا . حزب العمال يريد إنقاذها بالمصافحة . عقب حملة السويس ، أكثر نواب العمال من الزيارات والتحقيقات في العراق . وجاءت تقاريرهم مخزية لدرجة أنه تأجل نشرها ...

... نوري السعيد فقد أوهامه ... قبل وفاته بقليل ، أعطى لمجلة لايف الامريكية حديثاً كان بمثابة وصية سياسية . نجد في هذا الحديث لمحات من الميل الى سياسة الحياد وخيبات أمل وغضبات تجاه عدوه ناصر . فهل بدأ نوري السعيد يفكر أنه فقد ثقة المسؤولين الجدد عن الدبلوماسية البريطانية ، الذين

يريدون أن يعيدوا التفاهم مع الاتحاد السوفياتي ؟ »

(ص ٢٤٢ – ٢٤٣) .

«عندما بلغه خبر الاستيلاء على محطة الاذاعة، هرب الرجل العجوز من منزله حوالي الساعة الرابعة صباحاً، ولكنه لم يتمكن من مغادرة بغداد . حادثة لا تعليل لها : إن نوري السعيد قد استطاع دائماً ، في كل اللحظات الحرجة التي تعرّض لها ، ان يلتجيء الى البريطانيين ، ولكنه لم يستطع هذه المرة الوصول اليهم ...

... العقيد وصفي طاهر ، الذي كان في الماضي مرافقاً لنوري السعيد ، أجهز عليه برشة من مدفعه الرشاش . فهل جاء هذا العمل بدافع الرحمة والشفقة أم أنه قتل مدبر ؟ »

(ص ٢٤٧ – ٢٤٨)

ب – رأي السفير . أسلحة بريطانية

« اصطلحت الأمور مع بريطانيا ، على نحو ما ، وبسرعة فائقة . إن قدرة بريطانيا على التكيّف يشهد لهذه الأمة بصحة نادرة الوجود . فبدون تردد ، سارت لندن في خط المنتصر . وجاء السفير السر مايكل رايت يقدم اوراق اعتماده للواء قاسم في شهر آب . منذ ١٤ تموز ، كان قد طمأن لندن وزميله في طهران ببرقيتين قال فيهما : « الثورة العراقية تخدم مصالحنا ..

... أخذ الرأي العام العربي يتحدث عن الخطر الشيوعي . غير أن البريطانيين كان لهم رأي آخر : « انها ثورة في السطح ،

تغييرٌ في الجهاز السياسي ... »

... ولئن كانت موسكو بارزة في بغداد ، إلا أنها لم تكن وحدها . فالعلاقات مع بريطانيا كانت ممتازة ... في ليل ٢ تشرين الثاني ١٩٥٩ في لانكستر هاوس ، أقام رئيس الجمعية الانكليزية – العربية ، السر سبيرس ، حفلة استقبال كبرى على شرف ممثلي العراق بحضور رؤساء المشروعات ومديري المصارف وأدباء وعلماء آثار نجد بينهم مالوان وزوجته اللطيفة آغاتا كريستي التي تعيش في العراق حوالي ستة أشهر من اصل ١٢ . والجميع هنا كانوا يعلمون الى أي حد ساهم ماكميلان ، إبان رحلته الى موسكو ، في عقد الاتفاقات الاقتصادية بين العراق والاتحاد السوفياتي .

... إن نظرة تُلقى على ميزان المدفوعات العراقي ، الذي سجّل آنذاك ربحاً ينوف عن ٤٠ مليون دولار ، تبيّن أن العراق ، خلال عام ١٩٥٩ ، قد زاد بشكل محسوس حجم مبادلاته مع الغرب . وإن أفضل دليل على التفاهم الودي الروسي – البريطاني حول العراق ظهر في يوم ١٤ تموز ١٩٥٩ ، العيد الأول للثورة ، حين عرضت في شوارع بغداد الدبابات الانكليزية والسوفياتية تحلّق فوقها أسراب ميغ وفامباير » .

(ص ٢٥٢ – ٢٥٨ – ٢٧٤ – ٢٧٥)

ج – نوري وقاسم . الكويت وسوريا .

« هذا الصعود نحو التقدم يسهّله أيضاً المناخ السلمي الذي

أوجده العهد الجديد المتحرّر من سياسة الأحلاف العسكرية الكبرى . لقد انتهت السياسة الخارجية من غاراتها المغامرة ، وعادت الى اتجاهها التقليدي نحو ثلاث نقاط : دمشق وطهران والخليج الفارسي . نحو الخليج ، بدأت حركة واسعة ستجعل من بغداد عاصمة هذا البحر الهندي . ضد إيران ، تسعى بغداد الى « مراقبة » شط العرب . نحو دمشق أخيراً ، دمشق الفاتنة ، استؤنف الركض لتأمين الارتباط الاقتصادي والسياسي بين البحر المتوسط والخليج الفارسي . ذلك طموح قديم لملوك بلاد الرافدين والاسكندر والعباسيين حاربته مصر الفراعنة والبطالمة ومحمد علي وعبد الناصر . إن تطوّرات الأزمة السورية في آذار ١٩٦٢ تشهد بعناد التاريخ هذا .

إن العراق شديد التمسّك بما يسميه حقوقه الطبيعية التي لا يمكن أن تسقط على الكويت لدرجة أنه لم يتردّد في قطع علاقاته مع لبنان والولايات المتحدة ، لأن هاتين الدولتين قد اعترفتا بسيادة الكويت وتبنّتا في هذه المناسبة وجهة نظر القاهرة ...

... ولئن أصرّ العراق على الحصول على العائدات الضخمة لبترول الكويت فلأنه يأمل في أن يصبح بذلك السيد المالي والجيو سياسي للشرق الأوسط . وسيجد على شواطىء الكويت أماكن صالحة لإنشاء مرفأ ضخم يفوق البصرة ويحتل زعامة حركة تجارية تتخذ هذه المرّة اتجاه شرق – غرب ، وتستطيع ان تروي سورية بعكس حركة النقل التقليدية .

حلب ، الموصل ، بغداد ، الخليج ، بل وحتى تركيا ،

المرتبطة بواسطة الطريق الطبيعي العظيم ، طريق نهر الفرات ، يمكن أن ترتبط في المستقبل بواسطة شبكة من الطرقات والسكك الحديدية تعيد إنشاء المجموعة الضخمة السياسية التجارية التي كانت قائمة في عصر السلوقيين خلفاء الاسكندر . وستجد الهند والصين واندونيسيا واليابان مراكز تصريف مناسبة ، كما في عصر سندباد البحري .

... أَفليس واضحاً أن بغداد التي قطعت علاقاتها مع واشنطن ، قد أبقت علاقاتها الطيبة مع لندن رغم أن لندن هي المسؤولة عن أزمة الكويت ؟ ذلك أن بغداد التي تعي مصيرها شبه – الآسيوي لا تيأس من لندن ، بل العكس هو الصحيح . فبغداد تعلم أنه قد يبدو مفيداً لبريطانيا في يوم ما أن تقلب تيار التجارة لمصلحة هلال خصيب مفتوح على الشرق الأقصى . وهكذا نرى الى أي حد يرتبط مصير سوريا طبيعياً بمصير الكويت .

إن المسؤولين العراقيين يبنون أملهم على حادث ما زالت تحيط به ظلال الدبلوماسية السرية . هذا الحادث يعود إلى أوائل عام ١٩٥٨ . كان الرئيس ناصر بالغاً آنذاك ذروة مجده . وهو يتخذ هدفاً لهجومه بريطانيا وحلف بغداد . ويضم سوريا مهدداً طريق البترول . ودعايته تقلب إمارات الخليج . ولم تكن لندن وبغداد قد ردّتا على هذه الضربات القوية بأكثر من جمع أردن بائس الى عراق مديون .

وفي تلك الايام ، شرع نوري السعيد ، على ما يبدو ، يرجو

أصدقاءه أن يعطوه الكويت . قال لهم : «انكم بذلك ستحققون عدة إصابات بحجر واحدة . أولاً ، تمنحون الاسرة الهاشمية شعبية لا مثيل لها . ثانياً ، تحررون الخليج من الخطر الناصري. وأخيراً تكون في حوزتكم الاموال اللازمة لشن هجوم مضاد واسع النطاق باتجاه سوريا » .

ولكي يطمئن لندن ، وعدها نوري السعيد بتقديم ضمانات جوهرية ، سياسية وعسكرية .

وفي مؤتمر سري انعقد في البصرة ، وحضره ، فضلاً عن نوري السعيد والامير عبد الاله ، ممثلو بريطانية **والولايات المتحدة الاميركية** ، وصل الاتفاق على ما يقال الى حد التخطيط لتدخل الجيش العراقي عند الضرورة . إن تردّي الاوضاع السريع في العراق وسقوط نوري السعيد قد حطها هذا المشروع. الا ان هذا المشروع ما زال يلازم المفاوضات السرية الغريبة التي تدور حول الكويت ، والتي تحير المراقبين . من يستطيع أن يؤكد أن شروط اتفاق جديد بين بريطانيا والعراق لن تتجدد غداً وأن **قاسم أو غيره** لن ينال ما وُعد به نوري السعيد نصف – وعد ؟ »

(ص٣٠٦–٣٠٨)

ملاحظة : بهذه الصفحات ينتهي كتاب «عراق الانتفاضات» الذي صدر قبل سقوط قاسم بقليل . ونحن لا نعلم شيئاً عما يرويه المؤلف من كواليس المخابرات والدبلوماسية الدولية . إلا

انه لا يمكن الشك في التحليل العام « للعلاقات الموضوعية » في الشرق العربي ، وهي العلاقات التي لا بد لكل « وطني » أن يعيها .

حقاً إن التجزئة العربية هي أكبر ركيزة للامبريالية : تلك ليست حقيقة اقتصادية وحسب . انما هي حقيقة اقتصادية تنعكس في السياسة الثابتة للدول الامبريالية . أفليست السياسة تكثيفاً للاقتصاد ؟

أ . م .

٩ – آ – حول التدابير والقوانين الاقتصادية والاجتماعية الأخيرة في العربية المتحدة .. ما هي طبيعتها ودوافعها وأهدافها ؟

[يذكر المقال المشاريع التي تناولها التأميم – « التجارة الخارجية والبنوك وشركات التأمين وعشرات الشركات الصناعية المختلفة » – ثم يذكر القرارات الأخرى ولا سيّما قرار فرض الضرائب التصاعدية . ويتساءل : ما هي هذه التدابير ؟]

حاولت الدعاية المصرية والمسؤولون المصريون ، بما فيهم عبد الناصر ، إظهار هذه التدابير بأنها اشتراكية .

لا شكّ في ان هذه التدابير هامة ... ولكن أهمية هذه التدابير لا تعني أنها أصبحت اشتراكية ...

إن هذه التدابير أبقت جميع أسس الرأسمالية ، فهناك ما زال حق الملكية الكبيرة . وهو يسمح للشخص أن يملك أسهماً بمبلغ مائة ألف ليرة في مجموعة من الشركات ، ويمكنه أن يملك معها أراضي وبنايات ، وأن يبني مؤسسات أخرى وغير ذلك ...

إن هذه التدابير تدخل ضمن نطاق ما يسمى برأسمالية

الدولة .

إن رأسمالية الدولة أو ما اصطلح على تسميته بالقطاع العام، هو ، في البلدان المستقلة الحديثة النمو ، ذو طابع تقدمي ...

... ففي ظل سلطة الطبقة العاملة ، وفي المرحلة الانتقالية من الرأسمالية للاشتراكية، يعتبر قطاع الدولة مؤسسة اشتراكية، لأنه يوجد لصالح الجماهير ويبنى على أسس ديمقراطية . أما في ظل سلطة البرجوازية ، فهذا القطاع لا يتصف بهذه الصفة أبداً . وهو موضع نضال بين البرجوازية التي تحاول دائماً تسخيره لمصالحها وبين الجماهير الشعبية التي تعمل لانقاذه وجعله في خدمة المصالح الشعبية العامة . ومن هنا يظهر تناقض بين الاحتكارات الكبرى وبين فئات البرجوازية الأخرى وخاصة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وجماهير الشعب ، حول هذا القطاع .

... إن الحكم في العربية المتحدة حكم إرهابي يعتمد الأسلوب المباحثي في كل الأمور . وهوموجه ضد جماهير العمال والفلاحين والطلاب والمثقفين في الاقليمين وضد مصالح البرجوازية الوطنية السورية ...

إن قطاع الدولة في البلدان المتخلفة لا يمكن له أن يقوم بواجبه اذا لم يُبن على أسس ديمقراطية واسعة .

[ثم يتحدث عن « مشاركة الرساميل الاستعمارية واستمرار الاستثمار الاستعماري » وينتقل الى «الاسباب القابعة وراء هذه التدابير » ، وهي :]

١ – تلبية متطلبات خطة التنمية والتوسع في إفريقيا ..

٢ – الوفاء بأعباء القروض المختلفة ...

٣ – تركيز ومركزة الصناعة والرساميل ...

٤ – الاجهاز نهائياً على الاقتصاد السوري وبلعه نهائياً .

٥ – التناقض بين الزمرة الحاكمة وبين بعض الاحتكاريين المصريين ...

٦ – ضغط الجماهير الشعبية من أجل مطالبها ...

٧ – عزلة الناصرية في الميدان العربي ...

٨ – ضغط الحوادث الدولية وسرعة التطور في بلدان مثل كوبا وغينيا واندونيسيا ...

[وينتقد المقال اعطاء نسبة من الأرباح للعمال ويطالب برفع الأجور ، ثم ينتقل الى سوريا ، فيقول :]

والقوى الاقتصادية السورية التي لعبت دوراً في نهضة سوريا الصناعية لم تستكمل جميع طاقاتها في ميدان التطور الاقتصادي وفي ميدان النضال المعادي للاستعمار. ومن هذه الزاوية ، يمكن القول ان بعض التدابير الاخيرة سابق لأوانه في سوريا ويحمل طابع المغامره ...

وهنا يطرح سؤال : أليس وراء هذه التدابير ابتلاع سوريا نهائياً وتمصيرها كلياً ؟ فقد قضي على الاقتصاد السوري وأصبح لقمة سائغة لما يسمى بالمؤسسة الاقتصادية التي تشارك فيها رساميل فردية مصرية كثيرة ، ستصاب التجارة السورية بضربات أخرى ، وهذا كله سينعكس على حالة الطبقة العاملة

والجماهير الشعبية كلها في المدن والريف . وسوريا ستكرّس بعد هذه التدابير بلداً زراعياً وبلداً لصناعة الاستخراج ، أي ستكرّس بلداً تابعاً لمصر المتطورة صناعياً والمصنّعة بشكل كبير . واذا كانت البرجوازية السورية تفكر ببناء بعض الصناعات ، فهذا التفكير قد انعدم من أساسه ... ويدرك السوريون ان الخطوة التالية هي توحيد النقدين .

إن التدابير التي اتخذت في ميدان الاصلاح الزراعي توسّع نطاق هذا الاصلاح . وتحمل بعض الفائدة للفلاحين الذين نالوا أرضاً سابقة . ولكنها لا تحل الأمور بشكل كامل، فان ملكية ١٠٠ فدّان هي ملكية كبيرة بالنسبة للاراضي المصرية الممتدة على ضفتي النيل والتي تعطي ثلاثة محاصيل في السنة .

كما أن هذه التدابير يجب ان تشمل الاقليم السوري . والنقص الكبير مستمرّ في ميدان معاملة الفلاحين ومساعدتهم بالبذار والماء وغيرها ...

... إن هذه التدابير ليست اشتراكية وهي تدابير رأسمالية في صالح البرجوازية كطبقة . ولكن ذلك لا ينفي انها تجري تحت تأثير الأفكار الاشتراكية ، وهي دليل على قوة هذه الأفكار وعلى مدى جاذبيتها ...

... إن النضال ضد التمصير وضد ابتلاع سوريا يجب ان يتسع ويزداد . فتحت ستار القطاع العام وملكية الدولة ، يجري تحويل سوريا الى بلد تابع ، ويمنع تطورها اللاحق ...

الأخبار اللبنانية العدد ١٩٦١/٧/٣٠ مكرر في العدد ١٩٦١/٨/٦

ملاحظة : هذا الكلام « المتنوع » يؤدي وظيفة تقديم السلاح الفكري أو بالأصح الكلامي لأعداء الوحدة من اليمين و « اليسار » :

من اليسار : كلمة « رأسمالية الدولة » ، « بقاء الملكية الكبرى » (؟) ..

من اليمين : «تدابير سابقة لأوانها» تحمل طابع المغامرة..»

أما « الجبهة الوطنية » التي ستقام بين هذا « اليسار » وهذا اليمين ، فيكون خطها المقترح : النضال ضد « تكريس سوريا بلداً زراعياً وبلداً لصناعة الاستخراج » ، ضد « ابتلاع سوريا من قبل مصر الضخمة والمتطورة صناعياً » .

تُرى ، هل تريد صحيفة الأخبار إقامة صناعة ثقيلة في سوريا ، وفي ظل الرأسمالية الوطنية ؟ وهل ينبغي لكل بلد عربي أقل تطوراً ان يصرف النظر عن الوحدة مع البلد الأكثر تطوراً ؟ أم أن صحيفة الأخبار تلوّح للرأسمالية السورية بالانفصال عن البلد الأكثر تطوراً (مصر) للاتحاد مع البلد الأقل تطوراً (العراق) ؟

أ . م .

ب – الوضع الجديد في سورية والموقف من التدابير الاقتصادية

[تحت هذا العنوان ، وفي أعقاب الحدث الانفصالي ، نشرت « الأخبار » مقالاً قالت فيه :]

إن الحلقة الرئيسية في مجموع هـذه التدابير هي تأميم بعض الشركات . وهذه الشركات جميعها هي شركات وطنية رأسمالها وطني سوري صرف والقليل منهـا رأسمال عربي لبنـاني على الأغلب كشركة الاخشاب في اللاذقية .

هذه الشركات المؤممة منها ما هو صغير أو متوسّط ومنها ما يمثل احتكاراً ضخماً .

وتحديد الموقف هنا يجب أن يبنى على أساس اعتبار مصلحة التطور الاقتصادي في البلاد ومصلحة جماهير العمال . ولا شك ان تطور الاقتصاد الوطني ، في ظروف سوريا الحالية ، يتطلب تشجيع المشاريع الانتاجية الوطنية الخاصة وحمايـة الانتاج الوطني من مزاحمة الرساميل والبضائع الأجنبية .

واذا كان الشعب ينظر نظرة وطنية الى الرأسمال الخاص ويطالب بتشجيعه وحمايته ويرفض بعض القيود المرهقة المفروضة عليه فعلى أصحاب هذه المشاريع أن يدركوا المصلحة الوطنية أيضاً . وكل محاولة لوضع مصلحتهم الطبقية فوق المصالح الوطنية تجلب الضرر للأمـة جمعاء ولهم أيضاً . وإن بعض التنازلات الطوعية من أجـل ضمان وحدة القوى الوطنية بأجمعها ضد الاستعمار وفي سبيل توطيد الاستقلال وازدهار الاقتصاد ، أمر في صالح الأمة باجمعها ، كما هو في صالح البرجوازية الوطنية .

ملاحظة : الحقيقة أنّ البرجوازية المذكورة قد استبقت نصائح « حزب الطبقة العاملة » وقامت « بالتنازلات الطوعية »

وأغدقت الوعود للعمال منذ يوم ٢٩ ايلول . ولم يكن بين الشركات المؤممة شركة صغيرة أو متوسطة ، بل كان رأسمال كل من هذه الشركات المؤممة يتجاوز ٣ ملايين ليرة : فهل تعتبر الصحيفة هذا المبلغ صغيراً ، في سوريا ، وقد اعتبرت أقل منه بكثير كبيراً ، في مصر (مصر الأكثر تطوراً على حد قولها)؟.

اما الاصلاح الزراعي ، فقد نسيت صحيفة الحزب نقدها اليساري له ومطالبتها بتوسيعه «على غرار ما حدث في مصر» ، واكتفت بالدعوة الى تثبيته ، كأساس للوحدة الوطنية (بين الطبقات المستثمِرة والمستثمَرة ضد الخطر الناصري) .

أ . م .

١٠ — حول مقتل فرج الله الحلو

ذكرت جريدة البرافدا السوفياتية في تعليق لها ما مفاده أن تفاصيل القضية وملابسات الاعتقال « لم تُعرف بعد » . هذا صحيح !

ولكن ثمة ملاحظات أولية لا بدّ من تسجيلها :

١ — **لقد مات** فرج الله الحلو منذ يوم اعتقاله **في أواخر حزيران ١٩٥٩** . وبالرغم من أن صحيفة الحزب الشيوعي البريطاني (ديلي ووركر) نشرت هذا الخبر ، فقد استبعدته الصحف الشيوعية اللبنانية ، وفتحت حملة عالمية « **لانقاذ حياة** فرج الله الحلو » ، دامت سنتين ، الى أن نشرت أخيراً نبأ وفاة الشهيد في عدد النداء الصادر في ٣٠ ايار ١٩٦١ . **وتهرّبت** النداء من ذكر تاريخ الوفاة ، حتى أن التصريحات والشهادات التي أخذت تنشرها كانت توحي بأن الوفاة لم يمض عليها وقت طويل . (فقد جاء في نهاية شهادة عبد الكريم محلّمي : « هذه بإيجاز **بداية** قصة التعذيب الرهيب التي أودت بحياة البطل »...

٢ — تبيّن من النصوص الرسمية التي أذاعها السوريون

الانفصاليون في مؤتمر شتورا (١٩٦٢) أن فرج الله الحلو كان مصاباً **بمرض في القلب** وأن الدواء لم يكن يفارقه . فلماذا وقع عليه الاختيار ، وأرسل من بيروت الى دمشق في الوقت الذي بلغت فيه حملة القمع المعادي للحزب الشيوعي أشدّها (١٩٥٩)؟ ألم يكن هناك في بيروت أو صوفيا أو براغ رفيق آخر صحيح الجسم للقيام بالمهمة ؟

٣ — الشخص الذي سلّم فرج الله الحلو لرجال المباحث هو من أصحاب السوابق . (اسم هذا الشخص هو من « معطيات مؤتمر شتورا) : فقد كلفته قيادة الحزب في صيف ١٩٥٧ بتنظيم الاعتداءات على « التحريفيين » ... الخ ... الخ ...

أما الشهيد بيار شدريفيان ، فقد اعترفت جريدة النداء بأنه كان من « المنشقّين التحريفيين » ، الأمر الذي لا يمنعها من المتاجرة بدمه بين حين وآخر .

١١ — حول كتاب أنور عبد الملك

« مصر مجتمع عسكري »

يمكن اعتبار هـذا الكتاب ، الذي صدر في باريس عـام ١٩٦٢ ، **نموذجاً** للإنتـاج الفكري للشيوعيين المصريـين ، ومواقفهم ، ومشاغلهم ، وخلافاتهم .

إن المؤلف ، رغـم تحيّزه الظاهر في عنوان الكتاب وفي أكثر فصوله ، بعيد عن الأحكام السطحية والقاطعة التي يصدرها الرفاق السوريون واللبنانيون والعراقيون .

يذكر أنور عبـد الملك التقدم الكبير الذي حققته مصر في ظل « الحكم العسكري » . ولكن ذلك لا يشكل ، على حـد تعبيره ، بناء للاشتراكية ، انما هو بناء قومي واستعادة للذات . والشروط الجغرافيـة والديموغرافية والتاريخية تعطي هـذه التجربة مظهر (تطور في حالة أزمـة » ، نظراً لأن الجهـاز العسكري يشلّ الديالكتيك الاجتماعي .

وهكذا يتبين القارىء نقاط القوة ونقاط الضعف في هـذا العرض الذي يقدّمـه أحـد الماركسيين المصريين المعروفين . وتتلخّص هذه النقاط في نظرية « تميّز مصر » و « الطابـع

النوعي للمجتمع المصري » .

إن « تميّز مصر » أمر لا شكّ فيـه (كحقيقة نسبية) : النيل ومقتضيات الريّ ، الوحدة الكيانية والدولة المركزة ، التاريـخ العريق الراسخ ، دور الجيش والبيروقراطية . وأنور عبد الملك محقّ في اظهار هذا **الجانب** من الأمور .

وهو أيضاً محق في مـا يقوله عن المغزى **العالمي** للتجربـة المصرية ، باعتبارها « تسهم في اسقاط حظوة الرأسمالية في نظر شعوب العالم الثالث » .

الا أن تميّز مصر لا ينفي وضعهـا العربي وتاريخهـا العربي ومصيرها العربي . بين التميّز المصري والمغزى العـالمي ، يجب اعطاء « الطابع العربي » حقه كاملاً . إن انتقاد الميل التشنجي الى إهمال مصر الفرعونية واسقاط مصر القبطية لصالـح مصر العربية الإسلامية ، في دراسة التاريخ ، لا يجوز أن يـؤدي الى السقوط في النزعة « الاقليمية » و « القبطية » . وقد سقط أنور عبد الملك في هذه النزعة .

ولدى حديثه عن الشيوعيين المصريين ، يميـل المؤلف الى تضخيم وتزيين دورهم الفكري .

لقد قدم الماركسيون المصريون مساهمة فكرية جدية ليس أفضل ما فيها نظرية التميّز . الا أن المـاركسية المصرية لم تؤد مهمتها على نحو صحيح لأنها لم ترتفع الى « ماركسية عربيـة » تبدأ باتخاذ موقف انتقادي جدي من نشاط الماركسيين المصريين والاحزاب الشيوعية في الوطن العربي .

يقول أنور عبد الملك أن جريدة المساء كانت ، بين اوكتوبر ١٩٥٦ ومارس ١٩٥٩ ، الورشة الفكرية لمصر الجديدة ... والحق يقال ان البناء لم يكن كله سليماً !

يقول أنور عبد الملك في خلاصة بحثه — وهي خلاصة أكثر ايجابية من الكتاب ، ولعل ذلك مرده الى أن معظم فصول الكتاب كانت جاهزة قبل يوليو ١٩٦١ ؟ — إن التجربة المصرية قد أثبتت أن الدولة وحدها تستطيع أن تفرض وتائر النمو الجديدة في البلدان الكولونيالية ذات الاقتصاد الزراعي والكومبرادوري، وبدّدت الخرافة القائلة بان الرأسمالية الخاصة قادرة على تحقيق مهمات الوثبة الكبرى الى الأمام . هذا صحيح كل الصحة، وهو يعني وجوب تخطي علاقات الانتاج الرأسمالية، وتجاوز « مرحلة » التحرر الوطني الديمقراطي .

يجب الاعتراف بأن ما فهمه قادة التجربة « العسكرية » من خلال الممارسة ، قد ظل بعيداً عن فكر الغالبية الساحقة من اليسار الماركسي ونصف — الماركسي .

والحال ، إن الخط اليميني اللااشتراكي للاحزاب الشيوعية في سورية واكثر الاقطار العربية يرتبط بخطها الاقليمي المعادي للوحدة. (فالآفاق القطرية تبدو آفاقاً « رأسمالية تقدمية »).

هذا يقودنا الى نقطة ضعف أساسية في الكتاب : لقد استهوت أنور عبد الملك قصة « مكافحة الاستعمار للشيوعية » في الوطن العربي . ومن نافلة القول إن الاستعمار لا يكافح الشيوعية اذا لم يكن نشاطها يمثل خطراً حقيقياً على مصالحه الأساسية . أفلا

يرى انور عبدالملك ان الخطر على الامبريالية يتمثل في الخط الوحدوي — الاشتراكي ، وان مواقفه وزملائه خاطئة جوهرياً في قضية القضايا : الوحدة ؟

يبدو أن أنور عبد الملك لم يفكر أبداً بتحليل دور الامبريالية في تعميق التجزئة العربية — التي كانت تتصل بأسلوب الانتاج الاقطاعي والبدائي ، فجعلتها الامبريالية تجزئة بنيانية عميقة لاقتصاد كولونيالي مجزأ وتابع تستمد وجودها الأساسي من علاقات العصر الامبريالي .

لم ير انور عبد الملك هذا الجانب من الأمور . ولذا فهو لا يستطيع ان يحكم على الدور الذي لعبته القيادات الشيوعية العربية، موضوعياً ، في الآونة الأخيرة : تلك حقيقة موضوعية جوهرية تظهر أيضاً في دراسة الاتجاهات السياسية في المشرق العربي (وهذا ما يتبين من كتاب بيار روسي الذي صدر عن الدار نفسها التي أصدرت كتاب أنور عبد الملك) .

ولقد نشر الاكاديمي السوفياتي ميرسكي في أواخر عام ١٩٦٢ مقالاً بعنوان « الوضع الجديد في الشرق العربي » أكد فيه ان الطبقة الرأسمالية المحلية (والاستعمار الجديد من ورائها) ترى في الناصرية خطراً لا يقل عن خطر الشيوعية ، مستشهداً على كلامه برأي مجلة ريناشيتا ، المجلة النظرية الصادرة عن الحزب الشيوعي الايطالي . إن ميرسكي ، هو أيضاً ، يضخم « الخطر الشيوعي » في المنطقة . ولكن كم يبعدنا تحليله عن تقديرات الستراتيجي المعظم الفريق عفيف البزري !

١٢ — من الوثيقة الصادرة عن مؤتمر
جبهة التحرير المنعقد في وادي الصمام آب ١٩٥٦

« في سبيل تأمين انتصار الثورة الجزائرية
في النضال من أجل الاستقلال الوطني »

... إن الحزب الشيوعي الجزائري ، رغم انتقاله الى العمل السري والدعاية الصاخبة التي أحاطته بها الصحافة الاستعمارية ... لم يستطع أن يلعب دوراً يستحق الذكر .

إن القيادة الشيوعية ، البروقراطية ، التي ليس لها أية صلة بالشعب ، قد عجزت عن تحليل الموقف الثوري تحليلاً صحيحاً .

لذا ، فقد أدانت « الارهاب » ، وأصدرت الأوامر ، منذ الأشهر الأولى للثورة ، الى المناضلين الشيوعيين في منطقة أوراس الذين قدموا الى مدينة الجزائر يطلبون منها التوجيهات ، أصدرت إليهم الأوامر **بألا يحملوا السلاح** .

إن الخضوع للحزب الشيوعي الفرنسي قد اتّخذ طابع سياسة « نَعَم ! نَعَم ! » مع الصمت الذي أعقب منح السلطات الاستثنائية لحكومة غي موليه .

إن الشيوعيين الجزائريين لم يتمتّعوا بالشجاعة اللازمة لفضح الموقف الانتهازي للكتلة الشيوعية البرلمانية الفرنسية ، بل لم يقولوا كلمة

واحدة بصدد تخلي الحزب الشيوعي الفرنسي عن العمل الفعلي ضد الحرب الاستعمارية في الجزائر : المظاهرات ضد التعزيزات العسكرية ، اضرابات عمال النقل والبحرية التجارية والمرافىء والمخزونات وضدّ شحن المعدات الحربية .

لقد اختفى الحزب الشيوعي الجزائري كمنظمة جدية خاصة بسبب سيطرة عناصر أوروبية في صفوفه ، وقد أدّى تزعزع قناعاتها القومية الجزائرية المصطنعة إلى تفجّر تناقضات الحزب أمام المقاومة الوطنية المسلّحة .

إن فقدان التجانس وفقدان الانسجام السياسي الناجم عنه ينبعان بصورة رئيسية من الغموض ومن الاعتقاد باستحالة تحرر الجزائر القومي قبل انتصار الثورة البروليتارية في فرنسا .

إن هذه الايديولوجية التي تدير ظهرها للواقع هي من مخلفات مفاهيم الحزب الاشتراكي الفرنسي الموالي لسياسة الدمج الانتهازية .

وهي إذ تنكر الطابع الثوري للفلاحين بشكل عام وللفلاحين الجزائريين بشكل خاص ، تدّعي حماية الطبقة العاملة الجزائرية من خطر مشكوك فيه ، خطر السقوط تحت سيطرة « البورجوازية العربية » ، وكأن استقلال الجزائر سيتبع حتماً طريق الثورات التي لم تُنجز ، أو كأنه سيعيد الجزائر الى ضرب من النظام الاقطاعي .

وإن الاتحاد العام للعمل الخاضع للنفوذ الشيوعي يدور في فراغ ، وهو ليس قادراً على إعلان أو تطبيق أي شعار ...

نقلاً عن « **المجاهد** » ، عدد خاص ، بالفرنسية ، ١٩٥٦

الفصل الخامس

١ ـ لمحة عن الاحزاب الشيوعية الأخرى

آ ـ **الحزب الشيوعي الفلسطيني** كان حزباً مختلطاً من اليهود والعرب . وفي عام ١٩٤٤ ، تأسّست « عصبة التحرر الوطني » من العرب ، وكافحت مشروع التقسيم حتى ١٩٤٧ – ١٩٤٨ .

وفي عام ١٩٤٨ ، تأسس **الحزب الشيوعي الاسرائيلي** من اليهود والعرب ، برئاسة سموئيل ميكونيس . وتحسّنت أوضاع الحزب بين الأقلية العربية ، مع تردّي العلاقات السوفياتية – الاسرائيلية . وظل قسم كبير من العرب في فلسطين المحتلة يؤيدون مرشحي الحزب الشيوعي في الانتخابات النيابية والبلدية حتى عام ١٩٥٩ . وقد لاحظت جريدة لوموند الفرنسية أن « الصدام بين الشيوعية والناصرية » قد أفقد الحزب المذكور معظم أصواته العربية ، حيث فضّل مسيحيو الناصرة مثلاً تأييد منظمة عربية إسلامية النزعة في انتخابات اوائل

نوفمبر ١٩٥٩ .

ب ـ **إنطلق الحزب الشيوعي الاردني** من مدن الضفة الغربية ، برئاسة فؤاد نصّار . وبلغ قوة كبيرة في فترة ١٩٥٥–١٩٥٧ ، في نابلس والقدس وعمان ورام الله ... ، حيث حقق نجاحاً ملحوظاً في الانتخابات النيابية . وتعرّض للقمع بعد الانقلاب الرجعي في عام ١٩٥٧ . وقد تحوّل ضد الوحدة في منتصف عام ١٩٥٨ ، بتأثير القيادة الشيوعية السورية .

وتشير بعض المعلومات الى وجود اتجاه للتخلص من وصاية الرفاق السوريين . اذ يرى عدد من الشيوعيين الاردنيين ان سياسة « محاربة الناصرية أولاً » التي سار عليها بكداش وأقرانه حتى بعد تموز ١٩٦١ وايلول ١٩٦١ ، ساعدت عملياً في تعزيز النظم الملكية الرجعية .

ج ـ في السودان ، تأسست « **الحركة السودانية للتحرر الوطني** » على يد طلاب سودانين في القاهرة ، عام ١٩٤٤ . وكانت تحت نفوذ الحركة المصرية للتحرر الوطني التي أصبحت فيما بعد منظمة حدتو . وأبرز أقطابها محمد السيد سلام وسعيد فاضل .

وهناك منظمة يسارية أخرى هي « **الجبهة المعادية للاستعمار** » التي تأسست في عام ١٩٥١ برئاسة حسن طاهر الزروق ، وأرسلت نائباً الى مجلس الأمة في عام ١٩٥٨ . ولها ارتباطات وثيقة مع « اتحاد نقابات العمال السودانيين » الذي كان في الماضي منتمياً الى الاتحاد النقابي العالمي .

وقد حُلّت المنظمتان مع جميع الاحزاب السودانية في نوفمبر ١٩٥٨ .

د – **في تونس** ، يوجد حزب شيوعي صغير ، تأسس منذ عام ١٩١٩ ، توجّهه قيادة بروقراطية من النمط السوري – الجزائري (محمد النفع ، محمد حرمل ، موريس نزار) ، سارت على ايديولوجية يمينية وإقليمية ، وأبعدت الحزب عن النضال الوطني المسلّح .

هـ – **في المغرب** ، الحركة الشيوعية أحدث مما هي في الجزائر وتونس . كانت تشكل في عام ١٩٣٠ الفرع المراكشي للحزب الشيوعي الفرنسي . وقد عانى الفرع من الخلاف والانقسام بين اعضائه المسلمين والفرنسيين والاسبانيين. وأعيد تأسيسه كحزب شيوعي مغربي مستقل في عام ١٩٤٣ ، برئاسة علي يعته وليون سلطان والعياشي . وضعه الحالي لا يختلف عن وضع الحزبين الشقيقين في الجزائر وتونس . ومما يزيد في عزلته وجود الاتحاد الوطني للقوى الشعبية الذي تأسّس في اوائل عام ١٩٥٩ ، واستقطب الجماهير الكادحة في المدن وقسم كبير من الأرياف .

٢ ــ المسألة القومية والكولونيالية اليوم

تحت هذا العنوان ، نشرت مجلة « الحياة الدولية » الصادرة في موسكو (عدد أيار ١٩٦٣) مقالاً افتتاحياً كتبه ك. ايفانوف، الاخصائي بشؤون آسيا وافريقيا .

جاء هذا المقال، في كثير من استنتاجاته، مناقضاً للايديولوجية الستالينية السائدة ومتفقاً مع الأفكار التي ينشرها الماركسيون العرب ، منذ سنوات .

يقول ايفانوف ان التجربة التاريخية الطويلة قد أثبتت الطابع الأحادي الجانب والخاطىء للفكرة القائلة بأنّ الطبقة البرجوازية هي حتماً قائدة حركة التحرر القومي ، ويشير الى ان لينين لم يركّز اهتمامه على التعاريف والمخططات المبسّطة بل على تطور الحياة الغني بالمعاني والاشكال . ويستشهد على ذلك بعدد من أقوال لينين . (هي بعض ما أوردناه في دراستنا « الستالينية والمسألة القومية »، المنشورة في الفكر السياسي، الجزء الاول).

ويؤكد ايفانوف أن « الأساس الاقتصادي لحركات التحرّر القومي لم يعد اليوم تكوين سوق داخلية بل وجوب تحويل

نظام الاقتصاد الرأسمالي العالمي والتقسيم العالمي الراهن للعمل اللذين تكوّنا في ظل الامبريالية واللذين يفرضان على البلدان المتخلفة قيوداً وسلاسل ثقيلة ، غير مرئية أحياناً . إن تكوّن السوق الداخلية لا يلعب الا دوراً ثانوياً؛ وهو أمر يحل تدريجياً، وفي أحيان كثيرة رغم مقاومة المستعمِرين ، وهو يسهم في تعزيز القومية **البرجوازية** في البلدان المعنية » .

هذا كلام جديد وصحيح تماماً ، بوجه الاجمال . بقي علينا ان نحدّد موضع التجزئة العربية في اطار « الاقتصاد الرأسمالي العالمي والتقسيم العالمي الراهن للعمل اللذين تكوّنا في ظل الامبريالية ... » ، وبالتالي أن نقيّم تقييماً صحيحاً دور حركة الوحدة العربية (وحركة الوحدة الافريقية) في « تحويل » هذا الاقتصاد وهذا التقسيم .

وقد لفت انتباهنا في مقال ايفانوف مقطع نُثبتُه في ما يلي :

« إن ليل الاستعمار المظلم قد دام طويلاً ، وإن شمس الحرية ما زالت تُبهر الناظرين لأنهم لم يعتادوا عليها . وبين جميع الذين ينهضون للدفاع عن الحرية القومية وحقوق الشعب، يكون أحياناً من الصعب التمييز بين الوطنيين الحقيقيين و « وطني » العجل الذهبي . وتتدخل في الأمر دوائر استخبارات الدوائر الامبريالية ، فهي تارة ترفع عملاؤها الى مواقع عالية ، وتارة تحاول اسقاط حظوة القادة المخلصين في نظر شعوبهم أو في نظر الدول الأخرى. وكثيراً ما يرتكب هؤلاء القادة أنفسهم أخطاء،

إمّا إفرادياً او مع مجموع الحركات التي يقودونها . لذا فإن الشعوب تحتاج الى انقضاء فترة من الزمن كي تتوجّه وكي تميّز الحنطة من الزؤان والوطنيين الحقيقيين من صنائع المستعمرين ... » .

– كم نتمنّى ان يكون ك . ايفانوف ، المعروف بعطفه الصادق على قضايا العرب والشعوب المضطهدة ، أقل تجريداً وأكثر وضوحاً ، حتى نتناقش بصراحة تامة ، لخير الاشتراكية والسلام .

بعض المراجع الرئيسية

١ — الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط

تأليف والتر لاكور ، بيروت ، ١٩٥٩

يتناول هذا الكتاب علاقات الاتحاد السوفياتي باقطار المشرق العربي وتركيا وايران منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٩ .

المؤلف خبير بريطاني من حزب العمال .

كتاب شامل . ولكن الترجمة ضعيفة قام بها أشخاص غير ملمين بالموضوع .

وقد ارتكب المؤلف بعض الاخطاء : فهو يحاول أن يخفف من جدّية وأهمية الدعم السوفياتي لمصر في أوائل نوفمبر ١٩٥٦ ، وأن يشكك في جدّية مؤامرة الحشود التركية على سوريا في صيف ١٩٥٧ ! وهو يتصوّر أن الشيوعيين السوريين سيطروا في عام ١٩٥٦ على « الاتحادات النقابية الثلاثة » (؟!) . يميل الى تفسير ما يعتقده من قوة الشيوعيين في سوريا وضعفهم في مصر بالخصائص النفسية للسوريين والمصريين (ميل السوريين الى المجازفة ، كما يقول) . يقول ان الانعطافات الكبيرة في تاريخ الاحزاب

الشيوعية المحلية لم يكن لها أثر على هذه الاحزاب وقوتها ونفوذها !
أحد مصادر نقاط الضعف في هذه الدراسة أنها مكتوبة « من الخارج » .

٢ — الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية ،

تاليف الحكم دروزة ، بيروت ، ١٩٦١

كتاب مسهب معزّز بوثائق كثيرة عن مواقف الاحزاب الشيوعية المحلية من قضايا الوحدة وفلسطين والنضال ضد الاستعمار. وقد أصاب المؤلف في كثير من تعليقاته. وهو بشكل خاص على حق حين يبين ان الحزب الشيوعي السوري في أوائل عام ١٩٥٨ لم يطلب اتحاداً فيدرالياً بين سورية ومصر ، بل اقترح اقامة كونفيدراسيون رمزي لا قيمة له .

القسم الاول من الكتاب ، ويتناول الاسس النظرية ، ليس في مستوى الدراسة السياسية . المؤلف الشاب لم يدرس التوضيح والتحليل الماركسيين للمفاهيم الأساسية : المجتمع ، الطبقة ، الامة ، الخ . ومع ذلك أراد أن يفند تعاليم الماركسية في موضوع « الطبقة والامة » ، فرفع الحجة التالية : اذا كان الانقسام الطبقي للبشر أقدم وأعمق من الانقسام الى أمم ، فلماذا تكوّنت أمة فرنسية وأمة انكليزية وأمة المانية وأمة صينية الخ .. ولم تتكوّن أمة من العمال وأمة اخرى من الرأسماليين وأمة من الفلاحين الخ ... !!!

المؤلف على حق تماماً عندما يبين ان العقيدة لم تكن عند

الاحزاب الشيوعية المحلية سوى أداة لتبرير السياسة وتقلباتها .
الا أنه يجب ان نحذر السقوط في موقف يجعلنا نتصوّر ان العقيدة إنما وُجدت أصلاً لهذا الغرض .

وقد أخطأ المؤلف في قوله ان الحزب الشيوعي المصري كان أول الاحزاب الشيوعية التي تحوّلت ضد الوحدة في عام ١٩٥٨ .
وقد نقلنا عن كتاب الحكم دروزة وثائق الحزبين الشيوعيين المصري والعراقي الواردة في الفصلين الثالث والرابع من كتابنا .

٣ — الجهاد الأفضل ،

تأليف عمار اوزيغان ، بيروت ، ١٩٦٢

دراسة ممتازة للثورة الجزائرية وقضاياها ، من خلال الردّ على مقال كتبه العربي بوهالي في مجلة كومونست السوفياتية .
المؤلف ، وهو اليوم وزير للدولة في الجزائر ، كان قبل الثورة بسنوات قليلة سكرتيراً للحزب الشيوعي الجزائري .
المترجم لم يهتم بتوضيح ما يجهله القارىء العربي في المشرق من حوادث وحقائق قد لا تفوت على القارىء الفرنسي .

٤ — L'Egypte en mouvement , par J . et S . Lacouture . Paris , 1956 .

دراسة عن مصر وثورتها . فيها فصل عن الحركة الشيوعية المصرية التي يرى المؤلفان أن لها مستقبلا كبيراً (بعكس لاكور) .
المؤلفان أقاما في مصر ، فترة طويلة ، بين المثقفين المصريين

ولا سيما اليساريين من أبناء الأقليات . وقد تأثرا بالجو ، كما تأثرا بجنسيتهما الفرنسية . جان لاكوتور يعمل اليوم محرراً في صحيفة لوموند ومراسلا لها في الجزائر والمغرب .

٥ — L'Afrique du Nord en marche , par Ch . A . Julien , Paris , 1952 .

كتاب كلاسيكي يتناول بلدان المغرب الثلاثة. المؤلف اشتراكي فرنسي متأثر بهويته .

٦ — L'Algérie hors la loi , par C. et F. Jeanson , Paris , 1955 .

كتاب ممتاز . يتناول تاريخ الجزائر الحديث . فيه معلومات وافية عن تاريخ الاحزاب والهيئات السياسية . وفرانسيس جانسون هو رئيس « شبكات الدعم » التي قامت في فرنسا لمساندة جبهة التحرير الجزائرية .
الكتاب يثبت ان الروح العلمية الموضوعية لا تتعارض مع تأييد الشعوب المظلومة تأييداً لا يشوبه تحفظ .

خاتمة

الموقف عام ١٩٦٤

فرغنا من وضع هذا الكتاب في صيف ١٩٦٣ . وقد تطور الموقف خلال العام المنصرم على النحو التالي :

ضاعف الاتحاد السوفياتي تأييده ومساعداته للجمهورية العربية المتحدة والجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية . زار الرئيس احمد بن بلا الاتحاد السوفياتي ، حيث استقبل كزعيم اشتراكي . وأمضى خروشوف ستة عشر يوماً في الجمهورية العربية المتحدة (ايار ١٩٦٤). ونوّه البيان المشترك خروشوف-عبد الناصر بسير شعب الجمهورية العربية المتحدة « على طريق التطور الاشتراكي » ، وأشاد بـ « دور الجمهورية العربية المتحدة والرئيس جمال عبد الناصر في مكافحة الاستعمار بكل صوره القديمة واشكاله الجديدة الخ ... (*)

* — استغرقت اذاعة البيان حوالي خمسين دقيقة . وطابعه العام انه بيان صادر عن قوّتين مستقلتين وحليفتين . الا ان البيان سكت عن موضوع الوحدة العربية رغم تطرقه الى الوحدة الافريقية .

ورحّبت الدوائر السوفياتية بانقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ في العراق ، مع تنبيهها الى خطر اليمين، كما رحّبت بوقف الحرب مع الاكراد ، ثم أيدت الوحدة التنسيقية بين بغداد والقاهرة ، واعتبرت ان التقارب مع الجزائر والقاهرة هو مقياس التقدمية في المنطقة العربية ، كما أيدت بحماسة قرارات التأميم الصادرة في العراق في تموز ١٩٦٤ .

ودشّن شوإن لاي جولته في القارة الأفريقية بزيارة القاهرة. وأعلنت الصين الشعبية في مناسبات لاحقة تأييدها للوحدة العربية « في الشكل الذي تريده الشعوب العربية » (على حد ما ورد في البيان الصيني — اليمني) .

* * *

في هذا الاطار ، تحوّلت الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي « نحو تأييد الخط الناصري » ، على نحو أو آخر ، — عن قناعة ، أو تكتيك ، أو تبعية . والاستثناء الوحيد (والنسبي) هو الحزب الشيوعي السوري — اللبناني .

١ — **الماركسيون المصريون** أصبحوا يشغلون مناصب رئيسية في صحف القاهرة (محمود أمين العالم ، عبد العظيم أنيس، حسن فؤاد، أحمد مرسي، اسماعيل المهدوي ، الخ...)، عيّن خالد محيي الدين رئيساً لدار أخبار اليوم ، ونشر **محمود أمين العالم** مقالاً في مجلة الهلال بتأييد « الحركة العربية الواحدة »، ضمّنه نقداً أساسياً لسياسة « بعض القيادات اليسارية » في الشرق العربي . (*)

* — يقول محمود أمين العالم : =

٢ – رحب الشيوعيون العراقيون بانقلاب ١٨ تشرين .

= « ... ولا أملك في هذا السياق من المقال أن أمنع نفسي من تساؤل طالما تساءلته لنفسي في أسف ومرارة : لماذا لم تستطع جريمة الانفصال هذه ان توقظ بعض من كانوا متورطين في افكار ومواقف عملية غاية في التخلف والجمود والخطأ ؟ لماذا لم توقظ جريمة الانفصال طائفة كبيرة من قادة الحركة اليسارية العربية من سباتهم الفكري والسياسي ، فتتحرك عقولهم لتأمل الثورة العربية على نحو جديد ؟!

كان الانفصال جريمة ناصعة ، ان صح التعبير ، ناصعة في توقيتها ونتائجها . فما كان أجدر أن يكون نقطة تحوّل من الخطأ وتطهّر منه !

ولكن الانفصال – يا للغرابة والأسف – كان ذريعة لمزيد من التورّط في الأخطاء . وكانت الأخطاء متشابكة متداخلة .

الفشل في تحليل اجراءات يوليه الثورية ، كان سبباً في الفشل في تحليل الانفصال المترتب عليه !

والفشل في ادراك الطاقات الثورية الكامنة والمتجددة في قادة ثورة ٢٣ يوليه وفي متابعة تطورهم الفكري من أرض الوطنية الى أرض الاشتراكية ، كان سبباً في الفشل في تحليل حقيقة الاجراءات الثورية التي أصدرتها هذه القيادة !

وكان التمسّك بقيم ديمقراطية شكلية ليبرالية وتغليب شعاراتها – في أغلب الأحيان – على المعارك الوطنية ومشروعات التقدم الاجتماعي – كان سبباً في العجز عن إدراك حقيقة الطاقات الثورية في قادة ثورة ٢٣ يوليو !

وكان الفشل في ادراك تداخل المراحل الثورية من تحررية واشتراكية ، سبباً في التمسك بتلك الديمقراطية الشكلية الليبرالية ، بل سبباً كذلك في مواقف اقليمية ضيقة – من الناحية التطبيقية – تتناقض مع الاقرار النظري – في الوثائق المكتوبة – بالقومية العربية .

وهكذا ... سلسلة من الأخطاء تفضي في النهاية الى الفشل في تحليل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعجز عن اتخاذ الموقف الثوري منها ... » . (مجلة الهلال ، سبتمبر ١٩٦٤) .

وتشير بعض الروايات الى أن عزيز الحاج في براغ حذّر الأكراد من الاتفاق مع حكومة العراق . ومن المعروف ان الحزب الشيوعي العراقي قد أيّد قرارات التأميم والوحدة التنسيقية . وتشير بعض الروايات الى أنه أيد أيضاً قيام الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق . وما زالت غالبية الشيوعيين العراقيين في السجون .

٣ – ما زالت قيادة الحزب السوري – اللبناني مستمرة في تأييد أكرم الحوراني .

فقد اكتشفت صحف الحزب وجود «ثلاثة أجنحة في البعث الحاكم » ، وأعلنت تأييدها للجناح الذي يريد إقامة « جبهة وطنية مع الاشتراكيين (جماعة الحوراني) والشيوعيين وجميع الوطنيين الشرفاء » (*) . وفي أيلول ، نشرت هذه الصحف بيان أكرم الحوراني الموجه ضد ثورة ٨ آذار ، إلا أنها حذفت منه القسم المتعلّق بمؤتمر القمة – نظراً لتعارض هذا القسم مع تأييد الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية للمؤتمر المذكور تأييداً لا يشوبه تحفّظ(**) .

٤ – في الجزائر ، يؤيد الشيوعيون حزب جبهة التحرير والقرارات الاشتراكية .

* * *

* – أنظر مثلا جريدة « نضال الشعب » السرّية، عدد شباط ١٩٦٤ .

** – اعتبر الحوراني المؤتمر « تآمراً استعمارياً » ، بينما اعتبرته الدول الاشتراكية « شكلا من أشكال الوحدة ضد الاستعمار » .

ونشرت مجلة **لينك** الهندية بتاريخ ٦٤/٩/٦ مقالاً تحدثت فيه عن اجتماع ضم ممثلي الأحزاب الشيوعية في براغ ، وضمنته المعلومات التالية عن الخلافات بين السوريين وشيوعيي بعض البلاد العربية :

١ – عارض فؤاد نصار (رئيس الحزب الشيوعي الأردني) خطّ الرفاق السوريين وأعلن أن حزبه لم يصدر أي بيان بتأييد انفصال ٢٨ أيلول ، وهو يعتبر هذا الانفصال عملية رجعية واستعمارية :

تلك نهاية الوصاية البكداشية على « الاشقاء الصغار » .

٢ – عارض أنور مصطفى ، ممثل الحزب الشيوعي العراقي بعض مواقف الرفاق السوريين ، وقال ان الشيوعيين العراقيين يرفضون الاعتقاد بأن أكرم الحوراني وأحمد عبد الكريم أكثر تقدمية من عبد الناصر والناصريين .

٣ – عارض عبد السلام بورقيّة ، ممثل الحزب الشيوعي المغربي رأي الرفاق السوريين في ان الوحدة في المشرق العربي ليست هدفاً قريباً وان الوحدة في المغرب قد تسبقها ، مبيّناً ان الوحدة مستحيلة بين الجزائر التقدمية والدول الرجعية المجاورة ، وان الوحدة الممكنة هي الوحدة بين الجزائر ومصر .

* * *

على الصعيد النظري ، يتراجع القادة الشيوعيون السوريون وأقرانهم ، خطوةً خطوة عن مواقفهم السابقة :

١ – فقد جاء في المقال المنشور في مجلة « قضايا السلم والاشتراكية » ، والمنقول في جريدة النداء بتاريخ ٦٣/١٢/٢٩ بعنوان « تبادل آراء حول قضية الوحدة العربية » ان « الاستعماريين لا يريدون مع ذلك السماح بانشاء امبراطورية عربية قوية ذات ثروات نفطية هائلة وتكون تحت سلطة عبدالناصر غير المحدودة » .

٢ – خفتت جزئياً لهجةُ الحماسة نحو « البرجوازية الوطنية » ، وبدأ خالد بكداش وأقرانه يكتشفون « عجزها » عن تحقيق التقدم الصناعي والاصلاحات الاجتماعية والوحدة القومية العربية الخ ... وجاء في المقال الآنف الذكر بصدد موقف طبقات المجتمع السوري من الوحدة السورية – المصرية « ربما أبدت جماهير الفلاحين والعمال حماسة أكبر للاتحاد مما أبدته البرجوازية الوطنية » .

٣ – في حديث أدلى به خالد بكداش الى جريدة الاومانيته الفرنسية ، ونقل في الاخبار البيروتية بتاريخ ٦٤/٩/٢٠ ، بات الزعيم الشيوعي السوري يرضى لحزبه بدور « غير قيادي » في السير نحو الاشتراكية .

والطابع الغالب على هذا الحديث وغيره ، طابع التراجع والتحايل والمراوغة والحرص على عدم الخروج من إطار الاعتبارات التكتيكية « الذكيّة » : تريد القيادة الشيوعية السورية مزيداً من التصارع بين دمشق والقاهرة ، حتى يبقى لها خيطٌ من أمل ، وهي تقف ضد اللقاء والتفاهم والوحدة .

وتحاول هذه القيادة ان تظهر تعديل مواقفها بمظهر تحول

تكتيكي طبيعي يتفق مع تبدل الظروف . بدلاً من اجراء انتقاد ذاتي صريح وعلني وبدلاً من تقييم سياسة المرحلة السابقة تقييماً جدياً صحيحاً، نراها تنهج مرة أخرى اسلوب «إعدام الماضي»، مما يؤدي الى استمرار تداعي قوى الحزب . وإن سير هذا التداعي يتضمّن انشقاقات جديدة .

لقد أصدر بعض الشيوعيين اللبنانيين بياناً أعلنوا فيه رفضهم التحوّل واستمرارهم في محاربة الناصرية وتأييدهم للشيوعيين الصينيين ضد خروشوف والشيوعيين السوفيات(*) . ويميل رفاق آخرون من المثقفين اللبنانيين(**) الى تبني وجهات نظر الزعيم الشيوعي الراحل بالميرو تولياتي . ولكن المشكلة الكبرى التي تواجهها قواعد وإطارات الحزب الشيوعي السوري هي مشكلة تقييم الماضي ، وادانة خط اللقاء « الموضوعي » مع الامبريالية الانكلو – اميركية ، والانتهاء من ذلك الى استراتيجية الثورة العربية الوحدوية الاشتراكية .

اللاذقية ، ٣٠/٩/٦٤

---

* – رؤساء التنظيم الجديد (« حزب الثورة الاشتراكية ») – يوسف مبارك ، مصطفى شاكر ؛ – ليسوا من العناصر القيادية في الحزب .

** – تشير بعض الروايات الى أن بين هؤلاء نخلة مطران ، صاحب جريدة النداء .

فهرست

صفحة

صفحة

صفحة